المجتمع البشري ...؟

لماذا يشبه مستقبل مجاهيل؟ (كاهران به فا) بكتبه

هذا السؤال الذي يريد أن يستشف ويستكنه المجتمع البشري في طبائعه وأبعاده وأعماقه هو حتى الملذي الذي يصل اليه عقل البشر أصعب وأدق وأغمض وأظهر ظاهرة في عالم الانسان بما فيه الانسان نفسه وعالم الطبيعة الذي يزاوله الانسان بوسائله المتيسرة..

وانا ان أقول هنا "عالم الطبيعة" اقصد به العالم المادي الذي يقع ضمن دائرة العقل والاحساس البشريين يضاف اليهما القدرات السرية الداخلة في حيز الاعجاز، وما يلحق بها جميعا من ارهاصات بوجود عالم يمكن تسميته بـ(المرئي والمخفي) من مثل الاشباح.. الرؤيا الصادقة.. (1) telepathy اي التخاطر.. سبق الاحساس بالأحداث.. الكرامات.. التحريك على البعد.. الخ وكلها في ظاهر الأمر يعكس (اللوم والصوت - الدالين على وجودهما) من المادة نفسها ولكن لا تُدرَك ولا توزن ولا يحيط المكان.

لعل من المفيد أن أبادر الى رفع الغرابة عما قلته في تشبيه المجتمع البشري بمستشفى مجانين: فالتعبير المذكور يصدم العين أولاً ثم العقل ثانياً ويبدو في رؤية القارئ - إلى ما بعد - كلاماً منقوضاً بحكم البديهة فقد يكفي فلق الذرة وريادة الفضاء لدحض ادعائي في اقرب البديهيات الى تمام البرهان!!

ولكن هيهات هيهات لا توعدون!

ذلك ان فلق الذرة وريادة الفضاء وغيرهما من افانين العقل الوى هو النفس المطمئنة! ان البراهين الفاصلة بين العقل والجنون في المجتمع البشري نادر جداً وكشفهو حقائق الوجود قلة نادرة، أندر من الأكسير، لأن حجمهم أكثر من $\frac{1}{100}$ من الحفنة أو الستة مليارات من البشر فيكون أن يكتشف الكهرباء واحد متفرد فتح عيونه البلهاء وغيرهم على نعمة الضوء الرضيعين على مدار ليالي العمر كله.. والاغبياء من الاغنياء واوساط الناس يركبون الطائرة بروح من يملك سر الطيران وهم اوطأ خلق الله سيرة واعمالهم بصيرة.. إهذف كوبرنيكوس و اسحق نيوتن وانشتاين واعلاماً مثلهم شكوا بعبقريتهم ومثاليتهم وحرصهم على فضيلة العلم والاخلاق، شاكوا بسوء غير مرئية من المعادلات العلمية السائدة والغراء على حد سواء. فيا هنا مثال صارخ لما يسمى Paradox من حيث اختلاط ألمعية العبقرية بحتمية الهم البكم العمي الذين لا يعقلون يعكسون خطايا فقد تزيّوا وتزيّنوا واختالوا وتصدروا حتى بلغ آحادهم المخزون في ضلال العقل والضمير القيادة والريادة في سوق السخف والدمار بأوطانهم وأوطانه حيثما رحيتما وجدوا في أكناف الأرض، منتفزهاً، يزدانا بالدم والنار والبوار..

ليس لي ان ازعم ان انساناً غيري لم يتصيد لارتياد تفاصيل مبكة الاجتماع البشري بما تحويه من أرحام الخبالات والضلالات وصنوف البلاهة والسفاهة واضغاث الخيوط الخارجة عن الحصر لما هو نقض البناء وتقبيح الصلاح وارتداد عن العقل وانبهار بالجنون وتجريم الفضيلة يشتبك برأي يشيح فيه ضوء الجانب المشرق من مصادر العقل النير والهدف الخير فيحصل التفاعل على نحو ما وتتفاوت في تقبل المجتمعات البشرية للجانب الداكن والمشرق: وعلى قدر التخلف يكون نفور المتخلف من وضوح الرؤية بما فيه من حث على (الانجاز) فقد بادر شعب افغانستان الى هدم كل بناء من براقع الحضارة ملبيكهم امارة الله ضاربة، وكاد يزور اوروبا في بعض مصالح بلده.. فاذا كان أحد أولئك العباقرة الصلحاء تصدى لشرح (البشرية) في تفاصيل مجتمعها فقد ضاب فأل في الالتقاء بما شرح. ولربما كان يرتد رسل أحد العظام من حيله بذيل كل الاحمال، في الاعتناء بالجنس البشري من خلال رؤيته لمجالات السلاح النووي فيتفجع عليه متوسلاً بكل ما في حوزته من قوة الاقناع. لعل وعسى ان يثوب الرشد الى شرائح ذات طول وطول في السياسة والاقتصاد لعلها ترحم نفسها قبل غيرها، فالمارد النووي اذا انفلت من قمقمه لم يرحم بلداً ولا عشيرة، ولكن لعلها ترحم نفسها قبل غيرها، فالمارد النووي اذا انفلت من قمقمه لم يرحم بلداً ولا عشيرة، ولكن لعلها ترحم نفسها قبل غيرها، فالمارد النووي اذا انفلت من قمقمه لم يرحم بلداً ولا عشيرة، ولكن

لي أجد "رسل" يتوسع في رصد السلبيات المزاحمة لخطى المبصرين والخيرين فقد قرأت له كتاباً

اعيا الاضافة احاسيس البهائم، وبعضها يدخل ضد الاعجاز.

(العمل للاستقبال) - ترجمة المرحوم علي حيدر سليمان - ولاحظت، في غالب ما يوضح من تشدد السياسة العامة عن مسار السلام، تغليظ لحكومات الغرب الى جانب مسه اللين لبعض مواقف الاتحاد السوفيتي كرد فعل لتصرف الغربيين. ها هنا وجبت الاشارة الى حقيقة بالغة المرارة في حيثيات وملابسات الدلاع الحرب الثانية [١٩٣٩ - ١٩٤٥] بقدر ما يخص نزاهة و توصل موقف الجبهة المعارضة لمغامرات هتلر وهي جبهة السوفيت و دول الغرب: باختصار شديد كان ستالين هو الذي سمح لفتيلة الحرب أن تشتعل فقد اتفق مع الالمان على اقتسام بولونيا وكان الغرب ضامناً للاستقلال بولونيا فأعلن الحرب على المانيا رغم قصور الاستعداد لدخول حرب تكون المانيا الهتلرية مستعدة لها من اضعف القدمين حتى قمة الرأس. لقد كان خط ماجينو اعلاناً سافراً من فرنسا عن ضعف قوتها في حربها مع ألمانيا فاتكلت على حصانة الخط المذكور ثم لم يفدها بعد عزله بالتفاف الجيش الألماني حائلاً بينه وبين الجيش الفرنسي، كان ستالين على خطأ شديد الخطورة في إطلاعه يد هتلر فقد اخطأ خطأين أحدهما اوشك ان يقضي على الدولة السوفيتية، والثاني انقذها من الهلاك. فقد ظن ان حرباً تقع بين المانيا ودول الغرب ستستنزف آخر قطرة دم في عروق الطرفين، فتمر سنة حتى طوى الجيش الألماني قوى فرنسا فانهارت تماماً و نجا غالب الجيش الانجليزي فيما كان (ارفاد) العبور الى بريطانيا اشبه بالمعجزة... وما حال الحول في ١٩٤١ حتى انقلب الجيش الألماني على روسيا بكل جبروته و عنفوانه و تعطشه الى الدماء طريقة بوسعة روسيا... وكانت صفحة السوفيتات تطوي من الوجود لولا الخطأ الآخر في حسابات ستالين وهو يقينه ان الغرب كان سيتفق مع الالمان لولا قبوله تقسيم بولونيا و تحويل الجيش الالماني في حربه ضد فرنسا وبريطانيا. وكان في هذا البعد مايكون عن الصواب كان بريطانيا بقيت وحيدة و اوشكت أن تفقد القدرة على الدفاع ثم بعث هتلر نائبه (هس) للاتفاق مع بريطانيا فالمشاركة في المستعمرات كثيرة، ثان لكنها رفضت رغم خطر الفناء و أنذرت ستالين بأن هتلر سيهاجمه فليكن على حذر. لكنه ضن للمانيا على الخديعة حتى فوجئ بجحافل الجيش الألماني وطيرانه الحربي فيما يشبه اقتضاض الصاعقة.. فكان خطأه من حسابات هذه سبباً لنجاته:

أخطأ مرة في تقدير الموقف فأوشك على الهلاك.

أخطأ مرة ثانية في تقدير الموقف فنجا بفضل خطئه.

والغريب في اكثر من ان الجبهة الروسية عمدت بعد الحرب الى نشر أساطير فيما سمّي (المؤامرة الكبرى على روسيا) على حين لم تكن المؤامرة الا من صنع ستالين نفسه مدفوعاً بالطمع الذي أسلفت بيانه. والموضوع برمته يحتاج الى شرح و تفصيل لا يحتمله المقام، ولا يفوتني أن أذكر موقف لينين واصراره على الصلح مع الألمان سنة ١٩١٧ برغم معارضة قوية من جبهة عريضة في الثورة فقد اخفق في قراءة خارطة القوى على ساحة الحرب وأسقط من حسابات النصر والهزيمة القوة المادية والبشرية الهائلة للولايات المتحدة المتربصة فيما كانت ألمانيا (منهكة حرب) فما لبثت ان اعترفت بالهزيمة. فلو كانت روسيا الشيوعية تتعامل مع الاحداث بالعقلانية العارفة لا بالخيالات الأيديولوجية لكانت مرتّ أن تأخذ بالموازين والمقاييس السائدة فتستمر في التحالف مع الغرب وهو موقف أشرف من مصالحة الألمان بالتخلي

على معارضة تضم خمسين[1] مليوناً من المواطنين. لقد قرأت بعض ما كتبه لينين في تبرير هذا الصلح فيقول: انه كان بمثابة ما قد تربحه به قاطع طريق وطلب تسليم سلاحه اليه فلو انه قاوم لكان نصيبه القتل وضياع السلاح معاً فآثر الحياة حتى استعاد السلاح و المال الذي معه.» لكن الواقع انه استعاد هذه الاشياء بفضل جيوش الحلفاء مع ملاحظة ضياع فرصة اندر من الاكسير تكبدها حكم لينين فقد استحال عليه المشاركة في الجلوس الى مائدة الصلح مع الحلفاء كشريك منتصر و انسدت مسالك الدنيا أمامه نتيجة هذه المصالحة مع الالمان فصارت روسيا فوقعة تجتر امجاد الثورية على جوع و عرى وتخلف في غير موقف الجيش. وقد لا يخلو من غرابة أن يتكرر في حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ و ١٩٣٩ – ١٩٤٥ موقف روسي على ايام لينين و على ايام ستالين يتسم بالاواقعية و بسوء التقدير وتكون نجاة روسيا في الحالتين مقترنة بكفاءة دول غربية اعتبرتها روسيا وتعتبرها شياطين الأرض فلو قدر للالمانيا أن تهزم ثالوث امريكا و بريطانيا وفرنسا في الحربين لأصبح مستقبل روسيا في كليتهما صيرورة على اشد الاختلاف مع القالب السوفيتي ولما انتصب لينين وستالين عملاقين في العالم الشيوعي وغير الشيوعي (مع ملاحظة كون ستالين بالمرة و ضخامة شخصية لينين الى حد كبير بلغ حد تماثله و تبديل لينينغراد الى بتروغراد في تسميتها الأولى).

لكن طالت وقفتنا مع برتراند رسل و أحوال روسيا بما يوهم التقليل من تركيز عنوان هذه الكتابة في جنون المجتمع البشري فالذي أراه هو أن الموضوعين في دلالتهما لا يخرجانه عن نطاق العنوان ولكن بشيء من التمييز. تخلد ساحة ماحوظة لتمثل تفاصيل أفانين الجنون (الحضاري!) كالحماقات والسخافات التي يمارسها مليارات الأفراد العاديين ساعة بعد ساعة. فأقول في ادب جم و إكبار بالغ: إن فيلسوفاً من عملقة البشر هو برتراند رسل يسكب روحه و وجدانه في الدفاع عن مصير الانسان المهدد بالقنبلة الذرية والنووية.. فينبري بطل مجلياً نفسه في أداء رسالته المقدسة ويمضي الى هدفه غير ملتفت الى الجهد و التعب و القيل والقال. ولكن تأتي المفارقة في عدم اهتمام ملايين المعتادة لنشاط ملايات البشر المنشغلين بتوافه الأمور بما هو دونه التفاهة وفيما لا يجدي على الأطلاق ويضر ضرراً بليغاً كأنه يعني غفلة ملايين انسان عن تشييع جنازة الأبدية وانسان وليس واحد منهم يتبرع بثوب قديم يستر عري انسان مفلس.. جنون مسابقات الريش و ملايات المصارعة و أنواع الرياضات منها كرة القدم التي اصبحت، في الحق والواقع، لعنة هذا العصر.. عضوية ضارب كرة قدير تشترى بعشرات ملايين الدولارات، واللعبة تفرغ تحوز من الهتاف وتعب و مصرف عشرات الملايين المرهورسين في هذا المستنقع المجنون فلا يتلقى الجانين من بركات الركل والرفس [وما قد يحصل اثناء ذلك من تجاوز بشرية هي العنوان و العلامة الدالة على مستوى البشرية المعتدة على البدين والقدمين والجرجة في ترويض الكرة وردها عن الشبكة] على حين يتوسل (رسل) بالعلماء لعلهم يبذلون جهداً في شكم النووية وظهورهم مكشوفة لاستخفاف بهم من ملايات الرعماء والحمقى وانعطاف البهائم و تجاهلهم اصل السياسة، في غالب الأحوال، و تمضي الحكومات ذات الحول والطول و صنوف اسباب الدمار الشامل في تسيم سياساتها النووية تجاهل كلي لرسل وامثاله من العالمين: اقول «العالمين» ليقين الله حيثما كان هناك بشر لهم صوت في تسيم سياسات بلدهم يأتي تزجيرهم من مستوى السوق والبورصة وبقية المعايير المشرعة الابواب لكل ساع على قرعين حيث لا يجد رسل وامثاله [الا فيما ندر] انساناً يصغي لخلاصة الخلاصة من ثقافات كل العصور، فانهم

---

(١) علمنا هذه الحقيقة من كتاب الرئيس غورباتشيف فيما لف يعظم الثمن المدفوع في شراء «هدنة» وصلح كان أجانب الالمان اصوج اليه من تراب الكوبر. فالرقم (٢٠ مليون) يشكل ثلث سكان روسيا في أوائل القرن العشرين. تحدثنا في الصفحة ٦١ من كتابنا (لا تهدم الحياة) أخيراً الى موقف لينين من اصراره على الصلح مع الالمان لقد

بعيدة وأجانب وما يثيرهم في دنيا يعتاد الناس عمقتاد الأمور وما أظن ان لهذه المشكلة علاجاً فالفلاسفة لهم مدى نظر وتقدير يقاس بارق الأجهزة العالمية لديهم الوزير والأمير والصاحب والسكير. وبفرض انهم فكروها فانهم مرتبطون بلغة عامة الناس والضرورة تلجئهم الى التجاوب مع ما استقر عليه رأي اولئك العمار. وبفرض ان هذا الرأي كان وطابقاً للتعقل و لما يدعو اليه رسل وصحبه فكيف يكون التصرف إذا توجه شعب دولة أخرى الى وجهة أخرى فيها الويل وسواد الليل لشعب يرعى الحبل. فالمفارقة الكبيرة في مسعى رسل وأمثاله هي في بذل جهدهم النبيل لمنع الكارثة النووية حيث لا دخل للأنانية والشهامة الانسانية في المنع و الأجازة لأن القرارات الخاصة بالمصائر تبرم بين الساسة في تقاطعهم اليومي مع سواد الناس الذين يضيقون ذرعاً بتزهات وعبقرة الحاملين في مناقشاتهم العلمية العصية على أفهام المعترك السياسي و الاقتصادي و التعابث وسويعات الشباب والرياش .. الخ.. الخ.. وحضرتني هنا نكتة:

اثنان من العمال دلدى في ضيعة لهم، كان الأكبر يؤذن لصلاة الظهر وكان الأصغر ينادي على البستاني ليربط الدابة حتى لا تسرح في الغوائل، فلا يفهم البستاني كلامه.. فحبكت النكتة معه وكان وجهه فتوجها شطر اخيه فصاح بصوت عال: سامح الله أمي في هذا الضجيج و الكبيج المانع من تفاهم الناس فقد صار عمارنا.

إن أمثال رسل قليلو الخبرة في هموم غمار الناس، وكثيرون من تلك الهموم عبث صبيانه وأقل من ذلك ولكنه في نكرة القهوة العربية بعد وجبة شرهية وتشتهيه النفوس حتى انه يستحوذ على جل اهتمامهم بمبعدة كلية عن لغة رسل واهتمامه. فلا أمل في فاعلية الأنانية العالمية و حب الانسان حتى يوم يألف الفلاسفة هموم السوق والحارة وأمزجتهم، فانقل هنا سطوراً من الصفحة ٥١ للكتاب رسل المذكور فهو يقول:

"من الغريب، ومن المحزن جداً، ان يلاحظ المرء كيف يؤدي سباق التسلح الى انحراف الوعي الخلقي. فلو أنني سببت لرطام متعمداً لشخص ما لاعتبرت عقلاً وطبيعياً يعمل للشر، و لكنني اذا تسببت ذلك قصداً لبضعة آلاف من الناس لاعتبرت وطنياً نبيلاً".

ترى رسل يتغرب التصرف المذكور في تلك الجبل، وأظن انه اذا التبس بالظرف المذكور في مثل حالة الأخذ بالثأر أو "التفدي بالعدو" قبل ان يتفدى به العدو" حقيقة لا افتعالاً لاستفز استغرابه. ان كثيراً من الحكم القديمة التي بطل زمانها كانت على أوانها لب لباب الفهم والذكاء فما قولك في نكاح بعض الخراعنة لأخواتهم يستولدونها بنتاً فينكحونها ليأتي النسل خالصاً من دم الخراعنة؟ وما رأيك في حج الحجاج للكعبة عراة حتى ظهور الاسلام؟ وقد يكون السبب في ذلك هو التجرد المطلق من شوائب الحياة بما فيها ورق الثوب لدى العواء وهم يطوفون ببيت الله. فالأحرام هدنة بين العري والستر، وتقول السيدة عائشة ان أحد انواع النكاح الى حين انتشار الاسلام في مكة هو ان الرجل كان يبعث بزوجته الى "فحل آدمي" متين لغلها تحبل منه بغلام صنديد. يقيناً ان رسل أنانه عبقري في بدايات عالية من العبقرية حتى انه كتب في امور صعبة ومتفاوتة وحساسة وذات مواضيع متباعدة بعضها عن بعض تأذى بسببها وضُبن وغُضن وغُرّم ولكنه، بلا شك، ذو طبع خاص به فقد كيف أنه تزوج خمس مرات كانت انفصاله من زوجاته الاربع الأولى بالطلاق لا بالوفاة وتزوج الخامسة وعمره ثمانون سنة وكان عمرها ٢٥ سنة. ولا ادري هل لحق الخامسة او أبقاها

في ظواتيم حياته! لاشك ان الجهد النبيل في حماية الدماء شرف في حد ذاته ولكن الكلام عن فاعلية وعدم فاعلية الجهد موضوع مختلف تماما فالمعول عليه في جهود المجهود بذيل المراد منه هو تقبل الواقع لما يقترح وليس لجمال وجلال ما يقترح فيكون في عرف الواقع أن التسبب في اصابة شخص بالسرطان جريمة نكراء وأن قتل ألوف الأعداء بالذرية أو بالقنابل الاعتيادية في الدفاع عن النفس أمرٌ داخل في مفهوم الواجب الانساني والوطني وتلك صورة اعتيادية لما هو من مضامين عنوان هذه الكتابة ولما (تحت الطلب) ملديين الأمثلة نختار منها نافع في الشريعة الأسلامية هي من صميم الحبكة الاجتماعية بين المسلمين منها زواج الرجل "مثنى وثلاث ورباع" و "ما ملكت ايمانكم" وله في الجنة "حور عين" بلا تعداد لكن المرأة لها زوجها في الدنيا والآخرة. وفرض على المسلم ان يغزو بلاد الوثنيين ما استطاع الى ذلك سبيلا. ومن الروايات التاريخية ان ابا لؤلؤة قتل الخليفة الثاني ثأراً لفتح نهاوند وقد تم بالكمال فشل البشر والبرهية وكل مال يمكن ان يحاج.. واذا كان رسل يحاهد ضد الاسلحة الشيطانية فانه صفوة من علماء المسلمين في بعض أيام العباسيين ابتعثوا فتنة "خلق القرآن" لا ندري كم عدد العلماء الذين قتلوا فيها جزاءً على ثبات يقينهم في ان القرآن قديم غير مخلوق..

هذه الأمامة العابرة [غير المتعمقة - حيث لا داعي للتعمق] بموقف العلماء والفلاسفة من شاكل العصر، وأولها الرعب النووي، وبموقف لينين وستالين في الحربين، كانت قراءة لتصرفات ناس من ذوي الحظوة في الثقافة العالية [رسل واصحابه] وفي السياسة بأعلى مراتبها [لينين وستالين] فوجدنا الفلاسفة - رغم نظافة ضميرهم وعلى بعد شديد من منطق العصر وحكم الواقع - ووجدنا لينين وستالين [وكثيرين جداً من ساسة القرن] اختاروا الخيار المرجوح. ولئن كان موقف رسل وأصحابه خالياً من الضرر في أسوأ الاحتمال - حسب عقيدتي - فان تصرف لينين كان مشبعا الى حد بعيد بالتوجه الشخصي المتعطش الى اللعبة الذي يخفت الى جانبه، ويضمحل في غالب الاحيان، اي رأي او موقف أو نقد لا يكون في سياق منظوره لا سيما في الساحة التي هو سابق فيها فرسانه النضال الطبقي والتحريري والديمقراطي فكل مخالفة لرأيه من مناضل أو مفكر او سياسي هي كفر مطلق وضلال مطبق وخيانة مفروغ منها ثم لم يُفد انتباهه الى خطئه بعد تردي صحته وصعود نجم ستالين الذي كانت شهيته للسيطرة المطلقة على روسيا السوفيتية وترجيه النضال الطبقي الثوري في الأرض كلها كالقضاء المبرم المنسوب الى رب العالمين وقد دامت عبادته الى ما بعد موته بسنين وعاشت قدسيته في اذهان عشرات ملايين الشيوعيين الى ما بعد اخراجه من قبره وتجريمه في امور خطيرة كثيرة. فالمنظار الذي استعرضناه في أعمال سطوع المعرفة والسياسة صورةً استقرائية رفيعة المستوى من دار الجاذيب المنشورة في صدر هذه الكتابة وكفاها أنها مستندة الى صابات وتقديرات مهدت بضواجتها الى عكس المطلوب او الى غير نتيجة..

ان النظريات والتصورات والذرائع التي انشغلت الى يومنا هذا بالمجتمع البشري وبالانسان نفسه في سياق تعليل الخبالات التي تبرز عنوان "مستشفى المجاذيب" المقترح فهذه الكتابة لم تصب واحدة منها هدفها ولا قاربته بما يكفي، في كل ما قرأته وما سمعت عنه في هذا المنظور: وانا اذ اطلق هذا الكلام الضخم فليس من باب ضخامة العلم وضخامة الأطروحة فالفلاسفة، اجزل الله ثوابهم، يوجهون عينا صولاء في قراءة (التاريخ والاجتماع وهامشيٌ واحد ترشح من الانسان نفسه) تغني منتقدهم من الاشتغال على علوم الاولين والآخرين في رد آرائهم المعلولة

والكلام هنا الفلسفة والعقيدة العلمية وليس الأمور المختبرية الخاضعة للتجربة والقضايا ذات البراهين التي تحضن صحتها في طياتها حتى اذا هذلتها الادلة انتقضت على تفرع.

ان الفلسفات جميعها وكل فكر وراي يتزين دماغ الانسان بلا تجريب يمكن ان تندرج تحت واحد من هذه الاحتمالات: (١) مطلق الصواب. (٢) ضئيلها من الصحة والخطأ. (٣) كثير الخطأ قليل الصحة. (٤) قليل الخطأ كثير الصحة. (٥) مطلق الخطأ. فاذا كان رأي من الآراء خليطاً من الخطأ والصواب يمكن أن يقابل لدى الناس بواحد أو أكثر من الاحتمالات: (١) قبول بعض اخطائه وبعض اصاباته. (٢) رد الجانب الصحيح منه. (٣) قبول اخطائه. (٤) قبول صحيحه. (٥) رد اخطائه. (٦) قبول صحيحه وخطأه. (٧) رد صحيحه وخطأه.. وسواد الناس في هذا الميدان يسلكون طريقا مهده استاذ متخلق في غالب الحال ويحدث في بعض الاحوال ان رائداً يشار اليه بالبنان يُنيف ويُشرف حتى يخدر الى عبث الصبيان و تخريف المجانين كالذي فعل خالد بكداش، سكرتير الحزب الشيوعي السوري، من فتح مستالين بعد موته وافراجه من لحده اذ قال: إن هذا إعتناء للماركسية فما ملكت الاباء اقول: اذا كان فتحه اعتناءً للماركسية فكيف يكون الافلاس؟ واذا جاز لبكداش ان ينتزّ درراً من قبيل ما سلف بيانه فان رجل الدين ايضا يستطيع أن ينتشي الى الالحاد دعيا زيادة تمتين قواعد الايمان بالآخرة!!

تبين ان المستشف المذكور يستضيف مجانين عمالقة.

حتى لا يؤول كلامي على عداتي للماتيريالزم أقول ان في ميدان الدين أيضا يوجد اناس يجاهدون بما يملكون من طاقة الجسد و رهافة الذهن و طراوة الايمان للبرهنة على فساد الزعم بارتياد السماء. وارجع الى بواكير عصر الترجمة في أوائل حكم العباسيين تجد علماء الدين افتوا بالكفر لكل علم وحكمة و منطق... الخ ترجمت الى العربية من اليونانية حتى ان الهندسة نفرع ارضت في هذا الأطار ولكن كان من حسن الطالع ان الخلفاء لم يكونوا من الكهنوت فقد سهل عليهم اغماض العين عن العلوم و الفنون ما داموا قد أكبوا على الخمر و الهوى واللذائذ.

يقول ابن خلدون: ان اقل العلوم وصمة، قام سيدنا عمر بن الخطاب أمر بحو علوم الفرس.. و نلتفت الى العلمانية، فقد قرأت في مذكرات آغاضام في الهند ان الكبير عالم بريطاني في الفيزياء صرح في بدايات محاولة الطيران: ان من يزعم ان جسماً أثقل من الهواء يمكن ان يطير لهو مجنون مأفون.. وكان جماعة من المفتونين بأرسطو تعصبوا لاحدى مقولاته التي تدعي ان الجسم كلما كان أثقل يكون نزوله الى أسفل أسرع فتصدى أناس لاجراء تجربة من فوق برج بيزا المائل فأسقطوا ثقلين متفاوتين فوصلا الى الارض معاً. لكن دراويش ارسطو بقوا مصرين على باطلهم.

الكهنوت الاوروبي في العصور الوسطى اعتقوا عالما فلكيا أصر على دوران الارض حول الشمس. وسُجن غاليليو الى محكمة التفتيش فاضطر أن ينفي دوران الارض حفاظاً على حياته..

هذه النماذج تشمل العقلاء أكثر من الجهلاء ذلك ان الجاهل السادج يردد قولا سمعه من الاساتذة فهو خليق أن يتبع باطلاً جديداً يردده رائد آخر له لسان أحلى وأمتع. لكن رائده الأول يتابع الباطل القديم مدة أطول لسببين أوثقين: احدهما صعوبة الخروج لمقالته في فضيلته بالقياس الى تلاميذه. ثانيهما التحرر على ضياع دراويشه دون ان يستطيع الانسلاخ من جلده القديم للدخول في جلد جديد بيسر وسهولة. فالاساتذة ناس يشار اليهم بالبنان فالتقمص في قالب طريف و تبديل عقيدة يحتاج (تكتيكها وجهداً و وقتاً) خليقاً بأهل الخبرة. اقول من باب المثال ان شخصاً مثل (فهد) ما كان منتظراً أن ينتشي الى الليبرالية كما أن السيد قطب خليق أن يدفع حياته ثمناً لرسالته.

من التأويلات العجيبة في ميدان الدين قرأت أموراً في منتهى البعد عن البصيرة وعلى غير داع لها مطلقا فالمفسر يقول ان القول بوجود شفاء في الادوية شركٌ فالله هو الذي يخلق الشفاء في الدواء.. وقرأت في

الديباج الأخضر [الكتب هذا يوم ١٧/٦/١٩٩٨] في اصدكتب الاستاذ عباس محمود العقاد انه لا يجوز القول بكونه الشاعر بحرفة بذاتها وإنما الملكة الله تبث في الشاعر قوة الاصراق . فاذا تم التسليم بمثل هذا الكلام حصل من التحريف ما لا يستقيم به دين لعاقل ذلك ان رب العالمين يصبح خالقاً لكل الارادات وأغلبها شريرة و ظالمة و مخجلة و مخلة بالكرامة فيكون ان الفاسق الذي يشتهي الزنا لد تحرك شهوته بارادته و انما بارادة الله .. ثم انه لد يتوجه الى المبحث العلمي الدقيق : رب العالمين خطاه نحو المكان المطلوب ولد يحصل له استعداد مفارغة الزنا الد بمشيئة رب العالمين موضعاً معيناً من جسده كي يقوى على الاسلاح .. حتى الحاضرة لد تكون مريدة بارادتها ان تستجيب للفاحشة وتفتح المجال للرجل كي ينالها فالله الفاعل المريد . خلاصة القول ان الاعمال جميعاً ، زينها وشينها ، من صنع يد الله . وقد غاب عن ذهن القائلين بهذا الرأي ان الكمبيوترات والآلات السحرية التي يحار فيها الفهم لا تبدأ عملها تلقائياً فور وضعها المحين الد اذا حركها الله الى العمل فطائرة رب العالمين هارس موكل بتشبيه هذه الآلات .. و تتأكد هذه النتيجة من ملاحظة ان الآلات المطلوبة للاستجابة الحاصل الابعد تصليحها فما أشد ارتباط ارادة الله بارادة المصلحين فاذا حصل عطب في التليفون لا تتحرك ارادة الله الد اذا جاء انسان عادي يسمونه عامل التلفونات : عندئذ تحرك ارادة الله الى تحريك ارادة العامل ، فما الحصل اذا حرم العامل الملعون ؟ يأتي من هذه التداعيات الساذجة ان الناس قبل اكتشاف حركة الارض كانوا أو وجب ان يكونوا مؤمنين بشروق الشمس وغروبها في كل يوم باذن وارادة خاصة من رب العالمين وان انطلاق صفوفها في الصباح يكون تبعاً لأمر واجب التنفيذ . وشأن القمر كشأن الشمس في شروقه وغروبه و هلاله وبدره ومحاقه و العلم بامر القمر يقضي نصف الشهر القمري في احد القطبين خلال كل شهر على حين كانت الشمس تصيف وتشتي نصف سنة في كل من القطبين بعد ان كانت تظهر وتغيب في باقي انحاء الارض كل اربع وعشرين ساعة مابين ليل و نهار . ترى ماعسى ينتظرون رجل جيل لد قبل انكشاف هذه الحقائق وانتشارها ، ان شمساً يا هذا مختفية منذ اربعة اشهر في منطقة القطب الشمالي و دائمة الظهور فلا ريا في القطب الجنوبي ثم تتنبك الحالة الى النقيض ... ؟

و لي مع العقاد وقفات طويلة فهو عملاق في الأصالة و التعمق و مزق الأجنبة ، و كان في أواخر حياته سيارناً مع أنور سلفية ولكن وراء ذلك السور المنيع من الصيغ القاهرة الباهرة قل نظيرها بل ندر الندرة كلها في القديم والحديث . ففي كتابه المطبوع « إبليس » اجتنى جملاً قالها في البداية بفخامتها وعراقتها وصرامتها وهو فيها أشد وثوقاً بنفسه من عالم يردد ببديهية مستغنية عن الدلالة فاستهل كلامه بما يفيد انه لو كان الانسان اختلق للشر ابليساً يلعن فيه الشر والفساد يكون قد اهتدى الى حكمة باهرة ... وعاشت الفكرة في ذهني قارب أو بلغ عشرين ثم انبثق في ذهني فجأة صوت مقيقة محجوبة بقوة بيان العقاد فيما قال وهي انه اذا كان ابليس مختلقاً وفرافة لتهاوت الديانات السماوية في غمضة عين وشهقة نفس بل انها تكون أكبر الكذبة في تاريخ الانسان الملتحضر وغير الملتحضر فيكون الصوم والصلاة والحج والزكاة والجهاد وجود الكتب في تمجيد رب العالمين من خلال تمجيد أعدائه ونواهيه أباطيل وأضاليل . ويحصل عندئذ ان الوثني ان ينحت صنماً من صخر أو وثناً من خشب رمزاً يعبد من خلاله خالق الكون [تقربنا الى الله زلفى] يكون أجرى بالكبة من مختلق مشهور دجال .. منذ سنة من حرب الصليبيين مابين مهاجم يريد سحق الدجالين ومدافع عن تراث انتقل الى خاتم الانبياء و يا هيبة المتعطشين الى رشفة من كوثر ومن رضاب ثغور عين ..

لقد صادفني في أول قراءاتي للكتب السلفية من نحو ستين سنة ما سمعت من عبقري قل نظيره بين اقرانه هو الغزالي، حكيم الاسلام وفيلسوفه، إذ جعلته على تقيته مبالغا فيها في رد بعض الآراء المنسوبة الى ايام النبي محمد وهي بادية الضعف مناقضة للفطنة قبل ان تصدم ذهن العالم المتبحر. ومن اعجب ما صدم عيني شيء قرأته في كتاب لمذهب اسلامي يقول ان نجمة وقعت من السماء فتمنى العباس عم النبي ان تقع في بيته فكذبها اختارت بيت علي (رض). والكتاب مطبوع على أيامنا هذه وقد انكشفت حتى للأعمى ان النجوم الثوابت كلها اكبر من الأرض ملايين المرات أو الوف المرات في اقل تقدير والله اعلم أمكن رؤيتها. ودع ان تتصور ضخامة الاثر النفسي الذي تحدثه هذه الخزعبلات ولو صرفت عمرك ترشد اعمى الضالين المضتوين بنجمة تقع في بيت معين لما زدت على أن شحذت همته في زيادة الوثوق بالهراء والتحسر على ضلالك وحمقك.

هذه عينات غير مختارة من أوساط الهراء في مستشفانا الكبير للمجاذيب أو المجانين. سنة ١٩٢٥ في أول زيارتي لبغداد سألت أكبر عالم ديني من تركستان يركب «الكاريه» من الكاظمية الى بغداد وهو مستشفى هذه المعصية بدعوى ان ركوبها حرام لولا الضرورة الملجئة.

سواء كنت أنا أو قارئ ضليع في الفكر أو متردد بين المدارس المختلفة، لا يصلح لمتابعة هذه الكتابة إلا إذا ألزم نفسه بالقيود الآتية:

١- يتخذ السياسة والاقتصاد معياراً لصحة وخطأ ما يقرأ لي.

٢- يركن عقيدته الخاصة بالوجود كلٍّ حتى لا يكيل رأيي بمكياله. فإذا استعصى عليه التجرد وغلبته قناعته فليعلن وجه الخلاف بين الرأيين او ما شاء له من الآراء.

٣- لا يفيده طرق هذا الباب اذا لم يكن صرف غالب عمره في معاناة استشفاف عالم البشر ضمن تشكيلة الوجود كله.

٤- يسمح من تفكيره واعماق نزوعه رغبته الذاتية في رجوح رأي معين لأنه النفس أمّارة.

ولا أزيد من النصح الكثير. واضيف ان الكثيرين ممن صُدِموا بآرائي، لا سيما ما كان منها ثبت صدقه، يكابرونه حتى ولو ثبت في وجدانهم أني ارى بعين مبصرة ووجدان نظيف. الا لعنة الكون كله على من يكذب لغرض أو يمارس في الحق.

لئن كنت نشطاً جداً في تقريع مثل هؤلاء فاني لا املك نفسي من نخب شراعي فكرية - سياسية تغوص في تهويماتها وتحليقاتها - اناصح التعبير - فتسبح في عالم متشنج ملتهب بالحماس ما أظنها تتذكر كيف يتغنى الناس ويلبسونه ويضحكونهم بالاريب غرباء عن الطبخ والكنس وبقية همو البشر ولكنهم ملتبسون بالفنية والشاعرية حتى بلغ فيها آحادهم مراتب الأعجاز فاقرأ معي هذه الكلمات لسارتر اذ يقول: (كان السياج حركة كبيرة خضراء مسمّرة أو موجة بحر تجمدت لحظة انتشارها. واذا بي أجد يسوع صديقة الحرب الشيوعي الصيني بباريس بعد بذخية الساحة الحمراء - أولا ادري ما اسميها في بكين.. لا شك ان (تحقيق الذات) هدف نبيل بل مُطهِّر وداخل في صميم البطولة فان رجلا مثل جلال الدين الرومي يخاطب شمس التبريزي في احدى قصائده فيقول ما معناه: تناولت في حديقتك عنقوداً واحداً فاستأذيت غنة حبيبتي وعمامتي... فقد كان جلال الدين عالماً متبحراً فلما وقع نظره على شمس تغير حاله غير الحال وصار يتجول في الازقة ومن مكان الى مكان.. ثم نظم (المثنوي) من عشرات الوف الابيات الملتهبة فجاء واحدا من أكبر تحف القصيد الوجداني في عالم الاسلام كله.. وله ديوان صغير كله ترجمة الى شمس وكله حب ولهيب وبكاء الكبد. وتشتهي احدى قصائد هذا الديوان من ابياته

مكررا بترنيمة صوفية لا يعرف لها معنى هي « تنانا ها ياهو » التي ختمت الأخيرة « ياهو » بقصد بها الله . واذكر عجز بيت واحد يقول فيه بالفارسية :

كه سر از پاي ندانم تنناها ياهو

ويعني في العربية « فلم اعد افرق بين الرأس والقدم تنانا ها ياهو » . وأحد أبياته عبارة عن هذه الترنيمة الصوفية :

تَنَنْتَنْ تَنَنْتَنْ تَنَنْتَنْ تَنَنْ
تَنَنْتَنْ تَنَنْتَنْ تَنَنا ها ياهو

فالروي مفهوم ومبرر فهو رحى دين صادف رجل دين متصوف خارق التأثير فجن به غراما صوفيا ملك قياده فلا تعارض بين الحالتين والناطق لا فتعال في الذي حدث . لكن سارتر لا يملك عذرا في الذي فعل الذي يكون « هدف » تأكيد الذات في بيع الجريدة تخطى مقاييس السلوك المعتاد هو الدافع مع ما في ذلك من وقفة مرحية لا تخلو من تصنع ، واين ذهبت دماء المقتولين في ساحة بكين وما اراده إلا جزءا صغيرا من « تأكيد الذات » السارتري لنفسه ولعامة الناس . اقول هذا وأنا متأكد من أن جماهير ساحة بكين كانت حرة ان تفعل مثل سلطة الشيوعية فيما لو تقيضت لها حيازة الحكم رغم أنها كانت ضليعا من عامة الناس بلا هوية واضح ذلك ان منطق الانطلاق الجماهيري من مثل تلك الأحوال يتطلب حكما جديرا يحقق مطالب العصيان ويكون من البداهة ان اشد المشاركين في العصيان تربصا وتصدرا هم الزعماء الجدد . ومن البداهة أيضا انهم كانوا سيفعلون ما فعله ماوتسي تونغ بالناس بعد الحقبة الاولى من حكم الحزب الشيوعي الصيني الذي افتتح عهده بمثل عدالة عمر بن عبد العزيز . والكلام في هذا طويل وقد تطرق به أو بمثله لا محالة ، لكن أجد من واجبي ان أنتبه الى سارتر وجماعته بجملة مختصرة تضع النقاط على بعض الحروف يتسع اطارها ليضم ناسا آخرين ذوي رؤى وأفكار خاصة بهم في معالجة المشاكل لم تكن بعيدة من النزوع الى تأكيد الذات ولم يكن منتظرا أن تحدث تغييرا في موازين المعيشة الى الأصلح . اقول بيقين جازم ان منبع اية جماعة فكرية أو فنية أو سياسية أو غيرها عن الموازين والصيغ والقوانين التي توفر للناس [في الجملة] جوا ومناخا يسمح دون خوف بعقلاء معقول من حرية التصرف هي بلد أدنى تردد ساعية الى غير هدف منتج أو صالح . والواقع هو أن فن تدبير المعيشة وتحقيق شيء من الرخاء المريح لم يحصل قط عن سبيل الرتوش في الكلام والزخرف في الفنون التشكيلية والجماليات المسرح والسينما بل انه لم يحصل من فلسفة بذاتها تلوي عنق الاقتصاد والسوق لينقادا الى الأمنية الجميلة التي راعبت أمنياتها السنية في اشباع الجائع وكسوة العريان وملاءة الكرامة حتى انك تجد فارقا هائلا بين الطموحات المرجوة في الثورات وبين ما يتحقق [أو لا يتحقق] من واقع الجهد المبذول بلا انقاص وهتاف ومسيرات فالثورات كلها بلا استثناء فاشلة من منظور دعاواها وعهودها السنية الحلوة رغم أنها في صدد التمهيد للانقضاض على الحكم تلوك واثقة بما هالا من نير الاهداف بعد الوصول للحكم فالأهداف بنظر صاحب النظرية لا تملك الامتناع من التحقق . وفي تعليل ذلك اقول باختصار شديد أن سببين في منتهى الخطورة يحولان بين الثورة وتحقيق حتى الأقل أولهما ان الثورة في العادة وعلى مدى الدهر تجتث الكلأ الطفيلي الحلو الميتة متوهما انها [أي الكلأ] والواقع شيء واحد فهو جاهل بالتمام والكمال اسلوب توفير القوت والمسكن والمواصلات ... الخ فالرغبة عنده تحل محل الدهاء في معادلة على أي ما يكون فالناس راغبون في الرخاء والثائرون مسيطرون على أسباب الرخاء والثورة حامية المكتسبات .

والسبب الثاني صوابه البناء في حد ذاته صعب للغاية فانه بافتراض ان التأثر ليس ذلك الجاهل الذي سميناه في السبب الأول وبافتراض انه يتوزع على بضعة مشاريع لا مشاريع الوطن كله فهو أقصر باعا و أقل قدرة من اقامة مشروع واحد وتترك الخلاف والحسد والخديعة في محاولات التسلط و اسقاط الخصوم والمنافسين على الرئاسة. اضف الى ذلك سذاجة الجماهير في فهمها لكرنفال المقاومة في السوق والشوارع تتلألأ بالشعارات بين غامضة و مفهومة وعصية على اوتاوا الا أنها حلوة في السمع والذوق مادامت تدعو الى البطولة والحق والحق وحتماً للظالمين... ثم تختفي الأضواء والليالي الملاح بعد استهلاك الكلايشي ومضغ الكلمات، ويكون جانب مهم من الرفاه النسبي الذي كان موجوداً قبل الثورة اختفى تماماً ويتعذر بعثه من جديد بالمقاومة الثورية فالقمح والدهن والسكر وقماش الفساتين وعسل النحل هو حصاد الكد والتعب و ذو أنفة وذلال لا ينقاد للحناجر التي تهتف ليل نهار: الموت والدمار والخزي والعار للشبعانين الخونة والحياة الحرة الكريمة للفقير الطاهر [وقد زاد فقراً بالعنتريات ومات منهم ألوف كسوق لطاحونة الثورة و وقود للحرب الطبقية]. وشيء من الفطنة يكشف الواقع الزري لعنتريات المتثورين فانهم والحق يقال ينطوون لاتهام المال المركوم في بيوت الشبعانين ولا يمتد نظرهم الى اليوم القريب الذي ينفد فيه مدخرات البرجوازي العين [يستثنى البرجوازي غير العين المتظاهر بصداقة الفلاحين والعمال]. خلاصة القول:

١- كل الثورات بلا استثناء تستبطن صراع الواقع المثالي من الماضي الى الحاضر ليزرع مكانه حباً ونباتاً هو في صباه من شتلات الجنة.. وهذا هو المستحيل الاجتماعي بذاته.

٢- الثائرون عموماً ناس متطرفون ينجذبون الى اشد الآراء حدّية جذرية، فتكون الاخفاقات والنكسات إحدى همومهم القاصمة للظهر.

٣- شعار (يا عمال العالم اتحدوا) كان واحداً من اكثر الخطى السياسية بعداً عن العقلانية وشرباً بتفاؤل لا وجود له في الواقع. ولو ضُغط هذا الشعار الى (يا عمال أوروبا والـ U.S.A) لبقي غير واقعي بما يكفي لفشله فما أغرب اتحاد عمال من اوطان مختلفة بعضها يكره بعضاً ويستعبده ولا يعتبره انساناً جديراً بالحرية حتى اذا وقعت المعجزة [وهي لا تقع] فحصار العمال اخواناً لم يدروا كيف يتحدون عبر حدود دولية و بأية لغة يتفاهمون وما موقف الحكومات القائمة من مطالبة العمال بحكومة للعمال وهم لا يكادون يقرأون جريدة بسيطة [كما هذا سنة ١٨٤٨] و يجهلون سن القوانين على اتم ما يكون الجهل و [في الغالب] أميون فكيف يكونون وزراء و اساتذة جامعة و علماء فلك و مهندسين للسدود و المواصلات و خبراء في الاسلاك و رؤساء ارصاد جوية في الجيش ؟؟؟؟ ويصبحون في المستقبل علماء ذرة ورواد سماء ! ألا ساء ما يزعمون و واحسرتاه على ضياع المسعى ! لابد للاعتراف العقلاني الكريم بوجود اختلال في موازين الرزق يجب علاجه على تحو سليم.. ولابد للاعتراف بحق الناس أن لهم ضياً قانونياً وطبيعياً و اجتماعياً في سلوك المنهج الذي يرونه مؤدياً الى زيادة ثروتهم ضمن الروادع التي تشكم الطمع والخديعة. والواقع هو أن التطور الذي لا اختلال فيه ولا يستبطن ضرراً بسواد الناس لصالح الأقلية قد بالغ - مضطراً - في كثير من البلدان المتقدمة في مضاعفة الضرائب على الدخل وغيره حتى وجد كثير من اصحاب الرواتب بالمصارف وبيوت المال وفي الشركات ان يتنازلوا عن منصب (مدير عام) الى (مدير) تخفيفاً من قبضة الضريبة التصاعدية الناتجة من وجود مزايا لمركز (مدير عام)... والواقع - أيضا هو ان كفالات العمال و أصحاب الدخل الواطئ في البلدان المتقدمة حيث حرية النقد والاضراب والتنظيمات النقابية بالقوانين الصارمة حتى ان ـــ

العامل في بلد محكوم بالنظام الشيوعي لم يكن من حقه ان يطالب بشيء أو يعترض على شيء لانه محروم جزءاً من كيان الدولة كطابوقة في حائط ويكفي دلالة على ذلك كلام قرأته في صحيفة روسية على ايام الفلاسفوست لأكبر رأس في النظام القضائي السوفيتي يقول: لا وجود للقضاء في بلدنا فاكرهنا الشيوعي هو كل شيء والقاضي تلقى الأوامر من غير وزارة العدل وتلك واحدة من اوساط الاشخاص بالناس وحقوقهم وانانيتهم وكفى مثلاً انه لما اغتيل رئيس وزراء السويد منذ بضع سنين أعتقل كردي تظاهر بانه القاتل في حديث تلفوني... اطلق سراحه بعد أشهر، ويقول انه لم يقض في عمره حياة مترفة كالتي قضاها في الحبس فهو يعيش في قصر ويذهب الى السينما بصحبة موظفي المعتقل.. ويذكرني به الى الحزب على الشبع اي يوم يشاء.. فلما فكوا حزامه عوضوه عشرات الوف الدولارات.. فلما قرأت هذا قلت: هؤلاء المجانين! لم لا يحبسونني سنتين او ثلاثاً لعلي اشتري بالتعويض المقطوع لي دارا في بغداد.. كردي عاش في روسيا سبع سنين فلما ترك روسيا اضطر في القطار الذي يقيده فرض حدود السويد.. فابقوه ليلة واحدة في الحجز فكانت أبهج ليلة وأحلاها في حياته كلها بما فيها السنوات السبع المذكورة حسب قوله المؤيد بالأيمان..

انا نذرك، أو يجب ان ندرك بداهة، ان الناس ليسوا مجموعة عباقرة او ملائكة ليكون تصرفهم في معتاد الحياة وفي أحوال الأزمة والشدة (نقض في الثرات) أشبه بالكمبيوتر في دقة عمله وصوابه فليس لنا ان نؤاخذهم بالخطأ الذي لا مفر منه، بالغلط في الأمور المعقدة وبحاشية من تجاوز الصدق الى اختلاق لا ضرر فيه وبنزوع الى الظهور والتقدم مزدوج في طبيعته وجبلته. اقولها مختصرة فيما يلي: علينا ان نسامح الناس فيما نسامح فيه انفسنا من الهفوات والعثرات والزلات فاذا رأيت أو رأيت احداً يتلصص على انثى حلوة من خلال ثقب المفتاح فلا تشهره ولا أشهره اذا كنت او كنت قد فعلت وفعلت مثله. قال الشاعر العربي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك اذا فعلت عظيم

ولنعلم ان أصعب صعوبة في الاتصاف بالسلوك الحميد هو زرع النفس عما تشتهي اذا كان الشخص قادراً على تحقيق شهيته بلا عقاب.. كل هذا وغيره من طوامير النصح والكلام المأثور و حكمة الحكماء وفلسفة الفلاسفة وتقية الزهاد من مضامين حياتنا المعتادة وهي بلا شك تكون مفيدة اذا وعتها القلوب وتذهب هدراً اذا تم تجاهلها.. ولكن الذي لا يمكن الهوادة فيه أو نسيانه أو الاستخفاف به هو الفارق الهائل بين حكمة تذهب هباءً بسبب الغفلة او البلاهة أو السفه أو ما شاكل ذلك من مبطلات المصالح المادية كانت ام معنوية، وبين متحكم يفرض ذاته ورأيه باسم حماية الآداب والمصالح. فلا يوجد داعٍ واجب الرعاية الا اذا كان مدعوماً بقانون قبله المجتمع أو بأعراف ترقى الى مستوى العقيدة الدينية فلا يجوز مثلاً لأحدنا ان يشتم عارياً في الشوق أو ينصب مائدة شراب في شارع بلد مسلم.. وأنا اذ أتكلم على الحجية في هذه الحيثيات من باب تنويع زوايا النظر الى مختلف الأمور أدرك الأدراك كله أن أفظع كارثة تحيق بالمجتمع هي تحكم الطغاة حسب هواهم والهوى ليس له حد معلوم فهو يتزيد من قهر الناس وشكمهم وافناتهم وهضم حقوقهم على حسب الاقتضاء أو الرغبة. ولقد قرأنا ان ليلة الدخلة للعروس في أزمان ماضية كانت من نصيب رئيس الجماعة ولا أستبعد وجود شيء مماثل في زماننا تحت ستار ملفق او بلا ستار على الاطلاق لا سيما في حالة انتصار جهة على جهة اخرى في حرب بلاد همجية فالنساء الأسيرات جواري مملوكات لمن يفوز بهن ويصبح الرجال المهزومون عبيداً في مرتبة

البضاعة أو البهيمة..

هذه الصور الشوهاء في ١١ مستشفى المجاذيب ، وغيرها من الصور المماثلة وأشد منها قبحا هي في الجملة قريبة من الفهم ما لم يكن الفهم مصاباً بنقص أو خلل، وتحتمل نوعاً من العزاء بسبب ان المجتمع الخليط من الف عرق والف دين والف لغة والف فهم وألف خُلُق والف لسان والف عادة ومُثُل وحكمة يتباعد بعضها عن بعض مديات لا تُطوى، خليقٌ أن يلد من الاهوال والقيم والعوائد والمقدسات والمحرمات ودرجات لا تعد من مستوى الفهم ، خليقٌ حقاً أن يوجد فيه من يأكل الشحم مخلوطاً بفحم الجر أو يقطع أنف عروسه زيادة في تجميلها أو يذبح البعير من ذنبه أو يبسط كفه للهطرطعاً في حيازة الملاك الغازل مع القطرة .. فاذا كانت هذه الامثلة متخيّلة من باب الاضحاك فانه نشوب الفتنة بين الهندوس والمسلمين بسبب ذبح البقرة في عيد الأضحى أو أداة دامية تتجدد كل سنة - اختلاف المذهب بين ارلندا الشمالية وارلندا الجنوبية فعلت وتفعل ما فعلت الى يومك هذا مع ملاحظة الفارق الحضاري بين ارلندا وبين الهند. فحذار العروبة بحرب الحجارة في فلسطين المحتلة آية مقلوبة في حكم المنطق فقد استحال ان يقع شيء مماثل في أي بلد عربي دون ان تسيل دماء وينهار عمار رغم وجود اسباب كثيرة لرمي الحجارة في البلاد العربية من قبل أطفال عرب - هذه الأمثلة واشباهها لا منها اقتتال الاحزاب الكردية في كردستان العراق واشباه اشباهها المغرقة في السفه والسطحية وذهاب العقل تقع بكثرة ولأسباب هي اكثر من الكفاية في مجتمع متخلف لم يزل يدق الطبل ويتلو (يا صوتة يا نحوتة) في ظروف العمران يكفي لحصول الفتنة ان تشطح احدى الفتيات المتشنجة فترفع اعلاما وتشرع سيوفا وسراويل يحق الباطل بها حسبةً لله. وقد نجد تعليلا وتسبيبا لرعونة المهووس بالخوارق وزيادة الطمع عند القادر وبلاهة الدهماء عند المستذل منذ ميلاده ثم نرقى لنقول انه من الممكن ان تكون احدى جهتي حرب صفوس محقة في الدفاع عن نفسها وهكذا الى مئات كثيرة جداً من عامة الناس ولكن - نعم مئة مرة ولكن - بل الف مرة ولكن هذا لا يسامح سارتر في الفخ ببعض صحيفة القتلة الصينيين من باب ماذا ؟ لا أدري وحق شرف الانسانية من اين أتاه الأقدام على هذه الجريمة النكراء ! ان أشرف ما حازه من شرف هو انقلابه الى مسخرة لأنه هبوط اعتباره يذهب بجانب هام من الروعة التي توهمها وهو أدنى درجة في ابتذاله من مشعوذ أو بهلوان لأنه منظره لم يكن مسليا !!

كل الشرائح في المجتمع اذا سلكت الدرب المألوف المطروق من توفير الأمان والضمان والتغيير الى اعلى تكون جهات شر في سياق المصلحة العامة ، وعلى ان تتذكر ما يسمى (طريق الحرير) بين شرق آسيا وغرب أوروبا من قرون بعيدة. من المؤكد ان اناساً استأنسوا بشعب مايسمى (الاستغلال) بالعبور طريق الحرير للامن القائمين بالمبادلات التجارية فيه يتحرون الربح فهم مستغلون بصاهير دماء، والنفعة باقية ومستبقى. لكن الحقيقة هي انه لولا مايسمى (شرى الربح) أو (انشاء مصلحة - لبناء بيت -) لما كان في امكان القادر أن يوفر قوتاً لعياله ولامتنع نشوء المدن وازدهار الحضارة وظل انسان ما قبل التاريخ يسكن الكهوف أو ينام فوق الاشجار في المناطق الحارة فينكون من عرق كاره الاستغلال انساناً شريفاً نظيفاً لا يفكر في اختراع سكين يقلم به أظافره...

الشرائح الواردة في سياق الكلام تشمل الاحزاب والجمعيات وغيرها من صور الاجتماع المعقود لغاية معينة. وأجيز لنفسي في هذا المجال ان اقول عن أحزاب المجتمعات المتخلفة انها نشأت من الفراغ و من باب تقليد الأمم المتحضرة فما من حزب في العراق ، مثلا ، خلقته ضرورة الحال. وعلى ان تتصور كيف أصبح هتلر معبود الجماهير فالناس الذين كانوا يجهلون كتابة اسمهم افتتنوا بالنازية لاسباب ثلاثة أولها الجهل بالمصلحة والمهلكة في معمعان الحرب الثانية. يأتي بعده انبهار المتعلمين !! وانضمام المتعلمين

و خاصة الثقافة فيما يشبه الاجماع بشخص هتلر و انتصارات جيوشه. ثم يأتي بعد كراهية الانجليز مع ان حكمهم كان أقل قسوة من باقي الدول المستعمرة ويكفي للدلالة على هذا أن ملكة بريطانيا عندما زارت الهند بعد استقلالها أُستقبلت بحرارة وحب حقيقيين لم يحظ بهما ولا ببعض منهما قادة الكرملين في زيارتهم للهند بعد زيارة الملكة لها. حتى اذا اشارت المانيا وبرزت في الساحة روسيا السوفيتية انقلب النازيون بالاجماع الى شيوعيين و تابعهم اغلب الشاب الجديد الذي طرق سمعهم نداء الأممية الحلوة. ومن أغرب ما برز في اوائل العشرينات جماعة سمّت نفسها باسم "البولشفيك" في كولمبيا بفضل - مقطع رأس - وكنت يومها صبيا بعمر اربع سنين فلم ادرك وجودهم. وقد تفرقوا (ايدي سبا) كما يقول المثل. فالشيوعية انتشرت بعد الحرب الثانية واكتسحت الميادين كما كان للنازية ذلك الاكتساح فلا ارض لمقتضيات الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ولا حتى السياسي فدنيانا كانت ولا زالت متسمة بالبدائية والحواء الحضاري وتفوقات الاقتصاد البرجوازي بما يتطلبه بل يخلقه من فنون و ثقافات و صناعات ... الخ فما كان للأمة الكردية صراف واحد الى ما قبل بضعة عقود من السنين ولم يكن لها بنك واحد اتأمل كل ولم أجد في كردستان العراق غير بيتين أو ثلاثة يمكن وصفها بالفيلا - مع شيء من المسامحة -.

اقول قولي ضليلا من سجل الحركات و الثورات و التظاهرات التي صدقت في العراق بعد ذهاب الترك ومجيء الانجليز: كم روع زهقت و دماء نهبت أو سُلبت و عمران تهدم و صدور تصرم وأمان صار نادا وشرارا ومرارا، ذهب هدرا و انقلب نقمة "كلما دخلت أمة لعنت اختها" فلم يكن مقدّرا للتشنجات المتوثبة في الشوارع والأزقة ان تأتي بأية نسخة مشوهة لنظام شبه مشلول يقوم بكبس الشوارع وفي البلاطات. فالهيجانات الرعناء الحمقاء لم تكن تملك أية قدرة عقلانية ترشي مزاجا، أمّ مزاج، يمكن للعنف والخواء أن تغدو على ضوئه الى المرعى، واترك استخراج النفط وعد السكك و بناء المطارات وفتح الكليات منتلك لعموم قوم آخرين ينتصبون في الطرف المقابل للتشنجات ويوصفون في العادة بالخونة والمارقين لانهم لا يهتفون ولا يتظاهرون بل يبنون - لقد رأيتم ورأينا ما فعله آية الله الخميني و ما فعله غيره من المحمومين القابضين على الاقدار فيما لسخرية الاقدار فيما تنويه الهند و بالكتمان في براعة بعضهم بعضاً بالرؤوس النووية، والناس يموتون جوعا وعريا و مرضاً في البلدين فلعل الله يهديهم الى استجداء الانجليز قبول العودة الى حكم الهند القديمة بما فيها بنغلاديش وكفى الله المؤمنين شر الخصام: اقول منذ سنين عدة، لو استطعت انشاء دولة كردية لأعلنت مناقصة دولية لادارة الدولة الكردية من قبل شركات من اسكندنافيا فهم يديرون الحكومة على اتم وجه و بثلث الكلفة... وقلت أيضاً من باب الرضا بالواقع انني اذا اقدرت على تشكيل حكومة فوق أقيمها على أعمدة حتى تبتعد من أهل الأرض الشاكين. والله في خلقه شؤون وشجون...

نعم، واسف نعم، ماكسب العراق شروى نقير في ثوراته و ميراته و صناخاته و مظاهراته من اول تشكيل دولته بعد ذهاب الترك وحتى يومك هذا وليس في افق مستقبله القريب بشير بالانفراج. أعلم كعلمك ان كلامي هذا مرفوض جملة و تفصيلا عند قوم يحسبون التأريخ صعودا مطردا وهواً بمقياس هندسي وكيف يقال ان الوثبة [سنة ١٩٤٨] كانت حركة رعناء غير مدروسة قام بها تلامذة لا يفقهون في السياسة و الاجتماع والاقتصاد والخير والشر أي شيء وكان جزء خطير من دافعهم الى التظاهر ضد معاهدة بورتسموث، بالاضافة الى كراهة الانجليز، هو التحلل من قيود الدراسة و عنجهية المدرسين[1] وقد آلت الوثبة الى امتداد التظاهرات حتى اوشك شارع الرشيد على الافلاس

---

١) احد مدرسينا في متوسطة اربيل سنة ١٩٤٥ كان يقيم تزويعات الطلاب فوجه كلامه الى الجميع قائلاً انكم جميعا تستعرضون عدم موت المدرسين. ثم قال لأحدهم: انك تتمنى ان أقع ميتا لعلك ترتاح من دوخة الدرس هذه..

لامتناع البيع والشراء. وقد يقال ان الوثبة كانت من أهم مهدات ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨!!!
هاهنا الطامة الكبرى فالبائعين على قيد الحياة من ضباط الثورة نادوه بل معترفون بأنهم قد أساؤا الى العراق بما فعلوا.

هذه الاشارة الى كون غالبية المثقفين تعتبر التأريخ صعودا مطردا بحاجة الى شرح مقنع يرفع الحجاب عن حقيقتها فأقول ابتداءً ان الاجتماع والتأريخ شيء واحد ولا أظن يختلف على بالك ان الاجتماع الذي تعيشه وتعاينه هو صعود مطرد بشكل هندسي فانت تقفز الأشهر ولا تجد تغيراً ملحوظاً. هو ان الاجتماع هو تأريخ راهن ينبض ولم يصبح ماضيا بل انك للتحبب الماضي الذي عشته تأريخاً كتواريخ الرومان والفرس والهكسوس والسومريين المريلة بغبرة التقادم فقد أصبح في العرف العام شرط القدم من سمات ما يسمى تأريخاً. هذا من جهة:

ومن جهة ثانية، ليس سواد الناس ولا كثرتهم الساحقة صناع التأريخ الصاعد بالطراد وبنسبة هندسية بل ان أبطاله دوّخوا العالم وصعدوا المدن وفتكوا بالملايين لنصيب لهم من بركات التأريخ الا اللعنة والتحقير والتفلة في وجوههم فهؤلاء الملايين من مثل مبتكيز ظلم ما زادوا على ان عقّموا التأريخ وأرجعوه القهقرى وجعلوا العراق خرابا والرياض سرابا وصحابا. ان الذين ينفثون روح الصعود المطرد في هيكل التأريخ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً هم القلة النادرة جداً جداً من المبدعين والمخترعين والمكتشفين الذين سبق ان قدرتهم في أوائل الكتابة هذه بـ ١/١٠٠٠ من مجموع البشر وهو رقم اعتباطي غير مستند الى إحصاء أو تقدير محسوب ولكنه قريب من الحقيقة فانني لم أجد في محيطي حِرَفياً واحداً أحدث تطوراً في أية من الآلات المستعملة خلال سبعين سنة فتكون النسبة المذكورة آنفا للمبدعين أشد تقراً. واذا اضفنا الى ذلك أن أجيالا مضت قبلنا بلا ابداع فقد تبلغ النسبة ١/١٠٠٠٠ بل انني لم أسمع بمبدع في التصنيع الا ما سمعته من أبي وهو يذكر (مصطفى افندي) كصانع لآلة من ابداعاته يربطها بسعف النخل فيتكلم منها الى أية جهة أراد. وكان له مشروع طموح في ادامة شعاع الشمس أربعا وعشرين ساعة عن طريق العدسات العاكسة للضوء حول كرة الارض. فلم تلتفت اليه ولا الى حكمته دولة آل عثمان. كان الابداع محصوراً بالطبقة الكلامية وحسن الانشاء واجادة الشعر (مثل وسالم) من نحو مئتي سنة وقبلهم الملا الجزيري واضرابه فانا ببضعة قرون وبابا الهدى قبلهم وشاعرية على ايام العباسيين. كما اتذكر - يمتد شيطان العراق لم نعثر على شعره. اما الدراسة الدينية وما في حكمها من علوم اللسان، وقد قولبت بما لا يتعارض مع القرآن، فقد نشط وبرع علماء الدين أكثر بما يفوق نشاط الآخرين. وكان احدى صفاتها انها لوحت من طلبة الدين بذرعوه كرد سكان طولا وعرضا على مدى مئات السنين بحثاً عن عالم متبحر في المادة التي يختارها الطالب فكانوا، والحق يقال، أضخم عمود معنوي يقوم عليه الترابط القومي فقد كانوا بمثابة نشرة اخبارية بشرية تنقل احوال مختلف الاصقاع الكردية الى الجهات الأربع. [ورد مثل هذا الكلام في كتابات أخرى نشرتها قبل سنين].

من المستقاع الأسترسال في هذا المنحى الى ما لا نهاية ملحوظة فالتعارض القائم بين العلمانية وبين العقائد الغيبية يحتل التطلي عمقاً ومدى ليملأ مجلدات في الحجاج والمناقضة فلو انك مرّكت السلام بالكلام في أزليّة وحدوث الكون مرتكنا الى المنطق النظري والبراهين من الجانبين كنت حرياً ان تقضي جل عمرك في هذا المجال ولا تصل الى قناعة او اقناع الا اذا كنت معافىً عن احدى الجهتين. ويحصل لك مثل ذلك اذا فاضلت بين الفلسفات العلمية المختلفة، وتستطيع ان تقضي جل عمرك في محاولة الوصول الى اليقين في شيء الحياة. لربما كان ابو العلاء المعري أول مشتغل

لهذه الظاهرة اذ قال في بيت له:

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

خلاصة القول ان الانتهاء من المحاجات الى يقين مبرهن في القضايا الخلافية التي ليس لها مقياس كالملتر والرطل والعمق أمر عصيّ على الأمل ويصادف الباحث في هذه المشاقات افاعين غير كريمة من المهاترات وشبابك التهم لا تليق حتى بهواة غنم. ومن بليغ الدلالة على الاستهانة بالقيم والشيم قول منقول من السلف في شجب التعرّض بالعلماء [علماء الدين] نصه هو: من ثلم في حضرة العلماء فطالما رنى بأمه. فكيف يكون شأنه اذا ضحك أو هلّ مؤخّر رأسه أو تهاون في حبس عطسته!

اننا نلتقي بصور كثيرة من الغرائب في مستشفانا وهي تسمّى المزاج الميال الى ما يسمى «الفرفشة» في لغة عامة المصريين وهي وغيرها من حيثيات الاجتماع البشري ترسم ساحة فسيحة من مراح الصبيان والمراهقين وعشاق المجون والجنون وذات نكهة سلبية بالقياس الى تراشق الاخوان وجنود النضال الوطني الدائر بالحبال والنضال والقذائف الطائف وما لا يجوز اغفاله من تراكم العمالة والخيانة وهتك الأعراض. قال الشاعر العربي:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان!

لكن فتيان المهاترات أحرياء ان يحسبوا فخامة التهم الموجهة اليهم بما فيها من الغرض، أدلة على أصالة نضالهم وخلوه من الضعف والالتواء.

من باب تنوير جوانب لاستغلال اسباب النفرة او الغربة بين الناس مما لا يوجد بين البهائم اذكر بعضا قليلا من كمّ كثير يحفل أفاديد بين الأفراد تزيل الألفة أو تجعلها على شفا من العسر: ١- اختلاف اللغة [بين الشعوب] ٢- اختلاف اللهجة [في شعب واحد] ٣- اختلاف العادات والأعراف. ٤- اختلاف الدين ٥- اختلاف المذاهب في الدين ٦- اختلاف الرأي السياسي ٧- اختلاف المزاج ٨- اختلاف الصدق والكذب ٩- اختلاف الذكاء ١٠- اختلاف الأطعمة ١١- اختلاف الرأي في الترجيح ١٢- اختلاف الشبه في التقبيح ١٣- تفاوت الشهامة من شخص الى شخص ومن ناس الى ناس ١٤- فروق اللياقة والذكاء والثروة والشهرة وصيانة الجاه وجمال الصوت والمهارة في الفنون ... ١٥- الحسد على النعم المشتهاة من مثل حبيبة حلوة أو حصان بالغ الأصالة أو صيانة حب الناس أو ... أو الى نهاية غير منظورة من اسباب النفرة حتى ان لعب الدعبل كثيرا ما يفضي الى خصام مرير...

هذه النماذج والصور من أفانين تصرف الناس تفرض على المفكر والمثقفين عموما، سواء قرأوا أو لم يقرأوا هذه الصفحات أن يسألوا أنفسهم: لماذا لا تفعل البهائم، او الأحياء من غير البشر في كل المسافة بين ذات الخلية الواحدة وبين القرد الشبيه بالانسان ما تفعل مثل هذه البراعة في تنويع العداوة وفي تغليظ الاساءة وفي عبثية إشباع الرغبة وفي الاستمتاع بالبطش وفي تكلّف المخاطر وفي ... وفي ما لا يعد ولا يحصى من تمارينه حتى انه يصاب بأمراض نفسية كالسادية وجنون العظمة وما نيا الرقة والشذوذ الجنسي ورهاب الظلام و... و... فالملحوظ ان تلك شتى ارادته المبهرة في أهوال اصابته بأجدى على النفس أكل وأتم من ضعفه امام رغباته [المشروعة وغير المشروعة]. اعلم ان الاجابة على هذا الاشكال هي من اختصاص الأطباء وعلماء النفس وذوي القابلية الطبيعية لمعرفة أمزجة الناس ولكن في السؤال ساحة واسعة يمكن لمثلي ان يرتاد قمماً منها دون الوقوع في خطأ بليغ فانا لا اكتب وصفة طبية لشفاء المرضى وإنما أقوم في تسمية «تصرف» البشر بالكلمة القاموسية التي تطابق مدلوله سواء ما كان منه مرضاً نفسياً خارجاً عن ارادة المريض أو نزوة تستبد بالمتنزه وكلتا الحالتين دافعتاه في نطاق «مستشفى المجاذيب» وكلتاهما خارجتان عن دنيا البهيمة.

في تعريفنا للمجتمع البشري بالتسمية الملعونة في عنوان هذه الكلمة علامة مميزة تمنع الاختلاط والتداخل بين عالم الانسان وعالم البهيمة [من القرود العليا حتى ذات الخلية الواحدة - يضاف إليها عالم النبات بما فيه من قوة النواكيوي] فلقد اكاد أجد خلة واحدة من ضروب اللاجدوى والتعاظم و الفتك الأرعن والعبث المهلك والكذب والدجل [البهيمة لا تتكلم] و ضروب الأفاعيل التي يمارسها البشر مما لا يزيد بيدره الا نقصانا وفناء، يمكن أن يتعب فيها القط والمعيز وصغار الناس و عصفور الدعاش في البيوت والأشجار بل ان غالب انسان هذه الأحياء لا تتوالد الا في الفصل الملائم للتكاثر. ويلاحظ أن بعض الأحياء المدجنة تخالف طبيعة وسلوك التناسل فتتزاوج في غير موسم الهرش والشبع فتكون معاشرتها للبشر أثرت على سلوكها القديم فلم تعد تحتاط في اختيار الموسم الأنسب.

بعد هذا التمهيد أو قل هذا الاختيار في النماذج الجديرة بالمتحف ..... حان الوقت لأقول ان العامل الأكثر فاعلية في اقامة المجتمع البشري على الصورة التي اوجزناها هو (العقل) المميز للانسان عن جميع الخلق بلا استثناء حيوانا كان أو نباتا أو جمادا، والعقل تاريخ في حد ذاته لم يزل حتى يومنا هذا مشوبا بالغموض في مسار تطوره.. ولعل من المفيد أن أبدي ملحوظة في كيفية تطور الأحياء من ذات الخلية الواحدة الى أرقى انواع النماذج فأسأل سؤالين: الأول هو ان هناك غموضا في بقاء (ذات الخلية الواحدة) منذ مليارات السنين على حين يستلزم التطور أن يتحول كل كائن حي الى طور أرقى. السؤال الثاني هو هل ان خلود الكائن البدائي الحي ناتج عن نشوء أحياء بدائية على مدى الزمن من تسرب طاقة الحياة الى الجسيمات التي اصبحت في حال تتلبس فيها بالحيوية؟ بكل أسف لم التق برأي علمي يشرع هذا الجانب فالموضوع في الصورة التي اراها ماثلة في المصادر المتوفرة غير مفسر فالظاهر ان الاحياء البدائية حدا لما قبل مليارات السنين كانت خليقة كما أن تغادر مرحلة البدائية فليس من المعقول ان تنسل ذات الخلية الواحدة كائنا أتم منها خلقا وتبقى هي حيث كانت. تغادر هذا الاشكال رغم اتصاله بالموضوع لعدم الجدوى من اجترارة.

قلنا ان العقل ميز الانسان عن جميع الخلق. وكان في البدء على قصور شديد وقد مضت أزمانه مديدة حتى استطاع النطق والكتب جسد الشكل المتميز والمتوافق مع متطلبات عقله واتساع آفاقه بالقياس الى عالم البهيمة المحدود حتى ان رضوخ (الأبهام) للتقابل مع الاصابع الأربعة كي تنقاد اليد إلى القيام بما يمليه العقل من فنون التعامل على تيسير الصعب وتحسين القبيح أعقد شرحا من تسبيب الحرب الأولى والثانية ومن استخراج اللوغاريتمات..

كتبت في بعض ما سبق من معالجات أن اولى وأعظم المنجزات لتفتح العقل البشري ادراكه للتفريق بين ما هو أشياء عادية مشتركة بين الاحياء جميعا وبين (العالم العلوي) المنقطع عن التراب والماء والغريزة والنسل من مثل بهاء السماء بشمسها وقمرها ونجومها وشهبها ونيازكها وما يدخل في معناها كالغيوم والامطار والزوابع والصواعق وكلها (في نظر إنسان ما قبل مليون سنة) موجودات منقطعة في منشئها عن التراب والرمل والماء والفيء وجلها مرتبطة بالسماء فهي متميزة عما هو (سفلي) فانبثقت في ذهن الانسان القديم فكرة (القدسية) بشكل غامض عاشت معه و تبلورت شيئا فشيئا حتى ترسخت وصارت لها طقوس ورموز انطلقت الى عقائد متصلة بالغيب على نحو غامض أولا ثم صارت دينا له طرائق واوثان وأصنام تقدم لها القرابين ترضية وتقربا. والقدسية هذه دامت الى يومنا هذا بل ان ناسا ينكرون الأديان والخالق والبعث يعاودون تقديس الزعيم على نحو صوفي يتجاوزون فيه الدروشة فتأخذهم «الجذبة» عند ذكر هتلر أو لينين أو ماو. هناك نوع من الانجذاب يختلف عن تقديس زعماء السياسة كانجذاب العذارى الى عبد الحليم حافظ أو

---

(١) بداية العقل حالة بالاصالة الغريزية متصلة «من حيث النشوء» ومنفصلة على فهم متميز عن الغريزة.

غيره من نجوم الكرة و مصارعة الثيران. هذه الحالات كلها امتدادات لنشوء فكرة التقديس القديم فلا تجد في دنيا البهيمة شيئاً من هذه الظواهر فلولا استعداد البشر للانبهار أمام "المثل الأعلى" لما كلف خاطره بالانتحار عند موت بطل معبود. حالات كثيرة متعددة المواصفات تدفع فلاناً و فلانة الى اهراق نفسه أو الارتماء تحت عجلات القطار أو جرع السم ... الخ وهي كلها على تباعد الأسباب تلتقي شكل غامض عند بذل الروح لهدف صار أغلى من الروح.. لم نجد أحداً يختار للانتحار الاقدام على اغتيال مجرم كبير، واقصد به الذين ينتخبونه جزافاً وليس المناضل الحزبي الذي يجد في اثناء "زعيم" خائن واجباً مقدساً. ها هنا منظر يستوقف العقل: فاره فتاة "أعرفها" احرقت نفسها لمأساة بينها وبين امرها وشقيقتها فهي مقتنعة بكونها مستحقة لشرف قتل النفس ولكنها لا تخطر على بالها حتى في الأحلام أنها جديرة ببطولة الاقدام على قتل دكتاتور الا اذا كانت متورطة بالسياسة.. عندئذ ما كانت تقدم على قتل نفسها.

عامل العقل في الانسان هو من حيث الاساس باعث الغالبية العظمى مما يقع في دنيا الانسان بشيئها و مريئها، قبيحها و جميلها، جورها و عدلها، خفيها و جلاليها.. من خرعبلات الاساطير و عبادة الصنم و البقر الى ملكوت "النسبية" و خلق الذرة و ارتياد الفضاء. ولكن كان عالم البهيمة قليل الحق في الادراك الغريزي المرسوم بحفظ الحياة و ادامة النسل حتى ان تصرف آحادها من اي نوع كانت يكاد يكون نمطياً لا يعتريه فرق ملحوظ الا ما كان من تفاوت في مقدار القوة و الضخامة وشيء قليل جداً من درجة الذكاء. فاره عالم البشر متفاوت في اجتماعياته و في تصرفاته وفي مقدار ذكائه وفي حلمه وجهله و ضلاله و هدايته الى حدّ التناقض و الاختلاف حتى اذا قارنت بين عالم طبيعي وبين ناس يلطخون وجوههم بالروث و الوحل وجدتهما لا يكادان يتفاوتان الى حد ذلك أن آحاد الانسان بسبب من عامل "العقل" يمكن أن يختلفوا بداوية مستقيمة من مئة وثمانين درجة على حين لا يبلغ التفاوت بين نمط وقط في درجات التمايز عن عشرين أو ثلاثين درجة مع ملاحظة ان هذا التفاوت لا يشكل خطورة بسبب ان عامل الغريزة لا يخلق في آحاد البهيمة "اختراعاً" من اي نوع كان ليتسع الفجوة بين (بهيمة مخترعة) و اخرى (غير مخترعة) في التصرف المبني على حين وجدنا بشراً يطير في اوروبا و بشراً يرق الطبل (قديما) ويطلق الرصاص (حديثا) في فك محنة القمر و الشمس عند الخسوف و الكسوف.

وحبذا قدرت اقصى تباين بين انسان و انسان بمقدار ١٨٠ درجة وذلك يعني التعارض الممكن بين شيئين و هو يعني مقدار الفرق بين الضوء و الظلام الكامل. لكن التقدم العلمي و الحضاري الذي أصبح يحدث بسرعة هندسية سيبلغ مديات في الاستكناه يتيح للذلات السرية ان تدخل في نواة الذرات حتى انا تم تجاوز سرعة الضوء يكون من الممكن أن يبلغ الفرق بين المتعلم والأمي ألف درجة وليس ١٨٠ درجة: عندئذ ينعدم التواصل و التفاهم بينهما كما ينعدم بين شخص أعمى أخرس و شخص ذي سمع و بصر، بل الفرق اعمق من هذا بكثير ولكن لا أجد داعياً للاطالة فيه فنحن لم نزل في مستوى من (التخمر) بعالمنا الثالث [بعد المئة] يقول فيه أحد اولئك النخبة ان اقتتال حزب الاتحاد الوطني و الحزب الديمقراطي الكردي سبيل الى تشكيل دولة كردية وذلك من قبيل حرب فرانكو مع اعدائه في اسبانيا قبل الحرب العالمية ١ ادت الى تشكيل دولة ... يقول هذا وهو يتناسى ان اسبانيا دولة قديمة راسخة و ان الكرد لا تملك ظلاً من حكم كما تعني. صاحب الفتوى كردي مستريح يعيش في لندن منعماً و يترك فرامينه بتخوين فلان و فلان ممن لهم شيء من الصيت ليسوا من بطانته وهو نفسه متهم بالعمالة لبريطانيا و نشأ بزاد البريطانيين في اوائل العشرينات اذ كانت أمه خادمة في بيوت الانجليز على

ايام حكومة الشيخ محمود.. وانظر الى حال الافغان وما فعلته ايران والعراق خلال حرب ٧-٨ سنين ثم أدر وجهك الى افريقيا وامريكا الجنوبية ترى العجب العجاب الذي يفوق غرابة (دار المجانين)..

حكاية الانسان من الغنم الى يابانها عبارة عن حركة عقله في الوسط الذي هو يعيش فيه: في الغابة والجبل والصحراء منذ القديم القديم ثم في القرية وضمن العشيرة وبوجود نظام يكفل ديمومة التعايش وقد نمت القرى الى مدن ونشأت البرجوازية على سهل وعبر القرون لتصبح انموذج المجتمع الراقي بما أنشأت من نظم وقوانين وقيم تكفل توازناً بين الطمع وبين ضمان المعيشة بالاضافة الى تفجير الملكات والعقول عند أصحاب القابليات من علمية وفكرية وفنية وأدبية [قلنا سابقاً ان المبدعين لا يتجاوزون ١/١٠٠٠٠ من مجموع السكان]. ومن غرائب العقل انه في الغالب الأغلب يميل الى تصديق ما لا يصدقه العقل السوي، لذلك ترى كيف أن التراث الأسطوري ينتقل بلا تعب ولا مكافأة الى الأجيال جيلاً بعد جيل على حين لا ينتقل بل لا يعيش علم وفن وفكر وأدب الا ببذل الجهد الجهيد من قبل ناس تفرغوا له وهي جو ساعد على تحريك الوعي وقد يسّرته البرجوازية التي يعتبر الثوري من يوم مولدها، هذه احدى حقائق تسمية المجتمع البشري بمستنقع مجاذيب.. هذه البرجوازية اهتدت الى الرياضيات وعلم الفلك والمنطق والفلسفة والكتابة بمجموعة كلية من البرديات التي تهتدي الى كتابة اسمها ولم تخلق من العاب التسلية الا ما كان من أدناها مستوى من مثل (الكعاب) والقفزة الثلاثية والمقلاع اما التطريح والمصارعة وكل الألعاب المرتبطة بالتنظيم والتدريب كالمصارعة والمبارزة بالسيف، كذلك النحت والرسم وفنون الزينة، هي نتاج عقول متفتحة.. برجوازية طعونة!! يقول شطر بيت كردي ما معناه في العربية: يا فتى العزيز انك والله لمحتوى! فالبرجوازية في مراحل التطور الاجتماعي (التاريخي) هي في مقام تخلّق الجنين في الرحم لا يمكن حذفه والألم ينطلق وليد.. لولا البرجوازية لبقي الحاصود والحارث أسير المنجل والمحراث الى يوم يبعثون مع العلم بأنه صانعي الآلتين البدائيتين - كليتيهما - من صنع اهل المدينة. لولا البرجوازية لما أمكن نصب طاحونة الريح!

بكل أسف، اقولها مرة ثانية بكل أسف، ان يد الفلاح والعامل بسبب استعمالها في اكثر الأعمال بدائية وصعوبة، تفقد المرونة المطلوبة في الوشي وصنع الآلات الدقيقة حتى انها لا تستطيع تعلم الكتابة لسبب نفسه. وقد يعجبك أن تعلم ما أصاب الفلاح من ذعر يوم بدأت الحكومة في الثلاثينات وما بعدها تفتح المدارس في القرى للأطفال بعد المألوفة لديه انشغال الطفل بالتعلم يسرق الطفل من أبيه فيحتار في رعاية الحقوق والحقل وقد ذهب طفله الى المدرسة. لكن النتيجة كانت توظيف هؤلاء الأطفال المتعلمين برواتب ضئيلة في مصالح الآباء فانثنوا الى الترحيب بالمدارس.. وليكن مفهوماً لديك أن شيوع الدراسة الرسمية في البدو والحضر خلال الثلاثينات والأربعينات كان ذا أثر فعال في انتشار الأفكار الغازية ثم الشيوعية بعد انهيار هتلر. ناهيك عما كان للراديو من دور خارق في الاثارة: ان يونس البحري قام بمثل دور الأنبياء والمبشرين في تهييج الشرق الأوسط ضد حكومات الغرب.. خزعبلات عجيبة غريبة سادت عقول الناس في الشرق الأوسط [وفي غيره من اكناف الدنيا] فالمدينون المطيعة من عتاق ظهر واذاعات يونس البحري انقلبوا في طرفة عين الى أمميين بعد سقوط المانيا وهم في الحالتين يمثلون دور قطعان غنم لا يكاد يفترقون عن حقائق السياسة شيئاً على الأطلاق فقد كفاهم في فراغهم الفكري والعقلي أن يفتح المجال لأطلاق الهتافات وتنظيم المسيرات. ثم آلت الحالات في كردستان العراق بنظر الأمميين: ان العائق الأكبر امامهم هو وجود حزب كردي قومي برجوازي لعين مأجور لاعداء الطبقة العاملة هو الحزب الديمقراطي الكردستاني. هذا الحزب يحمل غالب أفكار الأممية ويقدس ماركس وماو ولينين وستالين وفهد لا سيما أن قادة الحزب أمميون أصلاء ومقدسو الكومنترن وثورة الصين وكوبا وكل بلد قامت فيه حكومة شيوعية ولم يزل الغلب

القادة الباقين من الحزب المذكور ماركسيين أمميين رغم انهيار السوفيت و فضح ستالين و قلب هيكل لينين في بتروغراد.

لا بأس من ملاحظة عابرة لوجود علاقة بين الفهم الواعي و الميل الاشتراكي وضد الشيوعية فتتراجع كثير من الشيوعيين عن فكرة الثورة الطبقية و آمنوا بطوباوية الأفكار الثورية في قلع جذور الملكية توصلا الى مجتمع لا طبقي على حين بقيت كثرة ملحوظة على غرامها القديم بالطبقة و المنجل فقد كان للتعايش مع هاذين الرمزين المقدسين نوع عطف و انعطاف ما يتولد عادة مع طول المعاشرة. لقد تخلت الاحزاب الشيوعية الاوروبية عن فكرة الثورة الطبقية و اختارت الديمقراطية طريقاً لسلوكها السياسي، لكن الماضي السياسي في عالم الحزب، عالمنا نحن يفقد اساسه بنصف وجوده إذا تنكر لماضيه السياسي ولا يجد عنه بديلاً. وتخف الغرابة في ذلك اذا رأينا بثراء بعيد الطرطم و يتبرك بلثم حذاء المشهور ويلطخ وجهه بالروث تعبداً و تبتلاً. وما عبادة ستالين الا نموذجاً من هذا التمسحر الممتزج بالترويع.

والعقل اذا ترك لشأنه بلا هادٍ أو معلم أو ذي تجربة، يضيع في تراث التخلف كما يضيع النبات المفيد في مزرعة مفتوحة لكل نبات طفيلي يتكاثر بسرعة فالعشب والعوسج وصنوف الدغل والحشيل تنمو وتنتشر وتنسج شبكة متينة تقضي على النبات المفيد فلابد من مساعدة المفيد كي ينجو من عدوانه المضر. والعقل في قبضة التخلف أشد تضرراً من صالح النبات في نسيج النبات الطفيلي فانه بافتراض أن مجتمعاً للاسكيمو أو الهوتنتوت [ما قبل مئات السنين] أو قبائل غابات الدامازون نجا من وجود مشعوذين يفبركون الضلال والظلام فان مجرد انقطاع تلك المجتمعات عن مواطن الحضارة و الثقافة يكفي في حد ذاته لخمود الهمة الى التقدم فلابد من حافز ومثال مضئ يشرف اولئك المنقطعين عن الحضارة أسلوب المحاكاة. ما جلاء عثر على بشر في نهاية أمريكا الجنوبية كانوا اقرب الى الطفل في ادراكه فلا اظن ان اولئك الناس كانوا قادرين على الخروج من قوقعهم خلال الوف السنين اذا لم يجاورهم بشر متطور في معقولاته. أظن ان قاموس مفردات الـ Pigmy[1] في اواسط غابات افريقيا يوم تم كشفها كانه عبارة عن أقل من مئة كلمة وجلها من مقطع واحد. لفظ البيجمي يعني (القزم) في القواميس الانجليزية ومنها قاموس (المورد). فاذا كان الانقطاع عن دنيا الحضارة مؤدياً الى قصر القامة فلم لا يكون سبباً في قصور الفهم. والسؤال مفتوح على وجه آخر فانه ناشأ آخرين بدائيين في بعض الكنف افريقيا كانوا طوال القامة.

يلاحظ ان كثافة العلاقات الانسانية و روافد الأخذ والعطاء على مدى الشهور والسنين في مجتمعات المدن بحد ذاتها تخلق حافزاً على النظر الى وجوه النشاط المفيد في استحداث المرافق المؤدية الى تسهيل الصعب وتحسين الآلات و اختراع الحيل لمضاعفة الناتج على حين لم يتوصل الفلاح الى شئ من ذلك خلال الوف السنين حتى ان المحراث يأتيه من المدينة وان النورج في فرس القصب بدلاً من استعمال الدواب جاء إليه هدية من صانع في الحادة.. القوس و النشاب و السيف، حتى الكاكين، و المنجنيق وطنبور (الزورخانة) كلها بنت المدينة، كذلك الحكومة و القانون و الجباية.. الكتابة و العلم والفن وكل ما يزدان به البشر هو من اختراع المدن [أي امبراطورية اللعينة التي يريد الثوري الطبقي خنقها يوم مولدها]. والكلام هنا جارٍ من مراحل التأريخ المنصرمة حتى اذا اشتد ساعد العلم بفضل عبقرية العباقرة المترشحة من ادمغة مشربة بالكبير (الحضارة) تم النزول على سطح القمر وقد صار الطيران المألوف شيئاً لا يفيد في استكناه العوالم، وبالغرابة ما حدث من صدمة ترتخت لها أدمغة ملتاثة من طول عبادات الكوتة والمحوقة في المدينة بالدرجة الاولى ثم في القرية بالدرجة العاشرة. ذلك أن دماغ أهل المدينة مشحون بفلكيات بطليموس وافلاك السبعة

---

(١) موضوع البيجمي والهوتنتوت والاسكيمو و ناس آخرين منتشرين في استراليا وجزر المحيطات المنقطعة (قديماً) عن الحضارة لا يعالج في هذه الكتابة ولا يمكن توضيحه والانتهاء منه كموضوع فرعي، ان مجرد القطع في احتمال التخلف المديد لعشرات الوف السنين لينقلب الى غريزة أو عدها يحتاج الى التفرغ له مدى الحياة.

بما فيها الشمس والقمر

ما سمعة افلاك للكواكب السيارة / وفلك الثوابت وفلك الافلاك الذى يقوم بادارة الافلاك كلها.
واظن ان فلكيى الاسلام سموا كلاً من العرش والكرسى فلكاً ليطابق افلاك القدامى فى التعداد. والحق
ان الفلاح الجاهل كان أخف فى رد فعله لانه لا يجد وقوداً لتخيله من الأفلاك والشهب والنيازك
كما يشتعل فى الماضى بحماس جنونى وقد شهدنا فى آخر خوف للقرن حوالى سنة جنون مخاريق المدينة فى ضرب
الدف واطلاق الأعيرة النارية و بالأدعية و قدسية الأضرحة والتوسل بالملائكة لفك حبسة القمر، و
لم يتحرك ذهن اولئك المهاويس خلال الوف السنين ليسائل أنفسهم: لماذا يكون خسوف القمر وصوبر
كامل على حين يكون كسوف الشمس والقمر فى حالة المحاق !!

ما أصعب محنة العقل ! الوف السنين مضت على معرفة الخسوف والكسوف ومايزال ملايين
انصاف البشر فى ظلمات الضلال يتلقونه شياطين وعفاريت تكيد للشمس والقمر. هاهنا واجب ينبغى اداؤه
وصوأم الروزنامات تعلن منذ الوف السنين بموعد الخسوف والكسوف فيلذ لى أن اقول ان الشياطين
والعفاريت تنشط للكيد هنا بالرجوع الى تلك الروزنامات لمعرفة ميعاد الكسوفين.. ويكون ضاحكة
الاضاحيك أن تتآمر الروزنامات بتعيين موعد الكسوفين فى غير أوانهما والعياذ بالله..!!

قد يعترض علىّ قارئ [بل كثيرون منهم] بأن العقل وحده لا يكفى لتفسير الاجتماع البشرى و التقدم
العلمى والتكنيكى وازدهار الفن والأدب و انواع الأفاضيل الصالحة والطالحة وقيام الحروب.. الخ
فأقول فى كلام طويل: إن افتقاد (الاحياء من غير البشر) لعامل العقل حكم عليها بتكرار نفسه وتعرفه
قرناً بعد قرن دون ان يعترى تصرفه أى تغير الى الأحسن نعلم حتى من أنواع البهيمة يتصرف بما يسمى
(غريزة) وهى لا تتغير ولا تغير شيئاً خلال دهور تحسب بمئات الوف السنين [ليس هذا الرقم ملزماً
فقد يكون ممكناً حصول تغير ما خلالها دون الاحساس به لقراءتها] ان ما يتعلمه بعض انواع البهيمة من
حيل و رياضات وتصرفات لا يأتى بابتداع من ذاتها بل يعلمها بشر ماهر. ودلك على ما أقول دليل
اقوى وهو أن زوال العقل من شخص لأى سبب كان يهبط به الى أدنى مرتبة البهائم المستقرة لدى
اهطال البشر لتبرير غرائزه اعتماداً على العقل وما يوفره من أمان يؤدى الى ضعف فاعلية الغريزة التدميرية
فى السلوك الأمثل فاذا حدث أن فقد الجنس البشرى عقله يكون عرضة للانقراض لسببين حاسمين:
أولهما ان جسمه يبلد فزوجيه من صولة الضوارى. ثانيهما أن غريزته المرتبطة بحماية الذات
أقل فاعلية بدرجات من غرائز البهيمة. ولك ان تتصور بشراً لا عقل له، وغريزته شبه محكوكة
فكيف يتصرف فى الكهوف أثناء الشتاء. ولا ضرر من الأشارة الى ان جسم البشر اعتراه تعديل فى جملة
قواه خلال تطوره عبر ملايين السنين، أدخل عشرات الوف السنين، وهزلت اعضاءه، كما لعبت الأجهزة
كانت قديما تقوم بواجبها ولا اشك فى ان أجسام البهيمة فقدت كثيراً من وظائفها القديمة.. عينه
للتمييز فى الظلام ما تتبينه القطط و الضوارى و الجرذان.. الخ. سمعه أثقب.. حركاته وقواه
العضلية واعصابه للدفاع عند احتكاك أغلب الاحياء الأخرى والسبب فى ذلك كله ان عقله قد
أصبح مُغْنِياً عن زيادة الاحساس والرصانة والقوة: لقد صار يطوى مسافة سفر شهر بالخيل والبغل
خلال ساعات قليلة بالطائرة او بالسيارة السريعة وعلى الطرق المعبدة.. صار يحرث بالمكينة خلال ساعة
واحدة ما يعجز عنه « فدانه » البقر والبغل خلال ثلاثة أيام مع ملاحظة ان سائق المكينة لا يتعب عشر معشار
الحارث.. ولك فى هذا الباب أمثلة تملأ نهارك وليلك و فصول الاربعة خلال اثنى عشر شهراً.

كان حدوث « الحياة » معجزة كبرى وقد يصح القول بان الأحياء المجهرية الدنيا كانت تماثل « الحيوية »
على نحو من صور « الارادة » يمكن اعتبار « النمو » فى تلك المرحلة عملية شبه آلية خالية من الدراية إلا ما طاب
من مقتضى طبيعة « طاقة الحياة » تقبل غذاء يتسرب طواعية الى ذلك الجسيم الحى. والذى أراه بينى وبين نفسى ان

احد نتاجات الحياة ولكن الحياة نفسها نتاج المادة الميتة فاين مقام المادة من مقام الحياة وما خطورة الاحياء كلها لمعجزة من معجزات الخلق الى جانب الانسان ؟ إنّ بغام الطفل أفصح في الدلالة على خطورته من كل الرعود والزلازل والتفاء والرغاء والزفرة والشهب والنيازك. ان الشمس بجلالها وعظمتها تشعرها الافلاك والسماوات البعيدة وهي لا تدرك ذاتها ولا ذوات الدنيا من حولها. انك ترى ان الكون من حيث الدلالة على الحياة والحياة لها ثلاث درجات. (١) الكون الجامد (٢) عالم الاحياء [بما فيه النبات] (٣) عالم البشر.

لسنا ندري [أو انا لا ادري على وجه اليقين] ما اذا كان في الكون الأوسع حياة كحياة الارض وبهيمة كبهيمة الأرض وانسان كانسان الارض أو فيه ما هو أكمل وجودا من بهيمة الأرض وانسان الارض وإن يكن عدم وجود أية علامة دالة على وجود عالم حي وعاقل في ما وراء الارض ينقص من احتمالات حياة عاقلة في الكون الأوسع فالانسان بعث رسالاته الى أعماق الأفلاك فلم يتلق اشارة واحدة تدل على حس وادراك [على قدر معلوماتي في هذا الباب] وإنه يكن يرد في اخبار متفرقة لم اعول منها على يقين بنزول احياء عاقلة ذات حضارة تفوق حضارة البشر. والواقع هو اني أرجح بوجود حضارات في الكون اعمق جذرا من حضارة الأرض شريطة الا تكون عدوانية وان كنت لا استطيع الحكم على تصرفهم فالبشر نفسه يبعد بعضه عن بعض في الاخلاقيات وموازين العدالة والشهامة - الخ من ناس الى ناس حتى لتكاد مغرماتها المحسوبة فضائل عند قوم تعتبر عند قوم آخرين رذائل بل مستوجبة للقتل.

درنا مع العقل في دروب متعددة واحوال متباينة واعتبرناه في كل حال هو الميز الاعظم للبشر رغم ما قلناه في بعض ما سلف من هذه الكتابة ان الغالبية العظمى من غمار الناس معطلة التفكير غائبة الروية غير مؤهلة لتحكيمها في الصالح والطالح سريعة الانخداع مع قدرة عجيبة على التمسك بالخرافات المضحكة. وما يجب التنبيه اليه في هذا المجال ان الانسان وهو العامل الأوحد في التطور التاريخي لا يفقد دوره الى المرتبة الثانية في تقابله مع أية حيّة أو مادة أو كيفية أو مناخ. ولك أن تجرب القرد والذئب والجمل والدولفين وأي كائن على شيء قليل أو كثير من الفطنة [الذكاء الغريزي] في تعامله مع الاحياء والاشياء فستجد أن حيوانيته أو خصيصته تبقى كما هي فليجرب القرد نفطاً يسيل من باطن الأرض أو ذهباً يلمع في التراب أو صديقة غناء فسيبقى قرداً عاجزاً عن الابتكار. فبافتراض أن صدفة سعيدة هيأت شرارة من حجر القدح فاشتعل بها النفط في حضور القرد فماذا يكون تصرفه غير أن يتجه بجلده من النار. وأيّ اغراء يمكن ان يحرك طمعه اذا وجد نفسه صحيحاً ان تفوق الانسان لتفوقه من الحيوانات العليا على القيام بأمور من خاصة الانسان فحيق أن يحرك استغرابنا ولكن مدى (الذكاء) في هذه الأحوال وما شاكلها أقصر من أن يحدث تغييراً في طرز معاشها. أسمع ان اناثاً بعض انواع القرود تقبل أو ترفض بعلها وهو شيء متقدم في حياة تلك البهائم ولكنه غير ولود ولا يحدث تغييراً في "اجتماعياته" ذا صح التعبير. ان المتمسكين بالتفسير المادي في تعليل التاريخ والاجتماع البشري بعيدون جداً عن حقيقة الحال فانه أقصى ما في كلامهم من اقناع هو أن الانسان لا يستطيع أن يخترع الطيارة بلا حديد وبلا... وبلا... ولكن الموضوع ليس القول بان الانسان خالق لمفردات صنع الطيارة ومفردات الاشياء المركبة ولمذهب المعادن وغور الغاب فالدنيا كلها بعيدها وقريبها عارية عن خالقية قدرة الانسان فالدنيا موجودة والبشر موجود والبهائم موجودة فما بال البشر وحده يحدث فيها تغييراً ويخترع منها اشياء ويغير حاله "تاريخه - اجتماعه" طوراً بعد طور ويركب كومبيوتراً أدق من الانسان نفسه في استكناه المغيبات. آلة فوق القمر تحدث الأرض عن اوضاع الأرض والقمر أفضل صنعت الآلة نفسها وطارت بقدرتها مخترقة جاذبية الأرض؟ ما بال التغلب لا ينوب عن البشر في الاختراع فالعلم الاختراعي مرتبطاً بالمادة وقد تكفل الفلاسفة الماديون بالغاء دور العقل في

التطور اللاحق لنشوء الحياة من خلية واحدة الى مستوى البشر [تعتبر الخطأ الذي انبثق من الخلية الواحدة حتى نوعي الانسان ضيقاً واحداً من ألوف ألوف ألوف الخيوط التي واصلت رحلة التطور الى مديات متفاوتة غير قابلة للاحصاء] اقول ان هذا التطور اللاحق للملايين الانواع الحية أمثل بالاعجاز من مجرد شرب طاقة الحياة الى مادة رخوية قد تصبح لتصبح حية. هذه المعجزة الكبيرة اذا قيست الى تخلق الجنين في الرحم وقد صاحبها من مليارات السنين وهو يولد ويولد قرناً بعد قرن فيختزن شكل كامل ما يفيد بدوام حياته مستقبلاً ويزود معه جسم الانثى بجهاز معجز يعارفيه العقل يستصفي من الدم غذاءً (أبيض) هو الحليب ويمكن الوليد ثم يفتح فاه لحظة خروجه من الرحم ليمتص حلمة الثدي واقول ان معجزة نشوء الحياة تبدو أقل تألقا بما حاصل من معجزة الولادة ومعجزة الحليب ومعجزة البصر ومعجزة السمع و معجزة التناسل للذكور الى المواليد الأنثى على نحو يضبط دوام النسل أشبه بمعجزة فلا يجب ضابط معين و يأتي تناسب المواليد الذكور الى المواليد الأنثى على نحو يضبط دوام النسل أشبه بمعجزة فلا يجب ضابط معين مثل ميل الميزان يفرض نسبة صالحة للديمومة وإنما تأتي عشوائية صلاح النسبة بين الذكور والأنثى حالة محيّرة يتيه فيها اللب ... وانظر بدقة الى نقشة الجلود والريش للحيوانات اللبونة والبيوضة واقتصر على نموذجي حمار الوحش والطاووس يهولك هذا النظام العجيب في خطوط جلد الاول وانجاز الجمال في ريش الثاني - بل إن الحصيلة النهائية لمهرجانات النظام والجمال في عالم الحيوان والنبات [وفي دقائق طبائع العناصر والمركبات هنا على الأرض وفي البعد السحيق وظاهرة الثقوب السوداء ...] خليقة أن تنبه ذهنك الى ظاهرة تملأ العين ولكن لا تترك الا عدداً محدوداً من مثقفي البشر فأنت رأيت بعينك كيف أن الغازية الألمانية و السوفيتية الروسية المحوطتين بأكبر قوة عسكرية على مدى التاريخ وتغذيهما خدمة عبارة الأدمغة في الدولتين انهارتا - لاسيما المثال الروسي الذي ضج منتصرا في الحرب على حين يكون ضخوم الفيل وعرف الديك و سقار العلق والحيوانات المجهرية بألف عافية للبقاء بلا ضرر أو انحراف وليس لها علوم مثل لينين وقائد مثل روسيل ولا كانت لها مدارس فلسفية تبرهن على خلود النظامين. وتظل رحلة الاحياء الى الأحسن و الأجمل والأكمل شريطة الا يختل سيره بتدخل فاحش من البشر فأنت تعلم ان زيادة الاحتراق نتيجة الثورة الصناعية ادت الى انحراف طبقة الأوزون (... بلاء من ربكم عظيم).

خطوة الألف ميل في سفر الاحياء نحو الارتقاء جاءت بطفرة الانسان من الادراك الغريزي الى الادراك العقلي. ولو كان لنا اطلاع على باكورة هذا الاحساس (الواعي) و دبيبه المتواني الذي لا يكاد يحس صاحبه بملاحظة لامرض الخواطر أن هذا (الضيف) الكمول ميّت (بطبيعة الاشياء) التي أوجدته الى التوك المتسارع بنسبة هندسية فكان مقدرا له أن يأتي زمن يقطع في عشرين مسافة زمنية تزيد على مئة الف سنة و انه يقلب الموازين والموضعات المألوفة في عالم العلماء والحكماء فالعلو والسفل غير موجودين في الكون وانما ثقل يختفي [انعدام الوزن] و أن ذرة واحدة تدخل في تقنين ذرة واحد وانا نرى الاشياء بشكل مقلوب دون احساسنا بذلك ويقوم الدماغ بتعديله والا لما أمكن دخول صورة الدنيا الفسيحة في بؤبؤ العين وجاءت المغايرات على اساس هذه الحقيقة .. لكن الطاقة الكبرى هي ان حقيقة الوجود المادي لها مواصفات وأبعاد في العمق لا يمكن التكهن بها الا اذا امكن الدخول في (الذرة) ولتحقيق هذا الطلب يجب زيادة سرعة مكونات الذرة بمرارها في (المجلدات) .. وكان لأنريكا معجّل بطول ثلاثة كيلومترات فزادت كتلة الذرة ٥٠ مرة [على ما أذكر]. لكن الدخول في الذرة يتطلب معجّلا بطول (المجرة)[1] اظن ان طولها يحدد بمئة الف سنة ضوئية، مع الاعتذار عما اكتنف مخطوطتي من العدد.]

وهكذا نلتقي بالبشر كعقبة في الخلق لانطلاقها ولها قصة وانه أغرب من نشوء الحياة نفسها: صحيح ان البشر نفسه

(1) اقول بتواضع شديد ان مجاوزة سرعة الضوء ستفتح الأبواب بوجه العلماء حتى ان الرجوع الى الماضي يصبح أمراً ممكنا ..

التطور التاريخي. ومن المفيد هنا القول بأن البشر استطاع التدخل في طبيعة بعض العناصر بزيادة ألكترونا تها وسوف يقوم في المستقبل [اذا لم ينتحر بالذرية والنووية -] بالتدخل على نحو لا يمكن التكهن به ويظل الماديون يردون السبب الى المادة نفسها مادامو يعزون اللوغاريتمات وعلم الفلك والمنطق و الفلسفة والفن والأدب وعذوبة الصوت والجرس التكعيب الى "المادية" ودون "الانسانية" فقد وجدنا ان نسبة "المادية" الى إقامة حائط أو صنع سلم أو ضيافة قميص أشياء متبذلة في المادية لضخامة حصة المادة فيها فأنهم يحسبون الرؤيا الصادقة والتخاطر والكابوس وعفرة أو بيك وحياكة الكذوبة وأمنيات النوم واليقظة ... كلها مادية ! فيا حبذا لو انقلبوا على أنفسهم واعتبروا أهرام مصر وسور الصين تلفيقات خيال أو زعموا أنها نبتت نفسها فأنهم لم يبتعدوا عن الحق في خيالية الأهرام وسور الصين عن زعمهم بمادية الطلاق والنكاح والأيمان بالحق والباطل ومقولة (فستتبتكلنفتوصا) قال الشاعر الصوفي :

كل ما في الكون وهم و خيال
أو عكوس في مرايا أو ظلال

وهو إلى حد [يتسع ويضيق حسب ميل السامع الى الغيب أو ضد الغيب] فهو منطقي مع نفسه . اما المادي - لا سيما مادية ماركس المبنية اساساً على هدف سياسي في ايصال الطبقة العاملة الى الحكم، فهو بأنكاره دور الانسان أولاً وأخيراً وعاشراً في بناء التاريخ يوقع نفسه في إشكال لا خلاص منه : فهو اذا قدم المادة على البشر في التطور لا يبقى للعامل دور على الاطلاق لأنه يكون آلة صرفة لجهله بكل ما هو معرفة ضرورية للتطور، واذا قدم البشر على المادة يبقى العامل حيث كان من فقدانه الفاعلية في تقديم المادة على البشر لأنه على عهد ماركس ندر من كان من العمال مثقفاً. اما الفلاح فلا داعي لذكره . هذا هو واقع القول بالتفسير المادي مقطوعاً عن الانسان . ولا بد هنا من جملة معترضة يستدعيها الظرف دفعاً للالتباس، ذلك ان [البشر] الذين يدفعونه عجلة التاريخ [او المجتمع] ليسوا كل الناس ولا عامتهم ولا عشر معشارهم ولا واحداً من ألف او ستة آلاف [سبق ذكرهما فيما مضى ولكن القارئ يسأل] بل هم المبدعون ذوو الحس المرهف والرماح العبقري والنفس المشربة بروح التجديد والاختراع وقد تعجب اذا أقول ان شاعراً من مرتبة نالي أو الشيخ رضا الطالباني أو محوي اذا بقي وبقوا قروناً ينظمون آيات في الشعر وفي بليغ الكلام لا يزمزمونه صداداً واحداً ولا ضياطاً واحداً ولا مكاريّاً واحداً ولا ثعلباً مدرّباً عن مراضعهم من ممارسة عملهم الموروث من الف سنة الا اذا هام بهم مبدع يعلمهم كيف يبتدئون طاحونة الرحى والفاعور انا نحترم اولئك العباقرة في النظم ونباهي بهم بل اني لولا سهام النقد لعبدت ابداعاتهم . لكنك أن الدكتور حسن اجاف روى لي عن سائحة سخت في جامعة طهران، وكان منحنيا اليها، فأنشد لواحد من جهابذة الفرس في الادب الفارسي أبياتاً لنالي، أقدّم بيتها الأول فيما يلي بنصه الفارسي :

ابروانم تو طبيبان دل أفگارانند
هردو پيوسته اذان بر سر بيمارانند

فكان من اعجاب ذلك الاستاذ أن قال : إن شاعركم هذا أدرى بمسالك الفارسية من اي فارسي آخر . واذكر روائع البيتوشي نظماً ونثراً ولغزاً ومعمى في العربية فاسمع البيتين الآتيين :

الى أحن الى العراق ولم أكن
لا من رصافته ولا من كرخه
لكن بغداد من لي قربه
أشهى الى من الشباب وشرخه

---

(١) حروف مركبة عشوائية لا معنى لها أطلقت من باب التفكه، وكانت كثيرة التردد على الالسن من نحو ٣٠ - ٤٠ سنة في مجالس طلاب الدين في المعاهد.

ولد بيلام الكردا اذا اعتقد صناعة والكتب نظماً ونثراً فانت اذا انتقلت الى ما قبل اثنى عشر او ثلاثة عشر قرناً على أيام الأمويين والعباسيين وجدت الناس (الا فاضل) ينعتون الصناعات والعلوم التطبيقية بالمعارف المبتذلة حتى اذا ثارت حرب وصنع الصناع آلاتها وقع الجنى حرابه وبذل روحه وجدت في اختام آيات الحمد شاعر يرفع الأمير او الخليفة الى مقام قريب من عرش الله فقال أحدهم في مدح سيف الدولة [كما اعتقد]

أرهبت اهل الكفر حتى انه
لتخافك النطف التي لم تخلق

ان واقع الأمر ان غالبية مشاعل النور في العهود القديمة كانت عبارة عن كلمات في مختلف المجالات حتى الفرقت العقيدة وارتكام الفروض تبلغ مجموعها تيفاً وسبعين فرقة ليس فيها كلام واحد عن استخراج النفط او تصنع العسل او جبر الكسر او صب الماء او تحسين النسل آدمياً وحيوانياً]. يقول ابن خلدون ان أقل علوم السلف بلغة قاله سيدنا عمر أكثر نحو علوم الفرس..

لك أن تتصور أمة بسعة أمة الأسلام تنشغل بالدين على سبعين مذهباً يبلغ الخلاف بين بعض مذاهبها الى حد تكفير بعضهم لبعض وتقضي أدمغتها الأعمار للتدليل على فساد مذاهب الآخرين ولا يحصل من ذلك مقدار حبة خردل من مصلحة الأمة في اي شكل و بأية صورة.. ارتكام وارتكام من الكلام المعلل المعلّ في الترجيح والتفنيد تتلقاها الاجيال تعوزه بالمئة منهم لا يفهمون ما قد قيل قديماً ويقال حديثاً و (كل حزب بما لديهم فرحون) فقد لزم عليك أنه تقول أن هذا الحجاج الاثنى المستنفد للطاقة والمثير للفتنة و المنتقص من القدرة على ترويج المصالح هو في اجلى مظاهره اعلام من التبري من ارادة النهوض و الأخذ بالأولى وقصارى ما يمكن فعله على مثل هذه الحال هو رتق الفتق و جبر الكسر و جمع المتنزع المراوحة في موضع ثابت [على أحسن الاحتمالات] بل ان الحالة المذكورة بقياسها الى ركب البشرية عموماً تعتبر رجوعاً الى وراء مع العلم بأنه هذه المذاهب والآراء الدينية في سالف الزمان لم تكن قط سبباً من أسباب التقدم، ولا يمكن ان تكون، وقد راج حديث منسوب الى النبي نصه: (اختلاف أمتي رحمة) فنرده على أن وجود سبعين مذهباً يفتح سبعين باباً لدخول الجنة فما بال النبي لم يسمح في زمانه بتعدد الآراء في الفروض وفي الحلال والحرام وفي الجائز وغير الجائز وسائر المعاملات وماذا كان المانع من اتباع الآيات المنسوخة؟ أليست تزيد من الابواب المفضية الى الجنة؟

حقيقة الأمر ان تفرق العقائد الى عشرات المذاهب كان في حينه من العقبات الكبيرة أمام هدوء الاحوال بين الناس فما اكثر الفتن التي ثارت بين اتباع المذاهب المختلفة هلكت فيها النفوس و ساد الدمار البلاد والعباد حتى تفاقم الأمر بنشوء عقائد بعيدة عن الاسلام كانت تحارب الناس المسالمين وتقتل الحجاج و... وللداعي لتفصيل أكثر وخلاصة القول ان التفرق القديم كان من المصائب العظمى وان جانباً من التأخر الراهن يعود الى تلك الأحوال الموسية، والمنظر في مجموعه يعكس صورة واضحة لجانب ملحوظ من مستشفى المجاذيب العامر بأهله ولقد بلغ من سوء الصناعات الباطلة [الحمرة في مذاق الجهلة] ان فتوحات العلم الحديث لا تستطيع مس الخزعبلات المترسخة في طيات ارواح اولئك القوم حتى انك قد تقول لبعض هؤلاء ان الشمس ستكسف في نهاية الشهر القمري بحسب ما هو وارد في الروزنامات فلما حدث الكسوف وجدت القوم يبكون ويحوقلون ويبسملون ويدقون الطبل مصحوباً بالأعيرة النارية لعون الجان والعفاريت تفر الى ما وراء جبل قاف.

ان عقل الانسان هو بالبداهة نبراس رشده فلا يملك نوراً غيره الا هامشاً ضيقاً من الاحساس الخفي يكشف له بعض المغيبات وقد يقوى هذا الاحساس حتى يصبح في حد ذاته لغزاً يجب فكه وشرحه [حتى

يومنا هذا ورغم التعليم بوجوده لم يتمّ تحليله تحليلاً مقنعاً لدفوات فيه] وتحدث خوارق في هذا المجال لا تُلبق شكاً في الذي هو دونها بمراحل. وفي واقع حياتي تجربة جاءت صادقة مئة في المئة لها علاقة بالخفايا والمحجبات فقد كنت الى ما قبل عشرين تقريباً لا اقدر على شرب الماء الفاتر، ودع عنك الماء البارد، حتى في الصيف فتعترني نوبة سعال شهيقي لوجود علة لا اعرف اسمها في الموضع الذي يخرج منه صوت الهمزة فاذا ابتل بالماء (والماء ليس حاراً) تنتابني النوبة حتى اني كنت اترك مجلس صيوف دفعاً للاحراج. ثم حدث أن فتى يافعاً جاء الى بيتنا مع ابيه وأمه حكاماً قد اشتهر بانه له قدرة على شفاء المريض عن طريق يده اليمنى. الخلاصة انه وضع يده اليمنى على موضع السعال لدقيقتين أو أقل. وهذا صوكل ما فعله و علمت بعد ان الماء البارد وغيره من مثيرات السعال لا يكون له تأثير. وقد صدق. بعد ذلك قرأت في بعض اصدارات الروس بعد انهيار السوفيت كلاماً لسيدة أرمنية هاجرت اسرتها الى روسيا من أرمينيا (ضمن خريطة تركيا) مرورا من المجازر التي تعرض لها الأرمن تقول فيه ان لها قدرة مذكرة على شفاء المرضى وأظن ان كلامها موثق من مصادر طبية، كما ان الماديون ينكرون علم النفس حتى أصبح هذا الفرع من فروع المعرفة خاضعاً للقوانين والتجارب فلم يعد في الامكان مكابرة الماديين فيه ولكنهم، وبجذعة دالة على الجبن، قالوا: ان علم النفس الماركسي هو العلم الصحيح. ها هنا، في معترك الغيبيات، ينقسم الناس الى مواقف مختلفة [ومتناقضة في بعض الاحيان]. الموقف الأول، وهو أكثر المواقف ضحالة وبدائية، يؤمن بأشد الاساطير تعارضاً مع الحق من مثل الرواية التي تقول ان النبي في صعوده درجات العرش الى رحاب رب العالمين زلت قدمه فأسندته يد فالتفت النبي فوجد خلفه الشيخ عبدالقادر الكيلاني. وتقول رواية ان عقربا كان مكلفاً من الله بأداء مهمة فوصل جدول ماء والعقرب لا يعرف السباحة فجاءت سلحفاة حملته على ظهرها الى الضفة الأخرى، وعاد من مهمته وعبر النهر فوق ظهر السلحفاة. ومن غريب المقالة في هذه الأضحوكة أن شخصاً كان في المجلس، وكنت حاضره، فاعترض بأنه قشة جاءت الى العقرب وليست السلحفاة: الحق يقال ان القشة أدل على قوة الغيب فيا فرحة المفتونين بالمغيبات المتبركة. الموقف الثاني هو انكار المغيبات جملة وتفصيلا ولا يكلف الانكار شيئاً على الأطلاق. هاتان الفئتان لا يجدي معهما كلام مقنع. يضرني في هذا المجال ما سبق أن قلته من كلام قاله بكداش في فضح سفالين بأنه اغتناء للماركسية.. وهو يذكرني بكلام مماثل من اجانب الاسطوري ان شيخاً من اولياء الله نزل ضيفاً على درويش له.. بعد طلوع الفجر ذهب الدرويش الى بعض شؤونه وكان الولي قرأ في اللوح المحفوظ ان الله سبحانه وتعالى كتب عليه زنىً واحداً وكانت زوجة الدرويش صلوة فجاءها.. جاء الدرويش فلم يجد الولي وسأل زوجته فقالت انه فعل كذا وكذا ومضى وذهب لسبيله. فانطلق في أثره حتى بلغ نهراً كان بجوار القرية فوجد الولي فرش السجادة على الماء فعبرت به الى العدوة الأخرى ولم أدر في منطق الرواية هل الدرويش اطمأن قلبه بمعجزة العبور أم ساورته الوساوس بالفاحشة. وماذا يفعل درويش ماهر بل ماذا يفعل عبقري المباغتة مع امرأة لا يفك الخط وهو مادّيّ مغلوق القلب والفكر! قال الشاعر العربي [ولا احفظ اسمه]:

لقد أسمعتَ لو ناديت حيّاً
ولكن لا حياة لمن تنادي

الموقف الثالث هو عدم الاكتراث بالذي يقال في الجانبين وهؤلاء [ونقول: كثيرون منهم] الذين يشملهم عدم الاكتراث ينقسمون الى قسمين، أحدهما يستمرئ التخفف من أعباء التقاليد وما كان في حكمها، ثانيهما يساوره الخوف من احتمال أن يكون الواقع الديني مبنياً على أساس من ذرى ما، ولكن كليهما متعادلان، تقريباً، من حيث تحاشي الكلفة من حكم التقاليد، وهما لهما في الجملة، أميل الى الراحة وقلما اثارتهم أحداث للتخصص بضرر أو منفعة وبئسهم الحكمة البارجة الكريمة التي تقول (ذكره سوره له قوم به دوره - النار الحمراء بعيدة عنا) و-

المصريون يعبرون عنه بكلامهم الدارج (الشر بره و بعيد). والقسم الرابع يضم فئيلا مختلف الأمزجة لكنهم يجتمعون في التمسك بالغيبيات وغالبهم يمسك العصا في وسطها فيؤدي ما يتبين له من الفروض فرض تفيد اذا كانت هناك قيامة والا فقد كسب صيتا في دنياه. اذكر في هذا المجال شيئاً شهد عليه الشهود فقد ذاعت وكثرت المظاهرات بعد وثبة ١٩٦٨ واشتدت الحماسة ضد التعقيد فكان أصدقاؤنا المظاهرات في اسبانية يبالغون في التظاهر بالكفر في هتافاتهم ثم يسيل الى زاوية غير واضحة فيرفع يديه الى السماء يستغفر ربه ويحقر نفسه. والقسم الخامس ناس عاديون يغلب عليهم الوقار والترفع عن الصغار فيعتبرون آراءهم ضمن نطاق القانون وقل منهم من أغلظ في التهجم أو مجاوزة التأدب. اذكر أن سلامة موسى نشر آراءه بما يليق فكان يدافع عن الاشتراكية[1]، وجرته يعلن رأيه في العقيدة الدينية فعبر عنه بما معناه: ليست لي مطامح غيبية بعد الموت، وافق جرأة عن الحرية والديمقراطية، وأظنه فارق الحياة بترب نظيف وكفى ذلك شرفاً لكل انسان نبيل. هناك فئة من المتظاهرين بالإلحاد ليس وراء هذا الإلحاد إلا التعرض لسطوح الأضواء بانكار الخالق ثم يتوصل في اول خطوة الى براهينه حيث لا تعلم له ببرهان ولا برهان وقد يدخل بتجريفاته الى ما يسمى (تأليه الكون Pantheism) غير عالم بأنه ذلك ضد الالحاد. ولقد رأيت غير قليل من شباب الثلاثينات، وأنا بعد في الابتدائية، يتخذون الإلحاد للتحلل من القيود. القسم السادس هم اصحاب العقيدة الدينية وهم أيضا ما بين فاضل يحترم الكل ووسيط بين بين وطائفة اختلطت أعاسيرها بأقاجيرها يصعب الدخول معها في حوار قد يفيد الجميع. ولم يعد خافيا تدخل السياسة الدولية في تأثير المظاهر لما هو دين. رجال الدين الأعلام في الإسلام فقد أصبح الثراء الحال واضحاً في التهرب الى نفوس ناس هم إما أنصاف علماء أو طلاب الدنيا.

كان الكلام طريا في اعضاء منطقتنا من جنسيات مختلفة والواقع هو أنه أغلب أكناف العالم مشغولة بالخلافات والمناقشات والنزاعات ويشتد الويل في ساحات واسعة بقارة افريقيا للمصائب الثلاث المذكورة يضاف اليها الجوع والمرض والتشرد والقتل بالجملة فالمنظر يعرض صورة صادقة للمستشفى المذكور في عنوان هذه الكتابة. أتذكر حكاية طريفة من فم رئيس عشيرة افريقي ساقها المناسبة فقد زار السير ونستون چرچل بلادنا في افريقيا ابان الحرب الثانية فاستضافه ذلك الزعيم الأفريقي وقال من باب المجاملة للسير چرچل: ان الحرب وفرت للمقاتلين الأوروبيين مقادير كبيرة من لحوم الجنود القتلى. فقال له السير چرچل: نحن لدينا كل لحوم الآدميين. فقال له متعجباً: اذا كنتم لديكم لحوم بحضنكم فلماذا أنشبتم هذه الحرب؟؟ اقول انه قد تكون هذه الملحة من اختراع انسان ذكي وفكه ولكنها جاءت مطابقة لمنطق الزعيم الأفريقي ومنطق المتلذذين من قتل الضحية والمتمتع من لحمه.

هناك موضوع متصل بهذه الكتابة من ضمنها له تفريعات ذات دلالات تفسر أموراً غير مفسرة يغلبها الفكر فتضيع في طوايا موضوعات تكسب الصدارة: ماذا ترضى المرأة ورضيت طلال الوف السنين، ان تكون امتداداً لشخصية الرجل؟ ان أنصار المادية الجدلية يحصرون الموضوع في زاوية ضيقة تفادياً لنشوء فلسفة تدافع عن المرأة ضد سيطرة الرجل فتحصل فجوة في بنيانه النظرية القائمة على "الطبقات" فلا يجوز في عرفهم ومنطقهم أن تعتبر المرأة (العاملة والفلاحة) طبقة مضطهدة من قبل طبقة (العامل والفلاح). قرأت شيئاً عجيباً من كتابات لينين يقول فيها ان البرجوازيين ومن في مستواهم فما فوق، يزني أحدهم بزوجة الآخر بسبب من قدرته المالية على التمتع بالملذات لكن العامل والفلاح يبقى مخلصاً لزوجته مكتفيا بزوجة واحدة... وهو كلام عاطفي من ينتهي السذاجة ومن ينتهي الشطط والبعد عن الحق: فالقول بأن البرجوازيين والأقطاعيين زناة من عهد سيدنا آدم يعني أن المجتمع في كثرته الساحقة (أولاد الحرام، نغولة) فيكون لينين نفسه أحد هؤلاء بكونه من غير سلالة الفلاحين والعمال. أما طهر المرأة البروليتارية وامتناعها من الرذيلة فهو مردود بمنطق (الثروة والفقر) فهل من كلهن من تتمنى رابعة العدوية؟ وأين يأتيع الردع في فقر زوجها وهو غائب عن البيت جل وقته في تدبير لقمة العيش؟ ألا إن الغوز يهرس في الأنام عصب الشوف اذا طال

(١) في رأيي كانت اشتراكيته سنية على حسن النية بأفضال الرخاء الى الفقراء وهو هوناً به ان يطالب بالعدالة الاجتماعية (١) الاشتراكية ذات اشتراطات لم تتوفر حتى الآن في واحدة من مجتمعات العالم الثالث وقد طبقت الاشتراكية في عهد جمال

أجد اضافة ملحوظة أخيرة الى ما سبق بيانه في صدد المرأة والرجل وهو أن الرجل يفوق المرأة في الأمور، عنيا بفضل قوته وزيادة وزنه وحمولته بقياسه الى المرأة كما انه المرأة اكثر إجابة من الرجل في الخفة والرشاقة وما إليها، بقي ان اقول إن مخ الرجل أكبر فهو خليق ان يدرك الأمور ويستخلص النتائج في وقت أسرع بصورة عامة. لقد شاع من كلام زعماء السوفيت ان فرق الذكاء من شخص الى شخص عائد الى فوارق الطبقة وهو كلام كان أجدى ان يُقال عليه التراب قبل ان يقال أو يُنشر لأنه من أكاذيب السياسة المنغلقة على نفسها، ولقد غالوا حتى وجدت بعضهم يقول ويكتب أن نقص الذكاء بسبب الفقر ينتقل بالإرث إلى الأولاد وفي اليهم تو سعوا في هذا الباب وقالوا ان قابلية النظم والرسم والنحت والفنون عامة، بينما في اليها العلوم والتكنولوجيا، تصبح وراثية تنتقل من شخص الى شخص بالمعاشرة. لكن المنكفئة تثور في انتقال الرذائل بالطريقة نفسها وهي أسهل منالا لانه الكذب والدجل والخديعة واختراع الاتهامات وما اليها بضاعة في متناول الناس عامة ولكن يمكن علاج هذه الناحية بتعديل بسيط هو أنه البرجوازيين والاقطاعيين ومستغلي الفرص وبائعي الذمم والاستعماريين والمنكرين لفضيلة المساواة هم فقط ينقلون رذائلهم الى غيرهم عن طريق العدوى أما الطبقة العاملة فهي مصونة لأنها خالقة التقدم والارتقاء.. حقاً ان دنيانا مستشفى!!

أحب أن أفتح كوة للنظر إلى جانب مشرق وقع من تاريخ البشر حيث نجد امثلة مشرقة في آحاد بعض الأوطان سعوا الى سعادة الناس وفي انبعاث جماهيري نحو تحقيق العدالة بأوطانهم أكثر. لا شك في ان عمر ابن عبد العزيز الأموي يأتي في صدارة كل رؤساء الحكومات قديمها وحديثها [وستقبلها]. لقد اراد بعض المؤولين ان عمر هذا أضفى عليه العدل والأحسان من جهة امه الى عمر ابن الخطاب وهو كلام ظاهر البطلان فان أباه عبد العزيز اقرب الى ابن الخطاب فما ذكره أحد في مجال المحامد المنسوبة الى ابنه عمر. ان الانصاف يقتضي أن نقول ان مؤرخي الاسلام ما تركوا شاردة ولا واردة من اول ظهور الاسلام الى يومنا هذا الا وقيدوها فليس من معرة وعيب ونقيصة حدثت على ايام النبي وما بعده إلا وقد أحصيت بخواصها وربما أضافوا اليها من باب زيادة التحلية. ان الأحزاب التي تدعى الثورية واليسارية لا تعترف بغير الطهر المطلق للفضائل والعار المطلق للفواحش وقد تعترف ببعض الاخطاء من باب الاضطرار، أما السرقة فهي صرف أغلب مدونات التاريخ الاسلامي فهو عائد الى ان المؤرخين لم يكونوا حكوميين فكتبوا ما علموا، وكان شأنهم قريباً من شأن العلماء المتحرين عن مصادر الحديث فقد استفرغوا الجهد في تأصيل السند المستند اليه حديث معروض للمناقشة. وحدث اكثر من هذا في جمع القرآن على ايام عثمان بن عفان.. وأقول من باب الثقة برواية المؤرخين وقضاة الحديث وما معنى القرآن أن اثنين من أعمدة الحكم والرأي على أيام عمر ابن الخطاب فما بعده حتى خلافة معاوية بن ابي سفيان هما: عمرو بن العاص وزياد ابن ابيه، فابن العاص سامر معاوية الأيمن والمريب الجيش على، قد ثبت كونه ولد زنى بشهادة واحدة من قرابة النبي في مجلس معاوية، فقد قالت تعنف ابن العاص: يا ابن اشهر عاهرة في مكة كلها فقد ولدتك امك وهي تقول ان خمسة رجال ضاجعوني فانظروا الوليد فهو ابن الشخص الذي يشبهه فوجدوه مشابهاً لعاص. أما زياد ابن ابيه فقد شهد شاهدان إني رأيت أبا سفيان في الطائف فاشترى المضاجعة وكانت بغيّ مشهورة في الطائف فاختلى بها وشهدته يفعل بها كذا وكذا فجاء زياد من تلك الخلوة. وكان للعرب عرف مشهور يسمونه (الاستلحاق) وهو اعتبار ابن الزنى بمقام الولد الشرعي وقد استلحق ابو سفيان زياداً هذا فسمّي زياد ابن ابيه - جهة المدح والاطراء المبالغ فيه في التاريخ لا مضطرة فيها فتستطيع من طرف لسانك ان تستهزئ بكل شعر ونثر وخبر وثناء وتمجيد وتقديس فليس الاستهزاء به يكلف معشار العناء المصروف في ضبط كتبه أو نظمه أو روايته. والظاهر في عرف العرب لما قبل ١٤ قرناً ان تكلف المدح والرواية والنظم وما إلى ذلك أمر كثيراً ما "تكلف الهجو في معارضة قصيدة مدح إلا انا كان الشاعر مثلاً، صاحب دعوى في محاجبة أو ملاسنة قائمة بين جهتين كالشاعر الأموي، واظنه فرزدقاً، في الانتصار لزين العابدين الذي اجتمع عليه الناس في طوافه

به عفاخة الجوى والعوز والحرمان.. أقولها بمرارة ألمية ان ٧٥٪ من بائعات الهوى في المواخير من نساء الطبقة الأكثر شقاء وهذا هو منطق الأشياء فالمرأة المترفهة او على شيء من الوفرة تستطيع اذا شاءت أن تمارس العشق مع رجل تحبه وهي اذا لم تكن من الشبقات الفاحشة لأرادتها لن تخاطر بحياتها في المواخير لانه اهلها سيقتلونها مهما يكن الثمن. لم تسمع برجوع عاهرة مواخير من بيت مستريح. وفي المجتمع الكردي الذي نعرفه جيداً ما حصل الا في الأندر الأندر ان جازفت بنت وجيه أو رئيس عشيرة أو تاجر أو شيخ طريقة او عالم دين بالشرود من بيتها لتلحق شاباً أحبته. على حين نجد عشرات من بنات عامة العشائر تلحق شاباً أحبته حتى الصلح بوساطة وجيه. لقد شاع على الألسن ان والداً من عشيرة كذا عنّف بنته البالغة بقوله: لو كان فيك خير لرجعت لتطلق أحد الشباب. وقد شاع في بعض مواطن كردستان العراق عشق زوجة رئيس عشيرة لابن عم زوجها وهي لفرع اخت رئيس عشيرة مجاورة. وفي تدبير محكم وعلى اشتداد مطاردة الخفر زير جاءت طلقة من غير مكان معين فأصابت عشيق الرئيس زوجة الرئيس المذكور في ظهره فقتلته وبقيت الزوجة محترمة. لا أرى لزوماً للرجوع الى بواعث الاحتماء البشري عموماً لحالة المرأة في عهود مختلفة وفي مختلف المجتمعات وفي مختلف الأديان وعبر مختلف التحولات في الخارطة الاجتماعية والسياسية وان كان صعباً اطلاق الحكم على المرأة في مجتمع متقوقع وتحت راية دين سمح الى دين متشنج لا سيما من ناحية سلطة الرجل في أسرته وتعدد الزوجات وميقيات الطلاق وشروط الحل والحرمة في نواح هذا من هذه[1] وكم هو نصيب المرأة في المهر والميراث.. الخ فضيلة في تجاوز هذه الأمور ودعنا نرصد صوراً مستفاداً من المكتظة بأفانين الجنون فأختم القول الى آخر مدى الاختصار على وجه الاضطرار للاشتمال على أبرز ما يميز مقام الرجل ومقام المرأة في خلايا المجتمع عامة وأقول: المرأة هي العنصر الأضعف لسببين اساسيين: اولهما وهو أخطرهما: الحمل فهي مفطورة بالغريزة على الانجاب فهي في كل مرة تحمل فيه توشك على الموت ناهيك عن الحمل نفسه أشعر بأعباءه الفاحشة للظهر وعن آلام الطلق المروعة فلولا أنها تعتبر الولادة في معزة هبات لم تكن لتجازف بروحها في تحقيقه. أما الرجل فهو خالي البال تماماً من هذه الناحية ولا تكون رغبته في وجود طفل له تبلغ عشر معشار رغبة الانثى في الولادة.. الرجل قد ينثر نسله هنا وهنا وقد لا يدري أين بذر بذرته وهو يعاشر اعداداً غير قليلة من نساء بل انه قد يطفئ رغبته الجنسية بالمواط وبنكاح البهيمة.. ثانياً السببين هو ان المرأة أضعف بنياناً وأقل قدرة على حماية ذاتها لا سيما وهي تلد فلا بد لها من سند يقيم أودها ويحميها ويحمي نسلها زيادة من احتياجها الى رعاية الرجل ان الطفل البشري دون مواليد الاحياء قاطبة يقضي سنين عديدة حتى يدرج وحتى يستطيع المشي ولا يبلغ مرتبة الاعانة ذاته بنفسه دون بلوغه سن العاشرة بالاضافة الى انه طفولته بحاجة مستمرة الى التنظيف وتبديل الملبس والغسل.. رضاعته حوالي سنتين فكيف يكون الحال اذا ولد طفل ثانٍ في سنة أو سنتين.. ثم ثالث ورابع وخامس فاحرص ان عن اداة ذاتهم ولا يعيشون ما دون: (١) رضاعة (٢) تنظيف (٣) لباس.. ولا أرى داعياً للاطالة فالموضوع على اشد ما يكون من الوضوح. ومن غريب الأمر أن مواليد الاحياء الأخرى كلها [باستثناء الطيور] تنزل من رحم امها فما تلبث إلا هنيهات حتى تقوم على قوائمها وتمص حليب أمها وتمشي وراءها. [الطيور منها ما جنح ومنها ما نأى ومنها طيور الاعشاش وهذه الأخيرة تتأخر امها عن الطيران] والمرأة مشدودة غريزياً الى الرجل وذات حاجة اليه في مساعدتها على معيشة وليدها على حين يكون انشداد الرجل الى (المرأة) ناشئاً بالدرجة الاولى [كما اعتقد] عن عاقة يكونه مواضعات الاجتماع البشري فلا تتيسر الحياة وتزدهر بلا أسرة ثم يأتي دور الوليد الذي يطمئن عاطفة الأبوة و بقاء الاسم ويكونه المولود الذكر عماد خيمة الأسرة فالبنت تحزبيت انسابه أجنبت عن أسرتها. ويزيد من رسوخ هذه الملاحظات ان الرجل يستطيع الامتناع عن الزواج ثم يعاشر ما شاء من النساء وقد يستغني عن البيت وينزل في خانه أو فندق.. اقول قد اقول زيادة في حصول اقتناع القارئ بصواب ما مر بيانه بعيداً من المفاهيم والأعراف الدارجة بحكم العادة أو اقتضاء القانون أو حكم الشريعة أو تمريجات المدارس السياسية لا سيما ما كان منها مفتوناً بالثورة البروليتارية والطهر البروليتاري وقدسية المطرقة والمنجل.

---

(١) اذا التزمنا شرح شروط الحل والحرمة في الاديان المختلفة وفي مذاهب الدين الواحد لزواج رجل وامرأة لكنا أحرياء أن نتوصل الى الموضوع للوفاء بأمانة التبليغ.. فهل تجد واحداً ما حكم الرضاعة في الاديان وفي مذاهبها ؟

بالكعبة وكان الخليفة الأموي يطوف أيضا ولم يجتمع عليه الناس فأراد كبرياءه زين العابدين بوالده ف
هذا . وصو يعرف من هو فنظم الشاعر قصيدة مدح من ادعى ما نظم الشعر :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم

وما أثلن احداً من خصوم بيت النبي حرث لسانه بالنيل منه الى يومنا هذا، لكن أكثر بيت في قصيدة الشاعر يدهش
الخليفة بالموقف فيقول مثلاً ذهب يمدح زين العابدين :

في معشر مبغضهم دين
كفر وقربهم منجى ومعتصم

والذي يعجبني غاية الاعجاب عجز أحد الأبيات اذ يقول:

هذا التقي النقي الطاهر العلم

تسوق المناسبة الى القول بأنه الكرد لم يكن لهم شعر قديم حتى ان المرقومات القديمة من مثل الآفيستا
ولا رنامه ... الخ لا أثر للشعر فيها البتة تحت شديد. وحين أمت البحور والقوافي المستعملة في الشعر العربي بعد
فتح الاسلام لبلاد فارس برز شعراء فطاحل من الفرس دونوا الدواوين في مختلف الميادين حتى ان الشاهنامه
للفردوسي والمثنوي لجلال الدين الرومي - مر ذكره - من مفاخر الأدب الانساني ولا نظن ان لهما نظيراً في
واحدة من لغات العالم. لكن للكرد نظماً خاصاً بنساء العشائر سمي الجبال يسمى (بالوره) لم أسمع بمثله من غير
نساء الكرد وغالباً ما يشتمل هذا النظم على؟ إيام ينتشر الرجال والنساء في شعاب الجبل لجني العفص وجمع
الحطب فتنبري احداهن من الفتيات ذوات الصوت الحلو والقدرة على ارتجال الأبيات في مباراة كلامية
منظومة تمشي مع اللهجة التي مبتن من أجلها احفظ لنا هذا البيت فقط نقله في الكردية :

ماينێ سەر بڕێشم
لە براى خۆمت کێشم

وترجمته الى العربية في اقرب معناه الى الأصل :

يا مهرة بلا رسن
أنا كحتك من ضيقي

والمهرة بلا رسن تعني فرساً ضمن قطيع البازين لا أصالة لها. أما المهرة الأصيلة فهي تربط في محلها وتسقى الماء
من الساقية أو من سطلة وتعلف في مواعيدها الخ (١). ويقتضي السياق ان أذكر على بدء شاعر الشعب المبدع و
صاحب معلقات في أمور تتم غالبيتها بالخطورة لا سيما (بيته) المشهور في مدح عبد الرحمان باشا البابان وهو
الأمير الكردي وجيشه وصحبه لاعلانه الاستقلال عن بغداد وغيرها فهو نظم أشبه بالحريق والحديد الملتهب وقد
فقد في النهاية بما يترجم الى العربية (يا شباب بابان "هالله هالله"). كلمة (هالله) تقرأ للحاء مفخمة وهي
في الكردية للتهنئة وتحريك الشهامة وتتضمن (هالله) لفظاً الجلالة زيادة في التأثير ومن باب التوكل عليه.
من احاسن الصدف ان المجتمع الكردي بريفه وحضره كان يميل الى الغناء ويستهل (الدبكة) المختلطة من الجنسين
في مناسبات الفرح وفي أيام الأربعاء خلال فصل الربيع [الريف لا يحتاج الى يوم اربعاء فهو داخلاً في الزرعة والمرعى]
وبذلك بقيت انواع من الرقص الشعبي والأهازيج المناسبة له وشبه قاموس من المفردات كانت خليقة أن تموت فقد
ماتت شروة من الكلمات التي كانت مستعملة في ألعاب الكبار على مدار الفصول الأربعة وقد سألت شباباً من أبائنا عن
معاني عشرات الكلمات لمفردات الألعاب فلم يعرفوا شيئاً مرها على الأطلاق. الظاهر إننا ترقينا من (الخيلة وخازه له)
الى كرة القدم والباسكة فأفلتنا القديم ولم نبلغ مستوى الحديث وقلما تجد في كفوف التعامل والبيع والشراء كفة
مرجوحة خاسرة كالتي تترفع عن الرضا بالمندثر وتقصر عن بضاعة الاغنياء .. الحديث ذو شجون !

---

(١) للمبالغة فيما اقول: ان فتاة اسمها (ڤەستی، أستي) بنت حسن بن كوه خزنه قرية (ماڤكەند) المتصلة بصيف
چناروك كانت تؤدي (البالوره) بروعة واعجاز لا غاية بعدهما، ان فطرتها وروعة صوتها قادتها الى لحن في البالوره
لم يكن [illegible] لأحد غيرها. ماتت شابة ودفن عنها معها واحسرتاه !.

ان الاحتفاظ بمحتويات الاجتماعيات الغابرة له فائدة كبيرة في تقوية الارتباط القومي والشعور العام و... تحقيق الجذور بمثابت وجودنا المادي والمعنوي لكن ذلك على جانب عظيم من الصعوبة فأنت ترى وتحس وتعرف... أن غالب المندثرات من التراث هي في العالم والشواهد المفيدة الثمينة. شأنها شأنه العوج في مقابلة الموت على حين... تموت البرتقال بالأهمال لبعض الوقت... لم يلتفت أحد من الكرد والترك العثمانيين الى عبقرية (ستي افندي... مرّ ذكره) لكن بقي الطبل لفك صبة القمر على أتم ما يكون من الفاعلية ومن تخفيف علم الفلك و زيادة الضياء و... تكفير من يستقد بصواب مقولاتهما.. اما النزول على سطح القمر فقد طواه عقد من السنين وانحى أثره في اذهان العامة واستعاد البدر عرشه القديم تحف به الارواح الخيرة والملائكة الأطهار...

يا فرحة الأحياء والمراديس و مرضى العلل الخفية ويا عيد الاعياد الدائم في المستشفى المجتوى لمخابيل الأنس فما أردع منظراً يتفل فيه أشد الناس ضلالاً وخبالاً على لب لباب المعارف و حامل مشاعل النور و رافع شعار الكرامة الأنسانية احتفالا بتبشيع الجهل وقد اعتبر علماً وتقديس الكفر باعتباره ايماناً.

لقد يومنا هذا وليبين أساسين على غاية الخطورة فتح ساحة الخيال والضلال بنسبة تفوق اتساع ساحة النور والتعقل: السبب الأول هو سهولة تصديق الخرافات الحلوة ويزيد من ترويجها ان كثيراً من هذه الخرافات موروثة من القديم وكانت محترمة وعلى تصديق مطلق. أقول من باب المثال ان الأهل كانوا قويا بتبقير النظرة الى الكوكب بعد كسوف العلم وغزو الفضاء والنزول على القمر لكن القمر يخسف رغم ذلك والناس يطبل ويزمر ويدق الصنك رغم ذلك فتنخفض العفاريت عن القمر بالأدعية والصلوات اضافة الى الطبل والزمر وليتفلق من لم يؤمن بأن الخسوف إنذار من السماء. السبب الثاني هو أن كسوف العلم وافتراعاته من الأعمال البشرية المقدور عليها والمتسمة بالصفة (المادية) المصممة حتى إن "عطة" في حال معينة قد تسبب عطل سيارة أو شبوب نار أو أذى يصيب العاطس لاسيما اذا نسي العاطس والموجود معه أن يدرأ شؤم العطسة بدعاء أو فداء. لا أمل في انطواء الفلك القذر بالعلم المجرد نفسه خلال زمن متوسط المدى فالعطسة المذكورة في الطب المتقدم يعيش دهوراً والثقافة المهنية بضاعة نادرة على قدر ما يتعلق أمره بغمار الناس. فقد وجدنا ساتر يبيع صحيفة الكذب الشيوعي الصيني دهوس المثقفين والفنانين والادباء الكبار. ان الخرافة والهراء لهما منة الفلوس وصورة فلكل جماعة من الناس غرام خاص بالوهم الذي يليق نفسه حول (صياح الديك) في وقت قريب من الغروب فيكون شؤماً على سامعيه. وتعيب البوم له دلالته على سوء يقع. اذا صاحت الدجاجة بما يشبه صياح الديك. وجب ذبحها. نباح كلاب الشوارع بالليل فعويل طويل هو ضراعة بسلامة من علة وبأس نازل من السماء... فاذا كان في الدنيا مئة ألف جماعة ولكل منها مجموعة محترمة من قاموس النحس والسعد في دلالات الحالات المختلفة التي لا حصر لها فقد تمر قرون من ازدهار الحضارة قبل أن يقلع الناس عن التمسك بأوهامها وهي كما قلنا ذات ألوان وأصداء مختلفة خليقة أن تتشابك مع بعضها فتلد أنواعاً أخرى هجينة [من أصلين مختلفين]. والواقع هو أن الأوهام طويلة العمر ولكن تفسح المجال للتنوع والتكاثر وهي لا تحتاج الى أشتاذ يحوك الأسطورة كما نعلم ان الحكايات الخيالية من أبطال يرفعون الفيل بفارسه وألسنته بيد واحدة ومن عفاريت تطير وساحر ينفخ في قشة فتصبح أسداً هذه الحكايات تنطلق من لسان حذق مثل لهذا الفن وقلّ من أكرتج عليه فقد سمعت أطفالاً صغاراً يختلقون الرواية عفو الخاطر... أضف الى هذه المهارات المعدلة صنوف الكرامات وخوارق العادة المعزوة الى ولي أو ناسك من عباد الله الصالحين وقد يكون واحد من العارفين بالتعامل مع سواد الجهلة يحوك بمهارة قصصاً مقتبسة تروى توجيه ارادة رب العالمين الى شخصه الضعيف كي يشفي المريض ويكشف الخفاء ويطعم الجائع المسكين حتى ان عدداً من طلاب الثانوية في احدى المناطق المحكومة بهمجية شيخي ذي دعوى بالكرامات اختلقوا حكايات لا تصدق عن خوارق الشيخ المذكور لعل الناس يلتمسون منه لكن الآية انعكست فقد جلت

كل الكرامات الملفقة لحساب الشيخ بتصديق لا شائبة فيه.

الأدمغة المشغولة بالأوهام والخزعبلات على أتم الاستعداد لتفسير الظواهر تفسيراً أسطورياً وشديدة الرغبة في أن يكون وراء كل شيء ظاهر حكمة خفية من عالم الغيب فقد فسروا صوت الرعد بأنه صادر من ملك موكل بالغمام والمطر وزعموا أن الزلزال ناتج من حركة رأس الثور الذي يحمل الأرض بين قرنيه. فلما تقدمت الكشوف الجغرافية وانتشرت الطلقاء والمجوسيين في القارات المختومة قالوا أنظر نزحت الى ما وراء جبل (قاف) المحيط بأرضنا المسطحة ولا يمكن لبشر أن يبقى الجبل المذكور الى ما وراءه.... عزوا الى أحد الأولياء الصالحين انه اكتشف (أرض السمة) وهي قد سبع مرات من أرضنا هذه فيالليته اكتشف امريكا واستراليا والقطبين حيث السنة عبارة عن ستة أشهر من نهار متصل وستة اشهر من ليل متصل. اذا تبين لك أن تقرأ ألف ليلة وليلة وهي من نتاج زمن يعتبر مشرقاً في تاريخ الأسلام فأختر مكاناً (بلوتشيا) لعلك تتناهى من عصر المناخ واستخراج النتائج من المقدمات فانه مقولة (واق واق بجاه الملك الخلاق) تريك من ضربة الشمس الناشئة من المنطق والعلمانية.

لا فكاك لمليارات العالم الثالث ونسبة متوهة محترمة من شعوب العالم المتطور من سيوء الوهم وأنجبة الضلال المتقبل لأدمغة أنصاف البشر فأنهم في قبضة غول بألف يد ولكل يد ألف إصبع ولها القدرة على زيادة الأيدي والأصابع والأرجل والأجنحة كما تشاء. من مثل هذه الحالات ينبغي ان نتذكر كوم الفاس على أيام جدنا الخامس والهاشمي أمين لا يفكره الخطأ الد طلبة واساتذة علوم الاسلام في المساجد وقبل تدريس العلوم الدينية الا ما كان من المنطق والفلك وقد دام تدريسه الى آخر المدى فقد بقوا يدرسون فلكيات بطليموس بأضعوا الثابتة و مجموعها الثوابت والمتحركة وظلوا بين أفلاك القرآنية السبعة والأفلاك المتحركة وهي سبعة ايضاً في عرف بطليموس يضاف اليها فلك الثوابت وفلك الافلاك فصرن تسعة افلاك، وأظن ان علماء الاسلام صبوا العرش والكرسي فلكين فتطابق الرقمان. ان تدريس الفلك الماضي لم يعترف بفلكيات كوبرنيكوس وغاليليو لعدم القول بحركة الأرض حول الشمس. كما ان رجال الدين المسيحيون أنكروه على كرستوف كولومب محاولة الدوران حول الأرض باعتبارها مسطحة ولا أدري كيف بلعوا هذه الجرعة المرة بعدما أجبر غرباً على رجوع من الشرق [أو كما رجوعه حقاً من الشرق]. الاشكال الكبير كامن في استناد تصور الأرض والسماء الى العقيدة الدينية وخلقها في ستة آيام وأن الأرض مسطحة والسماء سقف فوقها. واليوم وقد تبدلت ضابطة الكوم بعد الاقدام على غزو الفضاء وتجاوز النزول على سطح القمر تشتد الصعوبة في التوفيق بين آراء لا تلتقي معاً في الكثير والقليل. وأرى عدم التقيد في هذه المعضلة فالملاحدة أنفسهم يصدرون عن آراء ماركس ولينين وقد ظهر عدم كفايتها بل بعدها عن منطق التاريخ واستحالة (المساواة) في موارد الرزق بالشيوعية العشوائية التي لا تستند الى بناء محقق وعلم طبيعي صناعي يكفي لاشباع الكل. فاهيك عن فساد الرأي باسناد الحكومة الى فلاح أمي وعامل يقيه في عملية صابية أو جبرية او هندسية يجلبها طالب المتوسطة فكيف يصبح وزيراً واستاذ جامعة. وقادة طائرة ومدرساً لنظرية النسبية؟ شيوعيو اوربا والدنيا المتقدمة نبذوا فكرة الثورة البروليتارية واتخذوا الديمقراطية الانتخابية منهجاً وطريقاً الى العدالة والشبع والأمان وان كانوا تأخروا بعض الوقت فلقد أدركت بحكم وضوح نظري الى العلامات و عدم التبعية لعقلية الآخرين ادركت استحالة قفز الفلاح والعامل الى رئاسة الدولة. وادركت ايضاً ان مثاليين مجرم وكما يعبد على نطاق واسع وأعلنت رأيي بحضور من اعضاء اللجنة العلمية للشيوعيين والباحثين ببيتي في كولمبيا... يا قارئتي اذا شئت هذا الكائن العاقل الذي يسمونه بشراً جوياً عد على وضوح النظر وحرية الاصغاء الى صوت المنطق والتمييز بين التمني والتحقيق والتمكن من بيان الرأي الذي يحصل في اعماقه بلا تهديد ولا انتظام بالخيانة والعمالة فالذي لا شك فيه هو أن المحصول النظيف الصحي الموثوق منه يكون في أقرب احتمال الى الوقوع مقداراً جالباً للنظر ويزداد مع الزمن حتى لا يمكن لأحد تجريبه، هذا بالاضافة الى

أن الخيبات المرة التي يحصدها المناضلون اليوم وأهل بلدهم وقرابتهم نتيجة فشل الغنتريات الحمقاء في المغامرات الفجة، هذه الخيبات لا تستأذن الناس ثمن الفجاجة والضحالة والبطولة الحمقاء.. كل التضحيات التي قُدمت في وقدة الحماس انطفأت الى نقيضها فما أكثر من تخاذلوا بعد الحبس والتحقير وذهاب مصدر الرزق والاضطرار الى النزوح وما يماثل التشرد فانهاروا وأصبحوا أرقاماً في دوائر التحقيقات ولا أدري ماذا..؟ أقول بأسف وحرقة ان إعدام (فهد) كان واحداً من تدابير ردع التطرف الذي مارسته سلطة العهد الملكي ولم يكن له مبرر معقول من وجهة السياسة الحكيمة وكان اعدام الضباط الأربعة العرب والضباط الأربعة الأكراد منطوياً على الخطأ وضد مصلحة الدولة في كل قياس سليم فالاعدامات هذه كانت بمثابة وضع جمرة على جرح دامٍ ولا أشك في أن هذه الأعدامات الثلاثة كانت مشوبة بالحساسية الشخصية وليس من خلاصة مصلحة الدولة أو هي من باب الوعيد لمن تسوله له نفسه بالتطاول على الحكومة... الدولة! ولا أعلم ولم اسمع ما أحد سوى فالانجليز من هذه الأمور؛ اقول هذا جرياً مع قلة الاعدامات على أيام الانجليز. وقد عانى بعد ثورة تموز ١٩٥٨ كيف كانت قوائم المعدومين تصعد وتصعد حتى صامت الجثث تترك في الشوارع فلا يجرأ قرابة أولئك الصرعى ان يتشفعوا لعلهم في الأحد ينعموا !!

اننا نعلم ان البشرية تتقدم وأن ما لا يحاط به علم من الكشوف العلمية واستكناه الحقائق واستشفاف المغيبات تملأ الأرض والماء والسماء كما تملأ الفواكه والخضار دكاكين البقالين لكن انتفاض عروق الثائرين واستفزازهم بذهاب الأموال وزهوق الأرواح وبوار الذرى في الضرع على انغام الرصاص وزغردات (بين وبيت) ومجالس العزاء والمناحة تتصدر المسيرات والمظاهرات الى عواقب أوخم من فواجع الحركات الضيقة فقد توسعت المسيرة الى تمرد وتطورت المظاهرة الى ثورة تتعاقب معها السنوم حتى بلغت ارواح الضحايا من الحرب بين الدول الثائرة وبين الثائرين والدول الحاوية لهم أكثر من مليون شهيد وصارت الخسائر مليارات مليارات متاخيل الذهب ثم تفرقت الأمة المختلفة في جبهة واحدة الى اجنحة متحاربة تستهدف استئصال رفاق الأمس.. فيا فاعلون الخير من «المستعمرين الشعبانيين» ارصوا إخواناً يقتل بعضهم بعضاً وخلاناً يهتك بعضهم بعضاً وجيراناً يفتك بعضهم بعضاً وناساً آخرين انخرطوا في الكرنفال من باب (الحشر مع الناس عيد) حتى ولو كان الحشر الى جهنم وبئس المهاد.. تعالوا يا من سمينكم شياطين حضارية سنوات طوالاً فوجوهكم على شياطينكم تحسبون من الملائكة.. تعالوا حاجزوا بين الأضواء والخلاء والجراد والآخرين الذين شذوا عن القافية المقيتة بالأنين والنزوح والانتهوا الى الجنوح والفتوح والمنون..

ان تقدم البشرية في مضامير العلم والفن والأدب والبناء هو شهادة (سقوط) التقدم في مضامير الفتك والهتك وريادة الخديعة السياسية وقيادة الجماهير الى أسفل سافلين؛ ان من أولئك القادة السادة الزادة (أولاد حارتهم) يضيقون بالثقافة والاستقامة ويختنقون في مهب نسيم الصباح.. إن

الملاحظ انه عندما يكون شعبٌ من الشعوب متأخرا ومستبدا وفاقدا للحرية، ليست
له الحرية الشرعية الدولية داعيا فأبرجوده من الأمم المتحدة، مثل هذا الشعب يملك نهجا سياسيا يخالف جميع
قواعد المنطق والمصلحة بسبب أنه لم يكن يملك إرادته ليصرفها في الخير فالخير والشفقة والكرامة وما في حكمها
أمور مكلفة تستنفذ الجهد وتضيق مجالات الاختيار، ومن الواضح أن أصعب المسالك الى توفير النعم والأمان و
الرفاه هو، بلا أدنى شك، مسلك السياسة لسببين أو أكثر: فالسبب الاول هو انه العمل السياسي مبني
أساساً على المشاركة في الرأي والمشاركة في القرار والمشاركة في العمل وقد ينقاد ناس الى رأي الأكثرية رغم
عدم ايمان الأقلية بذلك. والسبب الثاني هو فجاجة وضحالة وسطحية التصورات والتقديرات السائدة في
أذهان القوى السياسية المسيطرة على الأحزاب [التي هي بالأساس تسبح في الخيالات] فالاحزاب السياسية
بالبلدان المتخلفة لا تمارس [معيشة] وإنما تمارس أحلاماً نبعت من مصادر غير موجودة في المتخلفين،
ونسخة من البيان الشيوعي لماركس ومنهج لينين (وفي تروتسكي) في الثورة ولا شيء غير الثورة فليس من الغريب اذاً
أن استحال تشكيل حزب سياسي في كردستان والبلدان المتخلفة مثيلها، فليس في متناول السياسيين الثوريين
ليبنوا واحدة توضع في حائط معروض ولا يتسنى تشكيل حزب واحد ذي منهج يشغل بالانتاج والتوزيع. وكان لعامة
الناس وراء فلسفة (ليت، ليتما..) هدف يداعب خيالهم وهو الاستيلاء على اموال الاغنياء وعلى في
واقع كردستاننا زهيدة لا تكفي لاعاشة الجميع شهرين أو ثلاثة أو قل: سنة! ثم ماذا؟ لا شيء على
الأطلاق الأمنية الآنية والبوار الحال والأستقبال. ان الحزبية السائدة في مثل كردستاننا ليست من طينة أحزاب
المجتمعات المتقدمة المتبرجزة فالناس في فرنسا أو المانيا يحللون البيانات الانتخابية للاحزاب المختلفة و
يرضون دخلهم على مناهج تلك البيانات فيعطون صوتهم للمنهج الأكثر توافقا مع مصالحهم [الحزبيون شأنهم
شأن آخرين مع منهج اهدافهم بطبيعة الحال]. فالوسيلة المستعملة لتبليغ الرأي في البلدان الفاضية هي الساحة
والعلم وفي البلدان المتخلفة [والعياذ بالله] طلقة في الخفاء ونصل من قتل. ومن الضروري هنا أن نشهد لجماعة
القاعدة في الاحزاب الثورية بالذكاء فقد تعلموا من طول المراس أن يجعلوا القوة السياسية ما هو لائق بها من
الثروة والنعمة وبغد العيش. لكن غالب تجاريب الأحداث أن يبنى بنيان على غير أساس سليم فيموت البعض
وينجو البعض ويسقط مرتفع ويرتفع هابط أو يحدث ما لا يمكن التنبؤ به...

حتى يرينا هذا لا يرجد للنساء صوت في الحزبية وفي الثورية والليبرالية وتقسيم الأرض ونظام الضرائب
وكيفية تأسيس حكومة ... الخ وقد يكون من باب تطييب الخاطر للمرأة الكردية ان تذكر بطلات مرية الانتخاب
قبل بضع سنين ففيما عدا إلقاء الورقة في الكيس وظهور عدد النواب ما هذه وتلك وتخصيص الراتب
وما اليه للمحققين لم يكن لعملية الانتخاب أي قيمة على الاطلاق فانه وزارة الدفاع لم تكن تملك سكيناً
واحدة تقشر بها البصل على حين كانه (پيشمرگة) الحزبين المتنافسين مسلحة من قمة الرأس الى اخمص القدمين
وقد لفع هذا السلاح في أكثر من مرة بين الحزبين بحصول واخر من الجرح والقتلى وذهاب البيوت وتمزق
أواصر القربى والمعرفة والانتماء القومي وبقية الفضائل التي تفضل الآدمي من الضبع والذئب وحمار الوحش.
لا داعي للاستغراب اذ أقول أن تجربات التفاعل بين الاتحاد الوطني والديمقراطي الكردستاني كانت تجسد

تحت هذا العنوان هذه الكتابة وهو « مستشفى المجاذيب » وكان حيراً وفخراً للبناء وفاقدها القدرة عدم التفات أصحاب الثراء ومعرفتها الماسي الى الضعفاء ورأف شكر وحمد لله من اولئك الضعفاء على ضعفهم وفقرهم وفقدانهم التأثير في موازين القوى .

من دون ان اكون قد تتبعت كتابات أكابر الماديين وأوا سطهم عن حيثيات الاجتماع البشري وسبب الفساد الشائع في المجتمع البشري فقد لاحظت في الغالب الأغلب من آرائهم يعزونه السبب فيها الى فائض القيمة المتأتي من سوق البيع والشراء والاستخدام وما إلى ذلك . هذه النظرية في رأيي ، بل بحكم الواقع ، مردود جملة وتفصيلا : فمن يوم تكوين المجتمع البشري كان طلب الربح للوفاء بضرورات الحياة الأسرية ، بل حق الفردية ، هو لحمة (الحضارة) وسداها وسيدوم هذا الحافز الى يوم يصبح فيه طلب الربح غير ضروري بل قد يصبح مع التقدم الاجتماعي ثقلاً يرفضه البشر بعد قرون .. قرنين .. الف سنة ! صحيح ان مالك السلعة أو عارض « خدمة » أو عارف فن أو حتى صاحب الصوت الجميل يحاول أن يبيع « بضاعته » ما يمكن من ربح زائد عن كلفة الصناعة والذي كان عليه نوعاً من البلاهة بل ان المجتمع يختل اذا تبرع الباذوبه بالربح الذي يده وعلى إثره الاستمرار على البيع بلا ربح والغناء بلا أجر يتهرب الى افلاس المتبرعين وضرب بيوتهم فلا يعود يوجد في السوق شلغم أو راديو أو طباطم أو خيط الرديا ره .. بل تصبح الاسواق مغارات خاوية .. والمطعن نفسه يموت جوعاً أو يتشرد الى صيد الثعلب والأرنب أو جني أثمار البرية . الخلاصة ان نشوء الحضارة مدين بكل تفاصيلها الحلوة والمرة الى لولب (الربح) منذ البداية وليكن اسمه (فائض القيمة) أو (لعنة الفاجعة) أو (سموم الغدر والخيانة) أو (خديعة المستعمرين - كان الربح أقدم من الاستعمار ولكن لا ضرر في إلحاق صفة الاستعمار بسوق الشورجة منذ ألف وكتى سنة) . أنا مؤمن بقدرة العلم والتكنيك على خلق مجتمع في المستقبل يستغني عن فائض القيمة ويفضل المواطن داراً للحكومة على دار خاصة به ما دامت كلتاهما متقاربتين في الوفاء بحاجات الأسرة . وسيرفض الناس السيارات الخصوصية لان السيارات الحكومية تقوم بمثل الخدمة المنتظرة من السيارة الخاصة وبكلفة أقل وبلا كراج أو دهن سال أو بنزين تر ..

في موضوع فائض القيمة أعجمية أو لغز أو معمى لا يمكن حله واستكناهه مهما حاول الذهني اللوذعي الذي يفلق الذرة والبيت الأمثلة :

أ - أحمد قطف زهرات من انواع وألوان مختلفة ثم جمعها باقة في منتهى الجمال والزينة فباعها بعشرة دنانير .

- محمود قطف وجمع وشذب وحاول فجاءت الباقة اشد ما تكون إثارة للعرف فلم يشترها أحد بدرهم .

ب - بنت حلوة خفيفة الروح عجيبة التمثيل فتقاضت عشرة آلاف ضعف عن دورها في مرحية قصيرة .

- بنت حلوة خفيفة الروح لا تجيد التمثيل فصارت من الكمارس بأجر ٥٠ دينار .

- بنت ثالثة لا خفيفة الروح ولا تجيد ، فطردت .

ج - كيلو حديد تم تصنيعه من قبل (س) إلى مكواة وثمن الحديد دينار ، فباع المكواة بخمسة دينار .

- كيلو حديد حرث فلان صنعته مكواة وباعها كمكواة فرماها صاحبها في المزبلة .

د - أقام معمار داراً على حسب الرغبة وبمواصفات جيدة فبيعت بخمسين الف دينار .

- اقام معمار داراً بحيطان مائلة فلم يشترها أحد .

هـ - كتب يوسف رقعة بخط يبهج العين فأكرم بألف دينار .

- كتب يوحنا رقعة لا تبهج احداً فمزقها غيظاً .

و - عامل حضر في مواعيده وأنجزها تماماً في منتهى الدقة ؟

- عامل تأخر في مواعيده وتلكأ في العمل ... ؟

ز - سفينة ذرية فيها من كل ما يحير العقل بأتقانه ولو صرفت ستة وستين مع جماعة من المختصين لتعرف بأي سعر تباع كي يكون فائض قيمتها مجزياً لما انتهيت الى نتيجة ولو سألت عمال مصنع السفينة كم هو

فائض القيمة المسروقة من كل واحد من العمال لما أمكن احداً منهم أن يجيب. في السفينة مليونير يهودي مختلفة ما بين فنية جلخ السكين في فينيسيا وبين سلالم يقوم بصنعها عامل من أوطأ درجة .. وكيف تكافئ المهندسين؟ بماذا وبأي مدى ...؟

يا ترى ما العمل في تسعير العنب الذي يصل السوق قبل الأوان لفرط اهتمام البستاني بتربيته؟ وماذا يكون في تسعير العنب المعتاد المعروض في موسمه فالبستاني كادح ام هو أيضا مستغل مصاص للدم؟ بأي مقياس تقيس أجر خياط ماهر الى جانب خياط متوسط وخياط ادنى درجة وخياط سيرق من القماش؟

اننا نستطيع الاستطراد في عرض النماذج التي ليس لها تعداد في مدينة بنصف مليون ساكن؟ يا ترى كم هو الأجر الذي ليس فيه فائض قيمة والذي فيه فائض قيمة اذا كان العمل هو الحراسة بالليل وكيف يمكن تقدير أمانة هذا من أمانة الآخرين فلعلهم يكونون هم المستغلين رغم كونهم عمالا ..!!

يا للعجب العجاب !! مفكر يساري التزم جانب البروليتاريا في تفسيره لتاريخ البشرية وظن انه اكتشف العين الذي يصيب العامل المأجور فساء فائض القيمة وقد سمعت منه وهو سعة على اكتشافه فصار دينياً مادياً مثوباً بالتقديس عند اليسار وقلب موازين القوى وأسس دولة عمال وفلاحين سميت سوفيت فعاشت حوالي سبعين سنة وهي اشد ما تكون كرهاً للحريات [الديمقراطية البرجوازية] سبيلاً الى المستقبل !! إذا فتح اليساري الكردي عينيه وقرأ بلاغ التأريخ في اشتراكات النظام الشيوعي فسيجد أن ألزم ما يلزم لذلك بناءً تحتي متين وخلفية حضارية بعد قرون أو قرنين وشيخوخة البرجوازية وبعدها الاشتراكية لعجزها عن الاستجابة الى الواقع المتقدم الذي يطلب (المساواة) للجميع ويفرضه بقوانين البرلمان دون أدنى فوارق وفرعيات. فاذا رأى اليساري الكردي هذه الحقيقة المروعة لزمته الجذبة الصوفية وفارت في شرايينه وأوردته حمم الغضب كالبركان الثائر وقلب موازين اليمين واليسار حتى اختلطت وصارت كلها عصيّا وكرابيج يلهب بها ظهر البشر والبقر حتى يوم يُفرغ شحنته الملتهبة في رضيلته ثم يهدأ ويبرد ويصبح كتلة لحم وعظم وجلد متغضن لا روح فيه. انا نجد اليساري في اي بلد يحرم عليه شعاراته وهتافاته لديكاد يذوب الذبابة من أنفه فاذا وجد مناخاً كالذي يوجد اليوم في اربيل والسليمانية حشر مشوه !! وهم بضعة عشر أو مئة من مختلفات أيام العز يوم كان اليساري يسحل الناس في كركوك والموصل وهتافات (عاش زعيمي عبدالكريم، عاش الشيوعي بالحكم مطلب عظيم) تدوّي ليل نهار ولقد رأيت بأم عيني شاباً متوثباً خارجاً من جحيم الجهل والرعونة يخرج فجوة من عمره في امري المناسبات و يقول لزملائه: إني مستعد للا (سلخ - قصابخانة) الذي نقضي فيه على هؤلاء القوميين الكورة. وكان النزاع ثار بصدد لافتة القوميين تقول (خياطو كردستان يرحبون بقدومك) فأنزلوها ومرغوها بالتراب ولو بنى احدهم بيتاً شفة لاتسع الحرق على الراقع - وكانت كردستان تمثل أولئك المساكين الى حد الجنون فكأنه وطن الكرد دون أوطان الدنيا كلها يجزّئ وحدة الطبقة العاملة في العراق وايران وتركيا. اللهم اغفر لقوم إنهم لا يعلمون !!

ان مسألة (فائض القيمة) من المسائل التي تستغرق الكاتب المفكر الملحاح لأنها تمثل خلاصة النظرية فلها عمق بعمق مليارات البشر المؤمنين بها ولها سعة تستغرق زماناً ومكاناً وانساناً (بل حيواناً ايضا) بلا غاية أو نهاية. بل انها تشمل حتى البداية الاجتماعي البشري فانك اذا ألغيت (بقدرة قادر) حافز فائض القيمة لما أمكن ظهور حضارة البشر ومدنية البشر وصناعة البشر وعلوم البشر ونزول البشر على القمر بل لما أمكن ظهور لعبة الطاولى

- القفزة الثلاثية وحكايات جحا أو طبخ حاطب ليل وعارف إنسان قواعد اللغة أو العدّ الى مئة بل ما أظن أن العدد الذي نعرفه كان ممكنا ان يولد وذلك لسبب من أبسط ما خلق الله وهو أنه حافز الربح هو الذي جمع الناس للاسترزاق بل انني لا أرتوي من إشباع خطورة فائض القيمة ولعلي بشيء من مسامحة النفس ومن باب تقريب الموضوع الى معقولات القارئ اقول انك اذا أغنيت الماء من الوجود لا تبقى حاجة للقول بانه لحم السمك ونقيق الضفدع والبحار السبعة وامطار السماء وثلوج القطبين والآبار الارتوازية ودموع العيون وطراوة العنب ... الى نهاية ملايين الواوات تكون كلها عدماً. وأقرب الصورة أكثر فأشبّه فائض القيمة بالجاذبية التي أيضاً ليس لها وجود محسوس فلولا الجاذبية لطارت الارض حول الشمس ولما كان ميلاد محورها موضع مناقشة لان الجاذبية أرست قواعد الميل وعدم الميل وتعدد السيارات والنجوم والشهب بعضها عن بعض.. جرب بينك وبين نفسك أن تقدر للقمر موضعاً في هذه الدنيا فلا تستطيع.. وبقي ان اقول إن تمسك الماركسي بفائض القيمة الملعونة في تحليل التاريخ مثوب بضباب صوفي غيبي يفصله عن غيره من الحوافز والدوافع والنقائض وهي حالة غير مستغربة في البشر فانه احدهم يبيع بيته ومعه ايمانه من أجل الدخول في مسابقات الريس. حتى البهيمة المستأنسة بالبشر تفتقد أحوالها وتصرفات معينة ترتاح إليها.. لقد رأيت بام عيني - في احدى سنوات الطوارئ الماركسي بكويخي، شخصاً أمّيا يلف سيجارة ناتبغ (فيل انه مسروق من الأخبار) ويقول: فعلت بأم اي كردي يقول ان الكرد أمة. وكان بكلامه هذا يؤكد نظرية ستالين في شروط اشتراطها ليصبح شعب ما أمة، ومن تلك الشروط ان يكون له وطن خاص به. وكان الشيوعيون يعتبرون تجزئة كردستان الى ثلاثة اجزاء نافية من اعتبار الكرد أمة. وكان جوابي على هذا الكفر الصريح ان الكرد بهذه التجزئة يحق لهم ان يكونوا ثلاث دول فكل جزء من الاجزاء الثلاثة ارض متصلة ويسكنها شعب ليس بالأقلية في وطنه... لعنة التاريخ ولعنة الاله على المفترين والمختلقين والمروجين لضلالات يأنف منها إنسان يحترم أبناء الكرامة الانسانية.. لكن الغريب ان الماركسيين ما كانوا ينزعون صفة الأمة من الأمم الساكنين في أمانيا الشرقية فاولئك يعتبرون من سكان الجنة يشربون من كوثرها.

إن الضلال الملتف بأدمغة أنصاف البشر يسلك المؤمن والملحد والماركسي والدرويش والمفتون بتقليعة طلوة والمروّج لصيحة وافقت هواه يسلكهم في اي درب كانت إلا درب الصواب ويهديهم الى أية جهة كانت الا جهة الثورة وليس في ذلك شيطنة وإنما شأن الضلال أن يشير الى غير المكان المقصود. ولكن المؤسف الذي يضاف إلى الأسف السابق من ضلال هؤلاء انك تأسى من شياطين الأنس يلبسون لبوس أولئك ويقودونهم تقدم، ربما بزيادة حاسم الظاهري للملك المختار عند الضال فيحلب ضرعه ويمتطي ظهره ويسخره لارادته حتى اذا استوفى غايته من استغلاله تركه كقشرة الجوز.

ومن المفيد أن اقول هاهنا ان حالات كثيرة تشبه حالة فائض القيمة كأن يشتري بقال فاكهة من البستان فيبيعها بسعر اعلى من سعر الشراء فهو يضيف الى سعر الفاكهة مصاريف النقل ثم يضيف اليه ربحاً يعيش منه وقد يفوز بفاكهة ممتازة فيضاعف منها ربحه فمن هو مصاص دم؟ ام يكون مصاصاً اذا باع للعامل والفلاح فقط؟ وماذا يكون العامل اذا حمل للبقال دهناً وزيتاً وعدساً فأخذ منه مبلغاً أعلى من سعر التعامل؟ ام ان العامل من سلالة غير سلالة البرجوازيين؟ وماذا يكون البرجوازي اذا أفلس؟ ترى كيف يكون الحل اذا بعث رجل بأمانة الى مدينة اخرى حملها ساعي بريد سالماً للحفاظ على الامانة؟ لم يحمل سالماً..؟ هل ان اجرة في الحالتين شيء واحد أم هو أجران مختلفان وما نسبة الزيادة بينهما؟ شخص يدرس الصبيان في بيته يعلمهم الخط والقرآن بأجرة فيأتي شيركو مجلياً وابن عمه في نهاية القائمة. كيف يكون مقدار الأجر في كل حالة؟ فارسان يتسابقان ويتفقان على جائزة للسابق: هل يجوز التراضي على مقدار الجائزة ام ان الفائض مصاص دم والمرهون بمرتبة العامل المخصوص دمه فلن نعلم ان العامل يتراضى مع صاحب العمل لكن (فائض القيمة) يبقى ركناً من اركان الحجر المادي في ذمة البرجوازي؟

في الماركسية نفسها قيود وخطورة (الفائض..) وعلى نحو قاطع فانك تعلم أنه فيما سبق مرحلة التملك كان الماضي كله عبارة عما يسمى الشيوعية البدائية [وليس صحيحا أن تكون الشيوعية المذكورة عادلة فالقوي خليق أن يستولي على نصيب الضعيف أو يغتصب منه عنوة صادة] أي الحالة التي لا يوجد فيها فائض القيمة. وعلى هذا الاعتبار يصبح طلب الربح أول نقد أضاء الدرب الى التطور الاجتماعي فالصيد مثلاً عمل يقوم به البشر والذئب والثعلب.. إلخ فليس فيه ذكاء متميز ولكن اذا صاد إنسان قبل مرحلة فائض القيمة، فباع صيده بشيء آخر يحتاجه فقد أظهر بذلك ذكاءً هو نصف الطريق بين الصيد وبين فائض القيمة ويشترط في المبادلة الدالة على الذكاء أن تكون نتيجة إرادة حرة ومنفعة مقصودة لا ان تكون من باب الصدفة العمياء.

البهيمة تصرفات في حماية الذات وإدامة النسل وتوفير القوت: حيلٌ بسيطة تتوسل بها لكسب القوت كأن يتظاهر قطاً بالموت لصيد الفئران أو يحفر الوادي حفرة اذا سقط فيها حيوان ضعيف لا يستطيع الخروج منها أو يحمي القطا كتيته حين يقرب منها قطاً أو كلب فيتظاهر بالضعف والمرض حتى يطمع فيه ثم يعد الى الابتعاد المشوب بعلائم الضعف فيعدو خلفه فلا يلحقه ولا يقطع منه الأمل - كثيرة هي الحيل الساذجة، والدالة على الذكاء، يمارسها الحيوان ولكن ذلك لا يؤدي الى استنباط حيل أذكى. وانا لأثقل على نفسي بالاهتداء الى وسيلة يستغلها البشر في مجاهرة الشيوعية البدائية فلا انتهي الا الى مبدأ (الربح) و (فائض القيمة) الذي هو أيضا صورة من صور الربح. أقول هذا من باب زيادة الاستيضاء لقوة عامل الربح في التطور الحضاري فقد يبغي أصحابه بيتاً لنفسه وللبيعه فيكون فائض القيمة [اذا صح انه للمالك فائضاً] فقد يحدث أن تزيد الاسعار فيعرف باني البيت مبالغ أزيد من المتوقع مما يحمل كثيراً فينزل سعر الاشياء بما فيها البيت] كما قد لا يريد أحداً حتى يندثر البيت. وليس بالنادر أن تبور تجارات والتزامات وصنوف من المزروعات أو الأقمشة أو البضائع أو المكائن أو... أو.. فما كان أحد يلوم غيره بإلقاء التهمة على التاجرين. والواقع هو أن العمال لم يفكروا في فائض القيمة حتى حشا ماركس أذهانهم بهذا الدافع الى الحركة ضد البرجوازية. ولولا أن قيادة الحزب الشيوعي وجهت الثورة على نحو منضبط بما كان العامل الثائر يدرك الذي يطمح على مال الغير ولم تعرف واقع بلدنا المتخلف اية مبادرة مخترعة من العامل ومن غير العامل فقد كفى أن (المثقفين !!) ارتدوا الى اشباه أميين حين تهيأت الأوضاع السياسية لأشباع الرغبة وفرض الارادة.. يا للثورية التي ملكت القوة فقاومت كل عمود وحائط و مشروع وأجهزة قابلة للقلع و باعتراض بثت التراب.. هدموا أبنية متطورة فباعوا أنقاضها وشاركت الجماهير الجاهلة في الكويد يا غير الالهية فجاذفت بأرواحها وهي تندفع الى داخل عمارة طابقة للذهب وتمرق مع تخريفة المدفع تمرقاً على ادراك صيد ثمين وان يكن غنمه فقد ذراع أو جانب من الفكين... مشروعي أقيم على أحد الأنهر باكثر من مليار دينار فينبع بأقل من عشر قلايين...

قيل ان الثورة هي في مقام عملية الكيّ التي هي آخر الدواء. وهو كلام لطيف صاغه العقلاء، وأظنهم كانوا صادقين في نيّة الخير للناس ولا غرابة في ان تكون نياتهم للثورة على أقل ما يكون من العنف وكان الجمهور المتوثب الى (تغيير السلطة) ليس واعياً لمثل هذا الكلام وليس واعياً لمثل تعقل اولئك ومرونة تصرفهم واستطيع القول بيقين ان اولئك الغمار الذين يحبونه في الشوارع يفضلونه خبزاً معنوساً في الدم وكما كان متفحماً بالحرق.. جماهير بغداد في يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ عمدوا الى هدم مساكن العائلة المالكة ونوري السعيد وكان خيراً لهم أن يعفوا أنفسهم من هذا التعب ثم يقبوا اكثر في محل الجثث! وماذا كانت جناية اولئك؟ هل الذين اتوا بعدهم كانوا احسن منهم؟ وهل ارتاح العراق خلال اربعين عاماً تقريباً بعد ثورة؟

بعض المفكرين! والكتاب! يتغزلون في الثورة فأحدهم قال في شعره عن ثورة الكلام! والاغنياء!

وسنجعل من حماجمهم مناضد للسباكر

فوجبت من المناسب ان اضيف الى ذلك دوره الاعتناء بالوزن والقافية:

ومن أمعائهم خراطيم نرجيلة !!

وهذا ما يروق به مزاج الشاعر.

من باب ذكر الشيء بالشيء أعيد الى الاذهان اضراب عمال المنجم في ويلز ببريطانيا قبل بضع سنين وكان الاضراب قانونياً ومنعوا الحكومة من تشغيل المناجم ودامت الحال مدة غير قصيرة خسرت فيها الحكومة نحو أربعة ملايين جنيه - على ما اتذكر - ونال العمال حقوقهم كاملة.. انا واثق ان الثوري يتهم عمال ويلز باعتبارهم غير ثوريين لأن الثوري يريد قبل كل شيء قلب النظام و تثوير الناس وضرب المثل للشعب بالاقدام وما الى هذه العنتريات!

كثيرة هي الحواشي والتعليقات والمحاججات حول الثورة الفرنسية، ما بين مادح وقادح ومحايد يفتح الآفاق واسعة في الطبع بدرجات متفاوتة ويثيرها عامل أو عوامل يُعَدُّ شؤمه غالبية الناس. وقد تدخل فيها بالتأثير أو بالتثبيط مصالح ما بين متضررة أو مستفيدة من نجاح الثورة. وأقول ابتداءً إني أنجب الثورات المنبعثة من ناس جهلة وناس عاطفيين [شباب - طلبة ... الخ] وناس يجهلون البديل عن الظرف القائم وناس يُبيّتون نوايا وأهدافاً أنانية وناس مأجورين أو ذوي أحقاد... ولا أملك غير هذا الرأي فأنى وأنه كنت لا املك علم غدي ومصير الثورات والحروب والحركات العنيفة ولكني أجزم أن الثورات السابقة كلها أخفقت في تحقيق الهدف المعلن وغاية نجاح بعضها أن ناساً انحلوا مبادئ مغرية حتى اذا تقلبوا لهم القضاء على النظام الذي كان قائماً صار هؤلاء ملوكاً أو رؤساء او وكلاء بين أشد قسوة من ملك خُلع أو قُتل او استؤصل جذره. خذ لذلك مثلاً من الثورة البلشفية ومن ثورة ١٩ تموز [ثورة تموز و حركة جمال عبد الناصر انقلاباً عسكرياً لم تتمرأ شيئاً لا سيما ١٤ تموز فيما لها من فظاعة] فالبلشفية صارت عبارة عن تخييث كل الناس في امبراطورية ما كان روسيا القيصرية ثم انهارت وهي اليوم جائعة لا تقوى على دفع الرواتب بسرعة. فتصير روسيا لم يكن كان روسيا القيصرية ثم انهارت وهي اليوم جائعة لا تقوى على دفع الرواتب بسرعة. فتصير روسيا لم يكن ولا كان ممكناً أن يكون بمثل قوة لينين. أما تفاصيل مخرجه عنه ولا حرج.

بعد قيادة لينين وصحبه كان لي رأي سجلته في مواضيع الجزء الثاني من كتاب (مروّض وده ودروبه - الأنسنة وما حوله) قدرتها يومئذ بأكثر من تثميني الثورة الفرنسية من خلال مناقشتي لرأي بليخانوف في الثورتين وقد أيّدت مناهج الثورة الفرنسية واعتبرها مدرسة لذاتها وللذي تريده على حين لم يستطع مجاراة البلشفية - و سبق الآن أن ذكرت قولي بأني لم أكن أعلم مقدار البلشفية التي قدرها للأسلاف في الوصول الى صلح معهم مع أنه لم يكن بالمضطر الذي لا يملك خياراً وكان له معارضوه حتى من العمال كما يتراءى إليّ من هنا وهناك !!

عن الثورة الفرنسية أقول ان الحقائق الصارخة هي: (١) هياج عام (٢) فئات متعددة (٣) تنازع في الأهداف (٤) خلاف عارم بين الاحزاب المختلفة.. حققت إعدام الملك و تجريد الكرسوت من السلطة و الأتيان بنابوليون أكثر عجرفة و دلالاً و اعجاباً بنفسه من الملك الذي أعدم - اما حروب نابوليون فانها مهما يكن شأنها فلا تبلغ من الكراهة الانسانية وتحقيق العدالة و إنصاف الاقطاع أن يُدفع فيها ثمن هو خراب المدن و هلاك النفوس و تشريد الملايين... و ينتصب سؤال بفخامة التأريخ: اذا كان الشعب الفرنسي متبرماً من النظام الملكي فكيف انقلب على نفسه فجد لنابوليون الأمبراطور الفاتح المؤثر المحابي لأحفرته حتى انه بعد الرجوع من منفاه جرب لو فرنسا كلها مرة أخرى... ومن غريب الأمر أن تمتدح الثورة المذكورة باعتبارها منبراً للشعوب وحاضراً على رفض الخنوع ولكن فرنسا نفسها صارت واحدة من الدول المستعمرة، تأتي بعد بريطانيا في سعة مستعمراتها حتى ان امير الشعراء أحمد شوقي يُعنّف فرنسا في اذلالها لسورية اذ يقول:

وطُرت الشعوب على قناها
فكيف على قناها تُسترقّ

ثم جاءت الطامة في المذبحة المشهورة لحكومة العلويين في حماه وهي جزء من كيانها !!

كانت ثورة الشيوعيين في الصين في مبدأ أمرها أشبه في ظهرها وجانبها الانساني وإنكارها لنفسها في سبيل الأمة الصينية أشبه بحفلة تبتل وتقدس وتجرد من مغريات الحياة وبقيت كذلك سنتين أو أكثر قليلا بعد وصولها الى الحكم ثم بدأت الخزعبلات وتفرق الكلمة ونشوء أجنحة وآراء مختلفة بعضها تتهم بعضاً حتى ان ماو وجد في رئيس الجمهورية، رفيق كفاحه منذ ثلاثين سنة، الخائن الأكبر وعميل المستعمر... ثم تم تتويج صفحة الكرنفال بنجمة الساحة الحمراء ببكين.. تقرأ في كتاب The State of the World عن وسائط المواصلات في الدنيا فتجد نصيب الفرد الأمريكي كما يلي: في سنة ١٩٧٠ لكل شخصين سيارة: سنة ١٩٨٠ لكل ١,٩ شخص. سنة ١٩٨٦ لكل ١,٨ شخص سيارة. على حين تجد نصيب الصيني في سنة ١٩٨٦ سيارة واحدة لكل ٢٧٤ (١) شخص وكتاب لمجموعة من متخصصي الدنيا كلٌ في مجال عمله يتقدم اسمان: أولهما Alan Dunning. ولا أعرف أياً من اولئك الاثنين خلال هذا الكلام المطروح هنا.

تحت حكم الشيوعيين

كانت الصين تحكم من قبل الحزب الشيوعي منذ ما بعد الحرب الثانية اي انها كانت في سنة ١٩٧٠ منذ اكثر من ٢٠ سنة فلولا التزمت العقائدي المانع من انطلاق الطاقات الخلاقة للاصحاب القابليات لكانت النتائج تبشر على نحو آخر... ما ليت أنها تعاملت منذ البداية كما تتعامل مع هونغكونغ في هذه الايام بلا تزمت أو تقشف أو اغلاق الاعذار.

الخلاصة ان الركات العنيفة ليست من قبيل في الربيع والتفرج على (شاهد ما شافش حاجة) ترسم بسمات على امتداد الشرقين وانظر ولك على نطاق العالم تجد العنف الثوري والعرقي يعصف بمواطن العنف وبالجوار على اطرافها وتنشغل الدنيا بأنباءها فلا تجد في واحد منها أو في كلها الدماء يصب في جيوب صانعي الأسلحة من الربح الفاحش لشدة حاجة المحاربين الى وسائل القتل وحماية الذات.. الظاهر أن استواء الاحوال المريحة وتوافر هو في مقام من الصعوبة يشبه محاولة رسم دائرة بلا فرجال أو خط مستقيم منه في المنتهة بلا مسطرة.. وفي الطريق واقد فوق يرضى في المعمعان هو المجاهد الذي [كلما دخلت أمة لعنت أختها] الذي يعتقد انه مختلف من رب العالمين يقطع دابر الكفرة ومن دين الديعتبر نفسه هو الحق من رب العالمين أو من انتخاب الحق والعدل: اللهم ادفع الظالمين بالظالمين..!

لا أجد ثورة تستكمل نصاب الوجوب الذي في صورة واحدة هي: الكفاح القومي للخلاص من سيطرة العدو الغاصب. والسيطرة في واقع التطبيق هي مصادرة (الوجود) للعنصر المضطهد فالفاتح المتحكم في أرض غيره لا يرضى بأقل من تمطيعه مرة واحدة أو على مراحل وقد يرضى بتبديل جلده للدخول في جلد العنصر القوي.. هذه عقيدتي الثابتة و البرهنة بالأدلة والوقائع وأغلب ما يذاع ويشاع من الكلام المصول والمدعنع للعواطف يصبح في طاحونة الواقع جراً منقوراً للهرس لأسباب تنبع في الأصل من اقتضاء الطبع واستواء الشهوة وقد يحدث من جانب الشعب المضطهد من تململ يقره المتحكم كفرا بالنعمة.. أقول هذا ولا أنسى التذكير بأن الرد على الغاصب الطاغي بلا أمل قوي في النجاح هو نوع انتحار على يد شخص آخر بل هو في بعض الأحوال ساخة يترقبها الغاصب لتصم ظهر المضطهد فقد يحدث ان السجان يغض الطرف عن سد المنافذ على الهروب بغية اصطياد سجين يستغل الفرصة فيحاول النجاة فيكون فيها موته ويرتاح السجان... ولو أتيح لك أجمعتك إلى ارض بعرب أو ترك أو فارس أو هندي أو افغاني ادعن أية امة كانت صار كردياً بالمعاشرة ولا أطلب لهم الموت عن طريق مكابرتهم على واقع لا يستطيعون تغييره فمن واجبي، وليس من منطلق الترحيب أفضل انقلاب كردي إلى غير أردوغته تفادياً لموته بلا ثمن معقول. ان ناساً لا يحصى عددهم من الأردوغات المختلفة انقلبوا الى جنسية اخرى فماذا حدث لهم في وجه القمر فهل اذا صار اهم شوق ادا الشيخ محمد رفعت أو آل تيمور مصريين بالمعاشرة كسدت تجارة الكردي واختفت تحته عرش مفقود؟ فنحن نعلم يقيناً ان اصفاد صلاح الدين واصفاد وزارته وقواده وجنود جيشه صاروا مع الزمن، أو صار جلهم، عرباً وقد يكونون اصبحوا تركاً فذلك أسلم الف مرة وأجدى الف مرة من هلاكهم تحت أعلى ضياع هويتهم على الزمن.

---

(١) كما ان نصيب الصيني سنة ١٩٧٠ سيارة لكل ٧٠٠,٧ شخص. سنة ١٩٨٠ سيارة لكل ١٨,٦٧٢ شخص

انك أيها القارئ قد تكون في شبابك منتفض العروق بالحماس فصرت تطرفاً ثم هدأت شورتك فملت الى الرصانة مع الواقع ثم رضيت بما فيه العصمة فكونت بيتاً وأنجبت اطفالاً قد كبروا وصار حفيدك قرة أعين أفهل تلعن سيرة حياتك ؟ ندر بين البشر ان يحكم على نفسه بمثل ما يحكم على غيره وكثيراً ما يقتنع بأعذاره في الخروج عن القاعدات.

من خمس وعشرين سنة قلت لجماعة من الأصدقاء وبينهم المرحوم الشاعر حين: انني أحب الكرد حتى يصل الى حافة الخيانة - وأقبله اذا بطل الخيانة ثم خرج مرة بقلب نظيف لأني لا أتطوع لأعداء الكرد بتقديم خائن لهم فهم يزيدونه واحداً وأنا افقد واحداً اذا رفضت توبته. والفرق واضح بين أن يكتري عدوي خادماً من الناس وبين أن يسرق مني ما ضلد فاذا قفز الرقم الى عشرة يكون الفرق بيننا عشرين؛ والملحوظ في دنيا العالم الثالث الموشك على الفناء جهلاً ومرضاً وفقراً وتخلفاً أن يسلّي نفسه بحكايات العجائز وبهلوانيات أنصاف البشر. فالظرف مجموعه عبارة عن مستشفى للمجاذيب بلا مبالغة بل ان عبقرياً في فبركة المشاهد المرحية يعجز العجز كله في ترتيب دنيا بمثل هذه الغرابة في كثير من أوطانها وبرها وبحرها وان الناظر الذي لم يألف مثل هذه الغرابة ما كان يخطر على بال وجود شيء مماثل في عالم الواقع. فأننا اذا كنا نحب عسكيات الصوفية في العشرينات والثلاثينات وكلها عقم وتخلف وشذوذ فانه الذي يفعله المتاضلون الثوريون ما بين يساري ودين وقومي في عموم العالم الثالث يعتبر شهادة تزكية للاولئك الصوفية الأميين فالصوفية تعتنك وتأخذها الرحمة وتصدق الخرافات ولكنها لا تقتل دون سبب ولا تفجر غراماً بالبطولة ولا تخرب بيوت غيرها هوىً وفساداً ثم انها خليقة أن تكون قاتمة بالفشال السياسي بلا تفلسف ولا تقدر أن تكون سخيفة كسخف طائد سياسي فهي تعلم ان الكذب والدجل والتأييل والخديعة أمور محللة بكراهة الكراهة وقد يطول الزمن حتى تضرع عن يتمرغ على التمسك بالقيم المعتادة نزولاً عند اقتضاء واقع مكتنف بالحيلة ومربلج بالأغشية ومقلوب على ظهره. واضح من واقع الحال ان الحركات السياسية في مثل شعوب العالم الثالث تكون بالضرورة وعلى سبيل الحتم مستوردة من بلد أو جهة أو مذهب بلغت مرحلة النشاط السياسي لوضوح التخلف المهيمن على العالم المذكور وخلو افكار العامة من تصور الانشغال بعمل ليس من طبيعة توفير الملبس والمسكن والمأكل. أذكر في سن العشرين أن السياسة لم تكن ولدت بعصاها القاموسي في بلدي فلم تكن أغير بضع سنين على تردد الطلبة أناشيد وطنية كردية ثم مضت بضع سنين أخرى فذهب بعض الطلبة الى بغداد ورجعوا معلمين يدرسون الطلاب بروح حزبية [لا أريد ذكر والدي في هذا المجال واشعاره في الكردية وخطبه - الخ دفعاً للحساسية] ولا داعي لتضخيم دور الطلبة في كوسيفو أو أرسيل في مجال تنبيه شعب بأسره فلقد كانت مدارس السليمانية بؤرة الفكرة القومية لاسباب معروفة هي حكم البابانيين ثلثمائة سنين وحاكمية الشيخ محمود بعد الحرب الاولى بالاضافة الى كونها مركز لواء تتصل بالأطراف ويدورها المسؤولون حتى ان مذبحة ٦ أيلول كانت حلبة احدى هذه المناسبات.. وأحلى التأريخ حكمه فأصبح جل الشباب بعد الحرب الثانية مؤمنين بالماركسية ونسوا الماضي القريب...

لا يستغرب القارئ ورود أحوال وأمور في هذه الكتابة تخص وتتصل بالكرد ومناطق وجوده فالذي الوقعه ان يكون انتشارها محدوداً بالكرد وبعرب في العراق، وربما سورية أيضاً على حد، فلا سوق لها على نطاق الشرق الأوسط ودنيا العرب. والموضوع نفسه ليس فيه خميرة تشويق بل هو بحد ذاته عبء على الكاتب لصعوبة مضمونه وكثرة مسايله ووسعة ساحته فهو يشمل البشرية كلها على أن وجه قلبتها ولأي عمق نبشتها ومن أية زاوية عرضتها فلو كان في الأقسام الأصلية بمفردات مواضيع (المستشفى ..!) لاستحال الانتهاء منها في عمر واحد بطريقة التكفل بمحتوياتها شرحاً وتحليلات وافية تغني اقتناع القارئ المنصف الواعي. ترى كيف يكون التصدي لاحوال الاسكيمو وسكان استراليا الأصليين والهنود الحمر في الأمريكتين والعالقة الساكنين في كهوف بنغابة امريكا الجنوبية والهوتنتوت والبگميين في اواسط افريقيا قبل كشفها وبث الحضارة فيها: أين هؤلاء الشذوذ من مراحل التخلف في منظور هذه الكتابة؟ انهم لم يكونوا بها وزين لطور الشيوعية البدائية عندما اكتشفت

مراحل وجودهم ومدى تطورهم [الأزتيك والمايان والأنكا كانوا مجاورين البدائية]. مما ينسجم مع منطقة استقراء التاريخ في هذا الركن المحدود زماناً ومكاناً في أمريكا الوسطى ان الفاتح الأسباني أسر ملك الهنود الحمر [إما من المايا أو من الأزتيك] واشترط عليه لفكّ أسره أن يملأ غرفة حبسه الى ارتفاع معين بالذهب والمجوهرات حتى اذا سلّمه المقدار المشروط بادر الفاتح الاسباني الى إعدامه.

من الغرابة بمكان ان الهنود الحمر في ما هو اليوم U.S.A. لم يبنوا مدناً ولم يؤسسوا حكومة مع ان جو هذه المنطقة اكثر اعتدالاً وأرضها كثيرة الخصوبة ومياهها فوق الكفاية ثم أنهم لم يستطيعوا التعايش مع الاوروبي فلم يحصل اختلاط بين الأوروبيين على حين تزاوج الأوروبي والهندي الأحمر في كل الساحة بين U.S.A. وبين نهاية أمريكا الجنوبية فنشأ العنصر المسمى M e s t i z o من تلاقح الجنسين، والظاهر هو انه الطابع الحضاري للأولئك الهنود الحمر (بالرغم من تعايشهم) بشأن السبب في حكوماتهم ومدنهم. كزكو عاصمة الأنكا قدر سكانها مابين مئة الف ونصف مليون بل قيل عدد يتوسط مئة الف.. اكتشاف مدينتهم تحتلاه اسم كوجابامبا البرهما كانت في السبعينات تزوى اكثر من مئتي الف ساكن [B R I T A N I C A A T L A S]. ويعلق بذلهن من حيثيات اولئك الناس ان الأزتيك كانت لهم كتابة من حوالى عشرة حروف. ان نظرة مُعْتَنية الى الأسباب والمتابع في حيثيات البشر تجد ان البدائيين في مرحلة ما قبل (القرية - المدينة) متشابهون في تعاملهم مع الطبيعة من حيث كونهم مدفوعين الى التصرف الذي يحقق الشبع والسلامة ودوام النسل فلا يكادون يمتازون عن القرود العليا الا في الشكل وفي النطق [وفي القابلية الكامنة للتحول الى مخلوق اجتماعي] حتى ان ميلهم للاصطياد قريبة جداً من حيل الغوريلا: باستثناء الاشكال والهياكل المكشوفة في كهوف بفرنسا وتوليد النار بالاحتكاك كانت حياة البداية البشرية قريبة من حياة الحيوانات المتطورة نسبياً، فلما اتسع نطاق فهمها وادراكها المتميز عن ادراك الغريزة أصبح تتعمق في دلالات الأشياء فتفطن الى الزراعة وحيل الصيد واختراع وسائل للدفاع والهجوم بل صار يتوالى اسماء بشرع وقمرها وكوكبها وأطوارها وبروجها ... الخ فنشأت لديه فكرة (القدسية) المرتبطة بعالم علوي متميز عن العالم السفلي المطلع والمبتذل في متناول اليد وفي طوع البهيمية. كانت فكرة القدسية هذه باباً للطقوس واتخاذ الطوطم والوشم والصبغ ... الخ رموزاً محترمة لترضية القوى الخفية الخارقة فنشأت الديانات.

هاهنا في صدد الديانات نرجو ملحوظة هامة جداً وهي أن الخصومة التي تنشأ بين دين ودين تكون أشد من خصومة على جلد ثعلب أو بعض الثمار لأنه اختلاف وجهة النظر في منحى (القدسية) الى رمز تقدسه عشيرة (A) وشجب منحى الى رمز تقدسه عشيرة مجاورة أكثر تجريداً من تخيف بعض عاداتها ومعتقداتها المألوفة لديه (القدسية) دون جميع الاعتبارات هي الأولى وهي المفخرة وهي مناط الكرامة للتباعها. ولك أن تلاحظ ما يفعله تأصل فكرة دينية في مشاعر الناس وهذ (الحزبية) شاهد على ذلك. فلما كانت (الديمقراطية) في الأمم المتقدمة جاوزت حد الطفولية اليمينية واليسارية فالحزبية تمارس بناء على ما يعتقد الحزبيون على أن القائد الفلاني أصلح وبحب أقدره صلاح أمرهم في قائد آخر والفاضي يختار المنهج الذي يفيد مصلحة عماله وهكذا.. على حين يكون المنتمى الى مذهب قومي أو طبقي أو ديمقراطي [جاءت الديمقراطية من باب التعداد فهي ديمقراطية في هذا المعنى] أو ديني في العالم الثالث المتخلف هو القاضي على المصلحة والبعبع المروّع للطفل والشيخ والخانق لنأمة الاعتراض والفعال لما يريد كأنه وكيل رب العالمين. ثم تنشأ احزاب متعددة من القوميين والشيوعيين والدينيين فتثور الفتن والحروب والمصائب باسم (الجماهير المتعرقة في سابع (استسلام) وتحت شعارات من ريش الطاووس مغروس في سبيل الجنة..

ارى مما لا يقبل المحاجة أن الحزب الديني لكونه مرتبطاً بقدس الأقداس ومجاهداً في إعلاء كلمة رب العالمين وخلق البدع والأفكار بعيد حتى الى الطهر المطلق والعدل المطلق والحق المطلق امتثالاً لأمر قاطع لا ريب فيه، أرى أنه أشد تمكناً بالمنهج الرباني والحكم الصمداني في كف القاذورات الدنيوية وإزالة الكفر الالحاد والشك من حرص القوى والطبقي على تصفية شوائب الكدر والتردد في تحقيق الهدف المختار.. اذا كان المؤمن بالأسلام أو بالمسيحية يخشى الهول

والعقول منذ نشوئها في سبيل اعلائها وتثبيتها في الارواح واذا كان المسيحي يحارب مئتي سنة لانقاذ القدس ويدافع المسلم مئتي سنة للحفاظ على القدس وكلاهما يتكلف الحج من ديار بعيدة عبر مصاعب ومخاطر كثيرا ما أفنت قوافل للحجيج دون اي أمل دنيوي أو ربح من تجارة فانهما بحكم البديهة أشد حرصاً على نصرة دينهما من حدبة دنيوي قد يعيد الانتقال الى مذهب آخر أو يستقيل.. الدين يحوي الدنيا (الغائية) ويحوي الحياة الابدية وبأمر من رب العالمين فهو في نظر المؤمن به الحق والواجب والمبدأ والمصير... اننا نعلم بالبداهة ان الآراء المختلفة في أمر واحد بالذات قد تكون كلها خاطئة ويجوز ان رأياً واحداً يكون صحيحاً لكن كل الاديان تدعي الصحة لنفسها دون غيرها.. ان الدراسة العلمية تقبل التعديل والتصحيح لأنها أمور تجريبية وبرهانية ليست فيها حساسية العقيدة الدينية ولذلك الرأي المعتبر صحيحاً حين يظهر بطلانه...

من المفيد بيانا مايلي: الأنسان يألف الأشياء بعاداته ومعتقداته وعقائده على علاتها ويحترمها هذه الأشياء وغيرها فهو على قدر ما يتذكر المكروهات والمزعجات فينزعج من أشباهها يتجه الى تآلف وانسجام الموجودات المحبوبات المرغوبات اللواتي قد يكن غير متوافقات ولكن رغبته فيهن تكون سبباً في اهمال تنافرهن بينها كأن يؤدي الصلوات في أوقاتها ثم يقامر الربيس أو يغازل أو يلقي كلاماً عابراً يشير به عداوة فيترتب عواقبها.. اقول من باب المثال إن حاجاً كنت أعرفه وأستلطفه فيكثر في الحج وكان في كل حجة يشتري عمارة بثمن زهيد ويبيعه اثناء الطريق بثمن زائد ويكرر المعاملة في الرواح والرجوع فيكون أغنى رتبة وأتخم جيوباً لدى رجوعه... منهم متمسكون بالنصوص فلا يأكل الربا ولكنه يرتهن بيتاً محتاج بعشرة دينار ثم يأخذ منه أجرة البيت بأكثر من الفائدة المحدد في البنوك فالرهن والارتهان مشروع شرعاً وقانوناً وهذا يرتاح ضميره. ولكن واثقين من ان الشخص الذي يتعاش الربا ليس مرتاحاً فانه ناسٍ آثمين مسلمين يأكلون الربا ويفضلون (ربا النسيئة) وهي ربح أصل المبلغ وربح مقدار الربا الذي يعجز المدين أن يدفعه في أوانه وقد جاء في الشريعة: انما الربا في النسيئة ولكن كثرة الفتاوى على المذاهب المختلفة تفتح ابواب التحليل فتستسيغه الأمزجة وحب البطنة والوطرة.

حين نتعرض مثل هذه الأمور ينبغي ان نذكر دائماً اننا ندرس احوال البشر وليس الملائكة، وندرس وهم من ألف دين ومذهب وألف طبع وجبلة وألف ألف عوامل وعوامل وتقاليد وجهل وخوف وطمع وشهوة لما يؤكل ويُرى ويُلمس ويُشم ويُلبس ويتكلمون بألوف الألسنة ولكل لسان عوائده وقواعده وصيغ الكلام وآداب في المعاشرة وطرق في الأكل والشرب، حلال وحرام، وسرائر في الشيمة والخسة.. الخ من أصناف الفروق والحواجز بين قوم وقوم وعشيرة وعشيرة وبين افراد القوم الواحد والعشيرة الواحدة. ثم طرأت السياسة وانتشرت حتى نشأت أحزاب في مجتمعات لا تعرف من معنويات الحزبية الا الانتماء الى جهة تخاصم جهة اخرى ولا تعرف من فنون البناء والاكتشاف والاختراع إلا الكلام الذي تردده كالببغاء تقليداً لرائدها وقائدها وأغلب ذلك الكلام يتردد في الاشداق بالتهجم على جهة ثانية فاذا لم تجد خصماً تعاند ان تمن على نفسها وصارت طرفاً في نزاع يخدر في المستقبل. فأنت تجد حولك وعلى بعد منك وبحكم من زعيم الواقع:

١- ناساً في حواشي العالم المتمدن: هنود مثل الاسكيمو وغيرهم ما زالوا يعيشون على الفطرة وتأثيرهم هذا في العالم المتطور هي بمثابة خط التلطيف في ربط نهايتي الخط بعضهما ببعض. والحق انني لم أطلع على ما فيه الكفاية على الأقوام المماثلة للأسكيمو في انقطاعهم عن البشر المتطور حضارياً.

٢- جماعات هي الغالبية في كثير من أطراف الدنيا عاكفون على العقائد الغيبية الموروثة والمشوبة بأشكال من القناعات القديمة، بعضهم يخالف بعضاً الى حد التكفير والمروق.

٣- تعدد الزوجات والازواج وصحة المحارم على ناس وحظرها على ناس في بين ثانٍ وثالث. الزوجة المصرية لحد هذا اليوم تخاطب زوجها: يا هوى اكذا وكذا.. وهذا مستورث من العهد الفرعوني.

يستمر الشعور القبض والمفاجأة ذلك للأسباب :

أ- أطراف النزاع ناس في غالبيتهم مشدودون الى عقائد تتزعمها تجد الرجولة والبطولة على طرف السلام و على طرف الاسلام والبراغي فهم غير ملتفتين الى حقائق الوجود ما داموا مستريحين الى عالم مبرهن بالأدلة وملتئم مع ظاهر احاسن الانسان بالاشياء في نظرهم فالقول، مثلاً، بان الولي الفلاني اكتشف ارض السمة بوسعة سبع أرضين فيه شفاء لقلوبهم العطشة إلى ما يكشف صنع الاشياء الدنيوية الحقيرة من طهارة وتلفزيون وريادة الفضاء.

ب- كما في أصحاب الانجذاب الى الخوارق والكرامات كذلك في اصحاب المنطق المادي يوجد عندهم نزع تجريف في العقيدة السياسية يفوق ما ينتظره العقل عادة فالمؤمن بالخوارق يطمع في نعيم أبدي بعد الموت على حين لا يعترف الانسان المؤمن بالتحديدات المادية للاجتماع البشري لا يعترف الا بالحياة المحدودة التي يحياها ويعتبر الايمان بالله والبعثة أكاذيب ملفقة لتقييد عامة البطاء الى الانعام لأمر المحتالين. والحقيقة العارضة هي أن هؤلاء الماديين المتطرفين أشد ضراوة في الخصومة من المؤمنين بالقضاء والقدر ولنتذكر ماذا فعل ستالين بعشرات ألوف الكبود البولونيين فدفنهم أحياء، وماذا فعل هتلر باليهود. وماذا فعل مصطفى كمال بالأكراد وماذا فعل موسوليني بالليبيين وبالاحباش...؟ وماذا فعل جنكيزخان وتيمور الأعرج وماذا سيفعل غيرهم بغيرهم الى ان يقضي الله أمراً كان مفعولا!! ان المسلم يكف لسانه عن المسيحي لايمانه بنبوة عيسى وكونه (كلمة القاها ربها الى مريم) ويقدر المسيحي ايمان المسلم بعيسى روح الله ولكن الحزبي الشرقي في العالم الثالث بعد العشرين لا يستعمل الكلام والمنطق مع غريمه في الساحة المشتركة بينهما ولكنه يختصر الطريق، اذا استطاع، بإزالته من الوجود فالموتى لا يتكلمون ولا يحملون سلاحاً ولا يكونون اشواكاً في عين الأحياء ولا اعواناً للأعداء. ثم.. ثم.. وعشرين ثم تحالف المؤامرات لاسقاط هذا واقامة ذلك فالحزبية المضطلعة بالكفاح السياسي الثوري لا تؤمن بغير العنف وسيلة الى قهر الأعداء وكم نفس الاصرار الطاغيين في الدولوية والقيادة والريادة. خطرت لي نكتة وجدتها في مجلة مصرية تقول ان سيدة سألت صديقتها عما تقوله صديقة ثالثة عنها فأجابت: انها تقول عنك شلحا تقولين عنها. فاحمرت و اصفرت وانفجرت تقول: هذه العاهرة القاهرة..؟..؟ ولندخل في الحساب ان الأحزاب الثورية في البلدان المتخلفة ليست لها مقومات الحزبية فان قوام الحزبية الحقة هو احترام الرأي العام فيحدث: ١- التصويت العام بلا ضريبة. ٢- نيابة نظيفة بكسب الكثرية الفاضين. ٣- حكومة تنشأ وتقوم بوجود الكثرية برلمانية تؤيدها، حتى اذا خابت الآمال لأي سبب جرت انتخابات جديدة بأمل وضوح أقوى في تفضيل الفاضين للشعار الأكثر جذباً. ولا داعي للخوض في مجالس نيابية بمجلس أو مجلسين وبحق رئيس الدولة أو عدم وجود حق له في حل المجلس النيابي المنتخب جديداً فلسفا بصدد خارطة لانواع الممارسة الديمقراطية لدول تتبع الديمقراطية في عالمنا الثالث بصورة عامة وفي عرف الثوريين المدعين (ظاهراً) للديمقراطية فالبرلمان تنتخب، الاحيانا ندرة، بهيمنة مضمونة التفاصيل للسلطة القائمة. أما النظام الثوري فهو قادر على ذبح ما شاء من النواب في مناسبة عيد الأضحى أو غيره نجل زعيم الحزب.

٤- حصل بعد تنظيم الزواج عن طريق العقد بين الزوجين في المحكمة [الشرعية سابقاً] أن أصبح الزواج خارج المحكمة غير قانوني ولا يحدث أثراً ولا يسجل فيه زواج بين الزوجين. وكانت الأكثرية توجب من مباشرة حاكم يلبس ارديه غير اسلامية ولا يرتبط بمواعيد الصلاة ان يعقد قرانه الزوجين فكانت مضطرة ان تخضع لحكم القانون الذي لا يلتفت الى زواج في غير المحكمة، فاهتدت الى علاج في الذهاب الى رجل دين يقوم بمراسيم التزويج حسب الشريعة وقد دامت هذه الحالة مدة مديدة ولكنها صارت غير ضرورية فالـ (الهداية والعصرنة) تغلبت في هذه المسألة لاسيما بسبب التسهيل المغني عن تكرار العقد عند الملا وتقديم الـ (خاطرانة) اليه.

٤ - الاسترقاق من حيث جوازه وعدم جوازه خليق ان يثير الفتنة لسببين: الاول هو قدسية الحل والحرية في العقيدة الاسترقاق. والثاني هو ان تملك بتجارة كانت شائعة ورائجة وشرعية.

٥ - نسبة القدسية الى ظواهر فلكية يتوهم أو يتبادر منها ناس وناس وكثيرا ما صارت سببا لمآسي موسفة.

٦ - بلغت الغفلة بالناس نتيجة التعود أن يرفضوا سك الدفاتر ما لم يكن بلغة معينة. اول برقية وردت من بغداد الى كويشق باللغة الكردية في أوائل العشرينات حيرت اهل السوق وكتبتها حتى قرأها طالب في الابتدائية دون ان يعرف أنه حل مشكلة متعصبة.. أذكر انه لما حل الدينار محل الروبية وانهاروا وارباعها من نقود الهند وكنت صبيا فحسبت بأخذ الدرهم لقاء ما يساويه من نقد الهند استغرب اصحاب المحلة على غرابة ما كنت بصدده و أكدوا ان الدرهم لا يدوم في التداول أسبوعا واحدا مع ان الروبية عملة غير اسلامية والدرهم اسلامي. فها هنا الاعتياد والألفة مع الروبية رجحتها على الدرهم الاسلامي.

٧ - أكاد أجزم من ذكريات الطفولة بعد الخمسين سنة ان استعمال القاشوغ في الأكل يثير استغراب الناس فما وجدنا ولا وجدوا قبل ورود الانجليز في ١٩١٨م اي انسان كردي يلتقم التمن والدراهم بقاشوغ. ولكن لما كان تناول العدس والشوربة والماش وبقية الأطعمة السائلة لا يحتمل بالاصابع والكفوف فقد وجدوا في القاشوغ آلة لا غنى عنها الا اذا أُدرس الخبز في السوائل بكمية تمتص ما دونها فلا يتطاير من اللقمة على الثياب أو الأفرشة.

٨ - اغلب الاساطير المتداولة في الحكايات الخرافية كانت موضع احترام. ذلك لأنه مقدار المنطق العلماني في أدمغة الأجيال السابقة كان من السطحية والخواء والعبث بحيث انه لم يكن يحتمل مناقشة دوران الأرض حول الشمس. فتجد الحكاية تقول ان بطل الأحدوثة كان بسبيل أن هام يُخبز في الليل فوجد في الفلاة عجوزاً يلف من كرة سوداء ولم يبق منها الا شيء قليل فسأل العجوز عن أمر الكرة السوداء فقال انها بقية الليل فعما قليل يظهر الفجر ويضيء. فأمسك بالعجوز وشد وثاقه حتى ذهب و أخبز المرة وقد طال ليل هذه الحكاية حتى ان المؤذن أذن لصلاة الصبح بضع مرات.. في اول الاربعينات أو أواخرها الثلاثينات، تلوت لجماعة من أهل قرية پيبازوك حكاية (بالروفيا) من مضامين ألف ليلة.. فلما تمت روايتها، وهي اكثر حكايات الدنيا سخفاً وتهافتاً وسقوطاً، قال مختار القرية: والله ان هذه الحكاية لهي الصحة بعينها ولا صحة لغيرها.. تسمع في هذه الحكاية أن جزيرة واق الواق فيها شجر يبدأ في نفض اوراقه مع شروق الشمس ويقول مع سقوط كل ورقة: واق واق سبحانه الملك الخلاق ولا ندري عما يقول ذلك بالعربية والجزيرة بعيدة. قصيدة!! بيني وبينكم، كانت ليلتنا عامذ من الليالي المؤنسة حقا بما فوق السماء حتى نهاية السهرة وذكرات من جوزلوز وزبيب وتين مجفف.. وتبغ بالك. وكنت وقتئذ أدخن بأسراف.!

٩ - من الأمور المستغربة بعد ورود الانجليز و تأسيس حكم جديد بداية إقدام الناس على استعمال الزي الاوروبي وذلك في طبقة الموظفين أولاً.. وبعد لأي أقدم ناس من غير الموظفين على ارتداء الزي الحكومي. وكان في الأبتداء ينسب الى الكفر.

١٠ - كان فتح مدارس البنات يعتبر بدعة غير مشروعة وباباً للفساد الخلقي والأفساد العقائدي فقد كان أن تُنشد البنت في المدرسة بصوت مسموع كي يعتبر مُعرّة. والحق ان الناس من عمر الزواج لكن يرقبون هذه الزعبلات فما بثت الحال أن هدأت لا سيما بعد توظيف أعداد من الفتيات الخريجات - لقد كان زهق الحضارة الأوروبية باختراعاتها المذهلة من مثل الطيارة في السماء والسيارة على الارض والكهرباء في الليل المظلم. اعداد من الرجال المتعلمين كانوا على وشك تكفير الدارسين للفلكيات الكوپرنيكية القائلة بثبات الشمس ودوران الأرض. لقد ناقشني رجال دين في هذه المسألة بأدلة ساذجة من مثل قولهم: ان الطائر انما طار والأرض متحركة بسرعة فكيف يسبط فوق عشه والمفروض انه ابتعد مئات وألوف الكيلومترات؟ وما كانوا يقيمون وزنا للجاذبية فيعتبرونها من حيل الكفار لنشر الكاذيم.. وهكذا يستمر الشد والجذب والأرخاء الى يومنا هذا والى غير غير قريب

(١) اثناء مواليد ١٩١٩م.

فالاكتفاء بالمحكمة فيه الحسنيان: (١) هدية الى الملك (٢) التعب في الذهاب اليه فكلاهما أصبح غير ضروري.

رجوعاً الى ملاحظة ضرورية في موضوع تدخل الحكومات في الانتخابات أقول: كان الكلام جارياً عفو الخاطر ضمن منطق التعرف على رأي الناس في المصالح العامة فهاهنا ملاحظتان خطيرتان يجب لهما حساب خطير:

أولاهما هي ان ترك الحرية المطلقة للناخبين كان يؤدي الى ضد الهدف الذي يتضمنه أو يتصوره منطق الانتخاب ذلك ان قلة قليلة من شقفي المدن كانت تفوز وتكون الأكثرية الساحقة من النواب الذين هم انصاف اميين لا يفهمون في شؤون الحكم شيئاً لان الريف سواء في السهل والجبل كان محكوماً برؤساء العشائر فلا حظ للمثقف. فكانت الحكومات تسترضي الرؤوس الكبيرة وتدس أعداداً من المثقفين من باب التفاهم والصفاء بين السلطة والريف فينتخبون والأصعب تشكيل حكومة من برلمان تسوده بالمئة منه أميون. يروى ان الملك فيصل الأول ذهب من الموصل الى أربيل، بعد عبور الزاب وفي ناحية الكوير اصطف له الشرطة والشعب فكان ترحيبهم بجلالته في شرهة واحدة: الله يسويك باشجاويش.. كان هذا في اوائل الثلاثينات.

ثانيهما: كان في المدن مثقفون على مقدار من الخطورة والجماهيرية كانوا سيفوزون في الانتخابات الحرة ويثيرون الشارع بخطبهم النارية فتكون النتيجة إحدى المصيبتين: فاما أن يعلن العرف وكلمة "كل صوت يريد قولة الحق او نصف الحق" وإما أن تأتي حكومة تريد استئصال (الشر في نظرها) وتقلب النظام [في مثل وضع العراق كان وجود الانجليز المستند الى المعاهدة طرفاً للابتهار به]. ولقد رأينا في انقلاب ١٩٤١ تموز كيف آلت الأحوال الى الحضيض... اقول من باب المقارنة ان الاتحاد السوفيتي المبني على الثورة الطبقية دامت حوالي سبعين سنة. أما ثورة تموز فقد دامت بقيادة عبدالكريم اربع سنين وبضعة أشهر في أحوال غير مريحة وموحية بتفاقم الأزمة ثم تبعثرت القوى ودامت الانتفاضة الكردية التي فرضتها سياسة عبدالكريم وأصبحت سمة دائمة تتخللها هدنات لصة قصيرة وعقيمة.. وهاجم العراق حكومة الخنيف في حرب دامت قريباً من ثمانية أعوام اعتبرها عرب الخليج... وصار العراق من البلدان الفقيرة باستثناء اصحاب السلطة وأعوانها وهلفات الطفيليين وما أعظم شأنهم وأوفر مغنمهم.. حدث بعد اسراف الحكومة فصدرت مليارات الدنانير بلا رصيد أن ضبط الدينار الى ½ من الفلس اي ان فلساً واحداً من ايام صحة الدينار صار يعادل ثلاثة دنانير والحبل على الجرار.. وقد أفلس ناس كثيرون كان لهم رصيد في البنك. فاذا كان الرصيد (مثلاً) آلاف دينار صار يساوي ٢ دنانير و ٢٢٢ فلساً بالعدد القديم أي ٢½ من الدينار.. قديماً كان الدينار يساوي خمسة دولارات فأصبح الدولار في المعتاد يساوي ألف دينار..

مجنونة هي الدنيا. أما عقلاؤها فينقسمون الى فئات متباينة: فئة تأبى الأحوال بالمعارضة وفئة تقبع في ركنها أو بيتها راضية وفئة تختال بالتقرب الى الأقوياء صيداً "للمغنم" وفئة جريئة مقتحمة تكسب مرة وتخسر مرة وقد يضيع فيها رأسه وما له وفي الفئة الصحاب السلطان على درجات متفاوتة في النفوذ مع تفاوت بلد من بلد آخر [في عالمنا الثالث] على حسب الأحوال السائدة في اي بلد. اقول من باب العلم بالشيء أن القضاء في مصر والعراق كان الى أيام حدوث الثورة فيهما من أنزه وأكرم ما يمكن. وكان النظام المطبق في الطب بالعراق قريباً من النظام الانجليزي حتى حدوث الثورة في ١٩٥٨. فاضلت الموازين. من غريب ما يجده عند ناقد المدارس أن طلاباً لهم انتماء الى الشباب دالى الحزب والملا أدرى فاذا يكون معدله ثمانين بالمئة ولكن مزاياه المذكورة ترفع معدله الى اكثر من ١٠٠ تنقلب موازين الأولية بحيث يكون صاحب معدل ٨٠٪ يفضل على من حاز ١٠٠٪ فيدخل ذلك الطالب المتخلف نسبياً كلية الطب مثلاً وعلى الله التكلان. ويذكرني الحال بنصف بيت فارسي يقول:

[گرتو نمی پسندی تغییر ده قضا را]

ترجمته الى العربية هكذا: اذا كان لا يعجبك الحال فغير القضاء والقدر

القارئ يرى أن استعراض الصور المادة والملاحظات الموضحة هو نماذج من محتويات المستشفى الذي ذكره في العنوان حاولت واحاول وفي مقدمتها ان أركز نظره على ساحات من الخارطة الشاملة لما هو أهوال وتصرفات تخص البشر وحده فما من بهيمة تشي أو طائر يصلي أو نمل ينظم الشعر أو كائن ما كان غير البشر يأخذ رشوة ويشهد زورا كذلك لا يوجد غير البشر كائن يستخرج الجذر التكعيبي أو يفرق تعاقب الفصول ... الخ ولما كان البشر يفوق بقية الأحياء في الفهم والنظر والتفنيد والإثبات وريادة السماء واختراع المعجزات ... الخ فهو خليق اذا شذ أو اشتط أو أضل أو كره أو أحب يكون بُعده عن الصواب والمعدلة لا يقبل القياس من أفاعيل الاحياء الأخرى فهو يشمل في تصرفه كل المسافة بين الملاك والجزار أو الشيطان حتى اذا اختل دماغه هبط دون مستوى القط والضفدع. ومن غريب أمره انه اذا اقتنع بالباطل كان حماسه في الدفاع عنه أشد من تحيزه للصواب، ذلك لأنه الباطل اذا أصبح سارياً بين الناس ومقبولاً في الأذهان يكون شأنه كشأن المرض الخطير يطلب جرعة أقوى من حاجة المريض الى دواء بالغ القوة.. فالانسان الذي يغازل في جهل حركات النجوم وتتابع أوجه القمر ومواجهة الشمس بين أقصى بعدها في الشتاء وأدنى قربها في أيام بين الربيع والصيف يشابه نصف كرة الأرض شمال خط الاستواء وأن شتاء الشمال هو صيف الجنوب وصيف الشمال هو شتاء الجنوب ... الخ اقول أن إنساناً كهذا يكون بالبداهة مشدوهاً أمام معجزات السماء، وعلى قدر استغلاق خواطرها على فهمه يكون تفانيه وتدبان إرادته في حكمة خفيّة غير مفسّرة تدير دواليب هذا الكون.. فاذا طرق سمعهُ كلام عابر عن وجود ما يسمى بالثقوب السوداء أمرق البخور ونثر بعض ما يقدر عليه من حسنة للفقراء طرداً لهذا الكفر.. ان تخليص جاهل واحد من أوهام الجاه والعقاريت في السماوات ومن الثور الذي يحمل الأرض بين قرنيه وان الولي الفلاني جذب رسن الشمس سبع سنين، أصعب ألف مرة من فك أية عويصة مستعصية مما يقال لها فهم الأنام، بل انك اذا فككت له عقدة من تلك العقد بعد تعب شديد ونفَس مديد ارتكنَ عليه خارطة تصوراته لوجود عنصر دخيل عليها لا يأتلف مع مفردات قناعته الاساطيرية وتظل هذه النقطة المضيئة في واقع الأمر نقطة "قلقة" تعلقه عصبية على القناعة وغامضة ضمن النقاط الأخرى الواضحة من مثل أن الأرض مسطحة وأن البرق سوط غضب وقوس القزح ابتاعه مخلوق علوي.. وليوملكة هنا لا يدري كيف يصدق كروية الأرض وهي في الظاهر مسطحة ولا يعقل ان تثبت الحيلات والجور فوق جسم ناتئ.. والواقع هو أن ناساً كثيرين من المؤمنين بحركة الأرض وسكون السماء ولكون الأرض كرة مائلة على مدارها بمقدار ٢٣,٥ درجة في دورانها السنوي حول الشمس وما جاء اقناعهم وتصديقهم لمقولات علم الفلك نتيجة فهم وتصور صحيحين بل كان ذلك من باب الاضطرار فانهم يسمعون يومياً ان الشمس تشرق في لندن بعد ثلاث ساعات من شروقها عندنا وتشرق قبلنا بست ساعات، مثلاً، في الشرق على بعد ٩٠ درجة بل ان المسافر بالطائرة يدرك هذه الظاهرة فلا مهرب من تصديقها ولكنهم لا يربطون هذه الحقيقة بأي شأن آخر من شؤون الدنيا ولا أستبعد ان يحتجوا بتكذيب هذه المقولات فأي أولا صعبة التصديق على افهامهم وهي ثانياً غير منسجمة بل متنافية مع مألوفاته مثل تسطح الأرض وحركة الشمس والقمر والنجوم وبضاعة لما كان استقر عليه يقينه ويقين آبائه واجداده الى الجد المائة.. اذن اذكر معلماً من مدارس الفلك القديم كان يدرسنا في الصف الرابع (الابتدائي) المنهج المقرر في الفلك الحديث فكان يقول بعد الانتهاء من الدرس: يا أولاد ... كل هذا الكلام في دوران الأرض وكرويتها مضاد للحقيقة وللدين معاً ولكن الضرورة فرضته ولا حول ولا قوة ....

كثيراً ما أفكر في حال ناس يعتقدون شيئاً ويردّدونه ما يخالفه ولا يصل لهم دوار أو زكام أو سهاد ما فهم عقدوا هدنة مع المتناقضين ليس من باب الأدلة الصرفة ولكن لسطحية تفكيرهم بل لعدم وجود شيء عندهم اسمه (فكر) حتى اذا أردت مغالطتهم في البيع والشراء وجدتهم أساتذة في كشف الحيلة ولهم في الوزن والكيل والذرع طرق خفية غير مكتشفة من قبل المشترين وقد أسكتوا صوت الضمير فتجدهم بعد الحيلة والختل يتطهرون في صلاة العصر فيغلونه

القدسين حتى الكعبين و يبللون شعر الرأس في الصبح حتى تنزل قطراته وهم في هذا يقيمون معادلة توازن بين القوة بكرويه الارض وبين زيادة الحرص على خطورة الصلاة وترضية الملائكة وكان الله غفوراً رحيماً. ملاحظ هذا في نفسه يخص أهل بلدي والمسلمين منهم خاصة ولكن الحكم على تصرف الانسان المتبلد في بلدين مختلفين ديناً وعرفاً يكون متقارباً في الحالتين. ومما أراه مقبولاً في هذا المجال تذكير القارئ بأفاق العالم الفلكي قبل خمسمائة سنة من جانب القاوسة النصارى على قوله بحركة الأرض حول الشمس على حين نجد الكنيسة تبعث بالأنجيل الى القمر في عصر غزو الفضاء. ولقد سألني أحد المثقفين الكرد منذ عشر سنين أو أكثر عن السبب في كون المثقف الشيعي من آيات الله و مجي الاسلام والقاوسة المسيحيين ملمين بالحركة العالمية والسياسة الدولية على حين لم نجد الملا السني في الماضي القريب والبعيد، إلا نادرا، يهتم بغير كتب الشريعة ومباحث الصوم والصلاة والطلاق والنكاح وزكاة الفطر فأجبته بأن الملا الشيعي والقس المسيحي عامة "دعاة قضية" فلا يصح ان يجهلوا مباحث العصر ومشاكله وحركته العالمية وأبعاده السياسية والأقتصادية والديمقراطية والدكتاتورية مع ملاحظة أن القس اكثر عصرنة من الشيعي بسبب ترسخ الحقائق العالمية من أرضية وسماوية في العالم المسيحي على حين، وقد بينت ذلك، ان علماء السنة كانوا الى ما قبل بضع سنين يعتبرون القول بحركة الارض كفراً وهرطقة في ثابتة تحوطها السماوات السبع الاسلامية و بعدها الفلك الثامن للنجوم الثوابت والفلك التاسع هو المدير للأفلاك المذكورة وأظن ان دارسي علم الفلك القديم من المسلمين قالوا بان العرش والكرسي فلكان يتمان الرقم (٩). والواقع هو أن إحلال الانجام بين الفلكيات البطليموسية وبين علم هذا الكون الذي لا فلك فيه وليست بداية ولا نهاية منظورة لأبعاده وأعماره، أمر فوق المستحيل... بل هو ضلال مريض.. انت تجد اليوم آلات شبه سحرية تنزل على القمر والمريخ وقد رأيت سطح المريخ تختبره عربة بعجلات ومجسات فتبعث بنتيجة التحليلات الى علماء الأرض وتدلهم بأمور لا ينالها مخ البشر بمفرده ثم تجد وأجد ونجد جميعا صوفيا ودروشا قد لزمته الحيرة وجحظت عيناه ثم غاب في عالم الاوهام الذي سوف يمد الأرض كفراً وهرطقة وقد سموه المسيح الدجال يأتي بعد المسيح الحق فيقضي عليه ولا ندري هل ستقوم الحرب على أرض مسطحة بحسب الرأي القديم لجهلة الشعوب أم على أرض كروية لا ندري كيف تمسك بياهها حتى لا تنسكب في الفضاء التحتي ؟!!

قالوا عن عمار المسيح الدجال أن سبعين ألف يهودي تظللهم إحدى أذنيه.

إنا لا نعلم ماذا يقول كهنة الهندوس مثلاً في التوفيق بين الافكار البالية القديمة لهم وبين افكار هذا العصر وقد حققت معجزات وأنطلت خرافات وارتادت السماوات وكان من نظم الصناعات والتوسع في استعمالها أن حصل شيء خطير هو حدوث ثقب في طبقة الاوزون يشغل بال العلماء من ذيول هذه الظاهرة ان الفارق الحضاري بين بلد وبلد يعلن عن نفسه بمقدار الدخان الذي تنفثه السيارة والمكينة من انواع مختلفة فالبلد المتقدم يستوفي الجهد في مكافحة الدخان وأظن أن نفث الدخان من السيارة و غيرها في بلد كالسويد مثلاً، معاقب قانوناً على حين يكاد يكون انعدام الدخان لبعض الآلات والوسائل في بلادنا وبلاد مثلنا مقبولة يثير الاستغراب وكاد أن يعاقب عليه القانون.. اذكر لاستاذ جرى مجرى في القانونية اسمه محمد ثابت [ ] لم أكن ساهيا [ ] يؤلف في كل سنة كتاباً عن بلد يزوره أثناء عطلة الصيف. ويقول عن قوم في بعض بلاد الهند على غاية الفقر ويحترمون القرد وقد قدر تعداده بعشرين مليون فلا يزال أصغر قرداً فيستهلكون ما يكفي لخمسين مليون بشر.. لا يؤذون القرد ولا يغلظون عليه ولكنهم عند المعاهدة المؤاتية يحدث بينهم قتال وقتل وأظنهم يتشاجرون سنوياً. هو المسلمين في عيد الأضحى بسبب ان المسلم يقدم قرباناً في هذه المناسبة بذبح ثور فيحصل عدد من القتلى بين الطرفين".. تصور يا قارئي: قرود في الكتب السماوية، وآخرها القرآن، ان ابراهيم عليه السلام أراد ذبح ولده فقال له [ ] اني أراني اذبحك [ ] فكان

ولده مصدقا لحلم أبيه على أبي الأنبياء من رب العالمين. ثم جاءت الفدية (ففديناه بذبح عظيم) ودخلت في المعتقد الديني وانتقلت الى القرآن وفتح العرب بلادنا منها الهند وفيها ناس لا يذبحون حيا والمسلم يذبح قربانا في عيد الأضحى [اي عيد الضحية] فيتقاتل الطرفان وكلاهما يعتبر جنيس الدم البشري في كل سنة محتوما بفتنة تتجدد على الزمان.. وإني لأجزم لو كان في عهد نزول القرآن انسان واسع الخيال مطلع العالم على خبرة بالأيام لما استطاع مهما حاول في تطويع المستحيل للممكن أن يتخيل وصول العرب المسلمين عبر حكومة الى سانيبي وبعد دحر الرومان الى الهند فاتحا منتصرا يفرض (القرابين) رغم أصحاب الدار وضد مشاعرهم الموروثة فيقاتلوا العرب دفاعا عن الكبش والبقر....

نحن نستعرض هذه الصور بشيء من الاهتمام والتعمق لعلنا نألف ما سميناه " مستنقع مجاذيب " فالمعتاد بين الناس أن يأتلفوا مع الافكار والأهواء والقيم والأعراف وغيرها من مقربات المجتمع البشري فالكل " يغني على ليلاه " والكل يتكشف من الغريب. أول الأمر فمنذ عشرين سنة كانت صور العري والتواصل الجنسي المعروض هذه الأيام في التلفزيون أمرا غير وارد على حين نجد اليوم لهفة عند المنتظرين لساعات ما بعد نصف الليل حتى ان مكابات (رجوع الشيخ الى صباه) القديمة وكلها كلام يفشو في الهواء أصبحت " موضة قديمة " ولا تحرك الشهية في مضرة أفاعين أواخر القرن. وهنالك مرحيات و تمثيليات تعرض في العرب علنا والمتلوون من الجنسين كلهم عادة... وقد أردت بهذه الفذلكة أن أصعد من مدارج الأضداد بين الهندوسي والمسلمين الهنود الى مستويات أعلى في الفهم والدراية حيث ينتظر في التصرف فهم وعقل مصافة للسيما اذا كان موضوعا ما مهما بالخطورة وبالعواقب التي لا يمكن التكهن بها. ولكن أسند رأيي برأي قرأته لمؤرخ نسيت اسمه يقول: ان الحرب العامة الاولى كانت بكل الحسابات خليقة ألا تحدث واستغرقت حروب كانت بكل الحسابات مؤكدة الحدوث. وأضيف الى ذلك رأيي في أن دخول تركيا في الحرب العامة الاولى الى جانب ألمانيا شطحة مجنون لا داعي اليها مطلقا فالثلاثي المتشكل من طلعت وانور وجمال قلبوا حكم السلطان عبد الحميد على اساس انه غير جدير بالمركز الذي يشغله واذا بهؤلاء الثلاثة دفنوا سلطنة آل عثمان وخلافة آل عثمان ودفنوا أنفسهم معها ومهدا لحكم أتاتورك كحاكم مطلق لا يرد له كلام.. وتابع معي الكوارث التي قضت على الزرع والضرع، لا بسبب فيضان أو زلزال أو عاصفة ولكن بسبب الطيش أو البطر أو فساد الرأي أو الطمع الاشعبي أو التوجع الشخصي أو الكراهية المأفونة.. الى آخر قائمة الأسباب الجاهزة تحت الطلب وغير المجدية على المدى القريب والبعيد.. فاذا قلبت صفحات التاريخ صعودا الى الماضي وفتحت دفاتر الحاضر نزولا الى الآتي تجد الكوارث المخلوقة بإرادة الانسان في صيغة الحرب والعنف والسطو والغارة تكاد تزاحم فترات خالية من البطش و التهديم والترويع. ولكن حذفنا من هذه المهالك ما كان مرعبا قد حدث في التاريخ القديم قبل الوف السنين يوم لم يكن هناك إحساس قوي بأفضلية السلام الاعند ناس قل عددهم الى حد البؤس، فلا بد من الاقرار بأنه الطوعا جاء آمن ما أساء الى أحد ليس فقط ظلما يخل بانسانية الانسان بل هو نذالة وخسة و بهيمية تنزل بعتريها الى الدرك الأسفل الذي ليس بعده عار وشنار لا سيما بعد نشوء دول ذات قوانين و دساتير وأنظمة ومعاهدات من ألوف السنين. لو كان حدوث تلك الحروب والغارات من قبيل هطول المطر وحدوث الثمار ونضوج العنب لما بقي لأحد عتاب ولكن الحرب أية حرب، ليست فقط غير مقبولة بل انها لفظاعة مخاطرها وبهاظة مصاريفها واحتمال خسارتها كانت أخرى ألا تحصل أو أن يندر حصولها: كل حرب تقوم تكلف القائم بها أموالا وأثقالا وثمانين حربية وتدريب جنود وتعيين متوالية تستهلك أموالا ومواد واتعابا كافية لصرفها بلا حرب ولا قتل ولا دمار. والواقع أن التهيؤ للحرب في حد ذاته يأكل جزءا مظيرا من المال والراحة والهناء في الحاضر ويضايق

احوال المستقبل بحرمانه من الوفر الذي كان ينتقل اليه فيزيده رفاها ويرفد الاقتصاد بطاقة وامكانات كانت تنشأ من سير الأحوال ماضيا وحاضرا. لا أملك نفسي من شجب كل الحروب التي صبغت ايام الارض بالدم وأحالت عمارها خرابا. ولا يشفع كلامي ناسا يدافعون عن أنفسهم ضد المعتدي ويتقون بسبق ذكاء هب لرد الطاغي والباغي فالطاغي في غابة لا يلام على حمل سلاح قد يردي ذئبا أو قاطع طريق. انا أعلم كعلمك أن الحرب إذ وقعت من آلاف السنين واستمرت عبر الزمن حتى يومنا هذا لم تقع بنفثة سام أو مخالطة مشعوذ ولا كانت تقع تطعيما لولع مأفون بمرأى عضلاته على القتل من باب التفريج أو المباهاة [مع ان هذه الحوافز لا يمكن تجاهلها في بعض تصرفات الانسان] فمثل ما يحتاط الفرد بوسيلة دفاع عن النفس وأهل بيته ومقتنياته ضد تحرش الكرامي والباغي وصاحب الحقد الدفين كذلك تكون العشيرة مثلا، والمدينة او الدولة تتوقع المفاجآت من جار سواء كان عشيرة أو مدينة أو دولة فالحياة، طاقة الحياة المعرضة دوما للفناء بسبب طبيعي أو مفتعل، تطلب الحماية أولا و تشتهي المغالبة ثانيا ولا غرابة في ذلك فما من فرد إلا كان له فعالة مشاغل شخصية لا علاقة لها بالكرم والشهامة وإنما هي نضح النفس الأمارة بالسوء تطلب البهجة والبحبوحة والتشهي ولا يكون ذلك كله أو جله نابعا من التراث العائلي فالفرد الفقير أقصر يدا من أن يشبع عشر رغباته في الكلال وقد يكون راعي الماشية أو الفحم في الغلاة والوهاد اسعد حظا من غيره إذ يأتيه الزاد من القرية على يد أنثى فالرجال مشغولون بمتاعب اليوم الراهن. ثم ان الراعي يحلب فيشرب الى حد الكفاية. ان نسيج الاجتماع البشري ذو تشابكات وتداعيات تنبع من المجتمع ومن أفراده ومن علاقات المجتمعات بعضها ببعض وافرادها بعضهم ببعض. فيها حاولنا حصر الاهتمامات الناس أفرادا وجماعات وعشائر ودولا لانتهى منها الى غاية فلا غرابة في حدوث الأشياء المألوفة من كريهة ومودودة ومحايدة وليس اختراع الألعاب والمراهنات و الحزورات ولا كان ابتداع الأغاني والدبكات الا هروبا من جفاف الحياة بمرها وسخها طاوة وعلاوة قد تعين على تخفيف أثقالها وأحماضها وأعبائها وكل هذا رصيد أيجابي منغص يوازن الرصيد السلبي على قدر الامكان وهو محدود بكل أسف فان ليلة من ليالي الربيع يقضيها افراد اسرة في غرفة مظلمة متخمة بالحشرات ولا سيما البرغوث الذي كثيرا ما يتمص دم النائم فيصاب بفقر الدم، ليلة واحدة تكفي كل مباهج التحايل على الضنك والضيق واستلاب بسمة تحتضر!!

فالحرب إذا من رأيي ملعونة محكومة رغم الروافد المغذية لها من نفس الانسان ومن موجبات الاجتماع. وهي تكتب الحكومية أكثر وأكثر مع تقدم المجتمع البشري وتزداد استحقاقا للعنة والدينونة في بالكورة الفتوحات العلمية التي تخطو بنسبة هندسية فما أفظع ان تكون أوسع خطوة في مجال كشف المجهول و امتلاك مفتاح (الذرة) هي تفجير القنبلة الذرية على مدينة وثانية في اليابان بحصول مئة الف أو مئتي الف من القتلى وخراب مساكنها وعمارتها وهلاك زرعها وضرعها وصعاميم الحكومية لحضارة الموت والدمار. انا أعلم ان اليابان قصفت بيرل هاربر وقضت على الحمود الفقري للاسطول الأمريكي فيها وكانت تتطاهر بالميل الى الاتفاق بأرسال وفدها الى واشنطن لتصفية الجو بين الدولتين واعلم أنها كانت تتعمل القنبلة الذرية اذا امتلكتها وبهذا تتسع دائرة التجريم للحرب فقد كفى سخفا وخطلا وجنونا ومعرة ان تكون الحيلة المفضوحة تكون ستارا لانيل من المستضعفين ثم قضى أربعة اعوام فيكون استعمال أكبر وأجرأ وأوسع خطوة علمية على مدى التاريخ المنصرم وسيلة لتركيع العدو بقتل مئتي ألف انسان ما كان لهم يد في حيلة ما قبل اربع سنين.

انا نعرف حقائق جمة عن كيفية اندلاع الحروب فقد شهدنا منها نماذج كثيرة وأخطرها حرب ١٩١٤ (ولم أكن مولودا بعد وانت قبل ميلادي بسنة) وحرب ١٩٢٩ : إلى الأحلاف بقداسة تراب كردستان، ما كانت الحرب الثانية تقع بسبب الوضع الأقتصادي لألمانيا أو إيطاليا [لا سيما ألمانيا - فاليا كانت نقمة كبيرة فقط] ذلك لانك اذا عزوت السبب الى سوء المعيشة فان ألمانيا صرفت في حرب ١٩٢٩ و ١٩٤٠ ثم ١٩٤١ فما بعد من

موارد و أسلحة و ثروات من كل نوع و بمقادير مذهلة كانت تكفل لشعب ألمانيا حياة رغيدة فيما لو اختارت طريق التعايش.. انا اعلم ان المانيا ما كانت تعيش في فراغ وأن الدنيا من حولها ليست مجموعة ملائكة ولكن يبقى كلامي حيث هو من حيث الصدق التحليل مع ملاحظة أن قيادات الدول الأخرى تتسع الدائرة الآخونة ولكن تبقى المانيا هي البؤرة فلم يكن في المانيا بطل يقول: هل من منازل؟ روسيا لم تكن متأهبة. فرنسا و بريطانيا مختنقتان بالمستعمرات.. اليابان كانت مشغولة كذلك بقطع في أوصال صينية هي الصين. لا حاجة بي الى أمثلة أخرى فالحروب التي نشبت من نحو ٥٠٠٠ سنة حتى يكن تأكيد حربية وقطاع طريق يمانعها سحابة من الحماقة والغرور والتعالي. وقد يكون من المفيد القول بأن نابوليون كان عبقرية حربية ولكنه جلاد محارب لا يرتوي من الدم والدمع والخراب. والواقع ان نابوليون كان بحد ذاته مقياساً لأصالة وحُمْنة الشعب الفرنسي فيما قام به من قلب نظام الحكم فهو ان كان أصيلاً في طلب الحرية والاخاء والمساواة ما قتل ملكاً مخلوعاً على أمره ليقيم مكانه عفريتاً غالباً على مقدرات فرنسا بأرضها وبحارها وسمائها و دمائها. ثم جاز نفسه في قبول المذلة حين سجد لنابوليون وهو راجع من منفاه لدى جلاد مصياد عصفور مما يعبث به الاطفال.. ولئن كان سقوط نابوليون على يد أعداء فرنسا فقد أصبح عداؤهم هو المنقذ للشعب الفرنسي من نير نابوليون. لكن خلاص فرنسا من غير طاغ لا يقره قرار ما وفر لها الأمان والسلام فقد خرجت حرب ١٨٧٠ ضد ألمانيا وتنازلت عن مقاطعات متاخمة لحدود ألمانيا [استردتها في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨]. ثم إن الحديث في معرة ونذالة و سقوط كراهة مثير الحروب شيء تتقزز النفس من مقاربته و سفالاته فأختصر القول بنزع بأن أطراف أية حرب اذا اهتدت الى نور البصيرة في رؤية الحقائق لوضعت أن ما توفره من دمار الحرب و تقويض نعم السلام يكافئ نفعها باضعاف ما قد تختشه من ارض محروقة و زرع مصفر فقد كفاها ان طفلها الذي حبا أصبح يترنح ثم يمشي ثم يتعابث فيتفلى في لحية أبيه وفي ذلك من بهجة الدنيا ما لا يحيط به وصف. لقد وضعت حفيدي الأول بعد ستة أشهر في حضني من الساعة الثانية بعد نصف الليل حتى الساعة صباحاً أذود عنه بقاً أو أزيد في راحة رقدته. وانى لأستأذن القراء في نقل بضعة عشر سطراً من اوائل الصفحة ٩ من كتاب الموسوم " من هموم الحياة " المطبوع سنة ١٩٨٨ عن جانب الشمالة العامة للثقافة والشباب بأريل:

" وتوالت الأعوام بميزانها المائل من تفاوت أثقال كفتيه نعمةً و نقمة حتى أطلّ عام ١٩٨٥ وفي غضون تكشيرته ملامح بسمة توضحت خطوطها يوما بعد يوم وتراقصت أطيافها شهراً بعد شهر فاذا أوشك الصبح ان يتنفس في ختام الليل السابع والعشرين من آيلول أهلّ العيد الرائع في قلبي و بيتي بميلاد حفيدي [illegible] من ولدي البكر فجاء:

" آمنْ دَوْحَةِ سعودٍ أصبحتُ به (مثلثَ الرحمة) محسّ القلب منداح الوجدان على ساحات فسيحة من حقائق الرحمة والمحبة وانفتحت لبصيرتي منافذ جمّة تشرف على معاني الحق والجمال فقد كان مما يهز الروح أن أعيش في (آمد) بالجزء الباقي من عمري تباشير جيل من البشر يستأنف دواعي المنهج الأنساني في كل الوجهات فهو وكيلي من بعدي في بناء جسور التواصل بين الناس و دحض المذاهب الشريرة في صدور الخبث بالطبائع حتى يوصم المغاير على العدوان بالشذوذ و المروق و العقوق. كان ميلاده تقليبا لثرى حديقة الورد في وعصبي تفجرت به الوانها و ادهامّت اوراقها و أغصانها و ابتوت جذورها و تجانفها فهو منذ ستة أشهر الا يومين لحين انصباب القلم بهذه السطور يرسم بين رموشي اقواس الفرح ويرف في سمعي ألحان السماء ويعيث راحاتي الى مثل عمره فأضع مجدا حب الناس من بسماته ونظراته فيا لحيرة فرحي في لغز الوجود: ما أعظم هذا الصغير (...)

من عجيب أمر البشر اهتمامه بصيانة لوحة زيتية أو قطعة حجر بديع أو زهرف يُنقاب أو نحت في كهف قديم فيتنفد في صونها طاقته لاسيما اذا أطلّت مقدمات لاحتلال السلام؛ يفعل ذلك وهو فنان أو سياسي أو ثري أو ضابط أو أديب أو لص من لصوص الآثار أو رئيس دولة مهتاج. لكنه يتكاسل في بذل المعنى

الجدّي لمنع الحرب التي تشغل أول ما تشغل بقتل البشر في معادلة منطقية فحواها هو: اذا فقد البشر من الجبهة المقابلة القدرة على الدحام في الحرب كما هو وما يملكه يصبح من نصيب جهتي أنا! فما أذكى المعادلة الملعونة المعتنية بحفظ عظمة من عجمة لاينسو مات من ملايين السنين وتسوق ملايين الناس الى المسالخ والمحرقة وتمطر عليهم غضب السماء والأرضين لجزاج رائق..

انا اعلم مثلك أن البشر قبل نشوء الحكومات والجيوش النظامية كان اهتدى الى حرب جادة بالأسلحة التي كانت موجودة في طور العشيرة وقد دامت حروب القبائل عبر التاريخ الذي أعقب نشوء الحكومات وليس بالحرية التي كانت لها سابقاً فالعشيرة صارت جزءاً من احدى الدول، إلا ماندر، وقد حدث مراراً وتكراراً أن رؤساء القبائل اخلّوا بالسلام فعوقبوا عقوبات رادعة منها الاعدام والنفي والغرامة والحبس، وهو إجراء ضعيف في احوال كثيرة وشرحي طالما يداخله طمع الحاكم.. ولنا ان نصعد في هذا الحساب التنازلي لنقول أن ثمراً من الناس تتشابك، لاسيما في المدينة، حيث مجال الكرّ والفرّ أضيق من مراح العشيرة، ثم ننزل الى مشاجرة الافراد فيما يصل الى القتل أو الجرح، والصبيان بدورهم يتعاركون بالايدي أو بالعصيّ أو بالمقلاع فكل ذلك حرب وضراوة وعداوة وشنار ما كان خليقاً أن يحدث بين الجنس الوحيد الذي يملك عقلاً وفهماً وتقديراً للمصالحة والمرحلة من بين الأحياء وهو الجنس البشري فيا لخيبة الأمل في تفاقم المهالك وتضخم الخسائر صعوداً من الطفل الى الشاب الى صاحب عائلة الى جماعة حضرية الى عشيرة في الريف الى دولة لها قانون ومحاكم؛ انهم جميعاً بلا استثناء مترهيأون للمنازلة وكسر العظام وبث النظام طواعيةً فطائعهم مأجورون على جائزة نوبل أو ما هو أشد إغراءً فلا أملك إلا أن يستبدّ الاستغراب من انسانٍ فرداً أو جماعةً يترك نوم القيلولة بما فيه من راحة وأمان إلى لكمةٍ ورفسةٍ وضربةٍ فجّ تصيبه أو تصيب غريمه بلا أجر وقد تتغرّث في الصرف على لدْم جرح أو جبر كسر أو ما هو أفدح... وإذا أصخت السمع للقيل والقال استفظعت شايات وتلفيقات شوهاء تشمئز منها النفس إذ تنال الأعراض أو تثير الفتن فأين أذكر من أيام طفولتي حوادث قتل لأبرياء ما اجترموا إثماً، اثنان منهم بنتٌ وزوجة قُتلتا غدراً للعار حيث لا عار ولا شنار ولكن لساناً ملوثاً ملعوناً أعجبه لحوقُ الهوان بأسرتي القتيلتين وقد ظهرت براءة الشهيدتين مثل فلق الصبح ولكن.. سنة مرة ولكن.. ما الفائدة..؟ الواشيان الملوثان قضيا حياة رخية وما علق بهما شينٌ أو عتاب...

لكن تكون نظرتنا الى الحرب والضراوة والعداوة عموماً مبنيةً على أساس متين لابد من اعادة الأشارة الى حقيقة اساسية في عالم الأحياء، لاسيما عالم البشر، هي ١- حب الذات ويتفرع إلى ٢- رغبة احتكار المشتهيات ٣- تنازع البقاء ٤- ارادة الفتل.. هذه الخمائر الملتحمة بوعيه وعقله الباطن تظل تفعل فعلها على وجهين متعارضين ١- وجه تفضيل نفسه وأسرته على الآخرين ٢- وجه الاحتفاظ بالصيغة على أفراد أسرته وفي ذلك يختلط الحب والغيرة معاً.. ولا نستقصي تفاصيل درجات المودة للذكر والأنثى أو للصغير والكبير أو للكفيّ والخائر، وقد تنعكس الآية عند بعض الناس فيحبّ البنت أكثر أو الضعيف أكثر ثم يشتد الشذوذ حتى يكره الأب أولاده، وتلك حالات تضيع بل يجب أن تضيع في صيغة جامعة تحوي أهم جوانب وفوارق الأسرة وقد ألمحت بذلك كله توصلاً إلى اعتبار الحرب، رغم فظاعتها، من نتاج البشر وعمل يديه وادراك عقله فاذا علمنا أن الأسرة الواحدة تتفاوت فيها درجات الحب والمودة بين ذكر يعتبر عمود العائلة وبنت تكنس وتطبخ وتخيط فلا تبقى غرابةٌ في إقدام رئيس دولة على اعلان حرب يتوقع من عواقبها البطة والثروة والمنعة لشعبه وحولها امور كثيرة مؤثرة سلباً وايجاباً لا تخضع للارادة.. فالنزع الفازع موجود والحوافز

على الأقدام تغرق بالمغامرة ٥٠ كم من أهوال صادفتني وصادفتك وغرقت ميلنا الى الأقدام لم نكن نملك ردعها تمكّنها من مكامن ارادتنا ثم انكشفت الفجوة عن نَدَم ولات ساعة مندم!! وقد يحصل أن تفلح الأمنيات رغم العراقيل وقد قال الشاعر العربي في نصف بيته الأول: (والنفس راغبة اذا رغّبتها).

هذه الرغبات المحركة للفعل فالصبية فالشاب فالرجل فأصحاب المقامات والحول والطول كلّها تنتمي الى أصل واحد في دفيلة الانسان هو تأكيد الذات بما يقتضيه من التملك والتسلط وتحقيق الرغبة يبدأ مع الطفولة وينمو عبر مراحل النضج [وغالب ذلك في مبادر الرجل] حتى اذا ملك قياد الحكم وتحلّق حوله الوزراء والخطراء وأركان الجيش داعبته آمال عريضة كتميّز مركزه في الدولة. ومما يُسهّل عليه التلويح بمركزه وقدرته على الأذى هو أنه لا يتعارك بيديه وأسنانه ولا حتى بعونة خدمه وحشمه وأهله وأبنائه فهناك الجيش من ناس غرباء عليه يموتون [في سبيل الوطن !!] فما رأيتَ وما سمعتَ رئيس دولة أو قائد جيش أو أمير لواء مات في المعركة وأترك الوزراء وأصحاب المناصب الكبيرة فأنهم بعيدون عن سوح القتال.. وقديماً قالوا ما كان خط الطيران يُقلق راحتهم. أما قبل اختراع البارود والمدافع فقد كان القادة محاطين بالحماية فاذا اشتد الضغط عليهم شردوا كالغزال.. وحضرتني نكتة مقلوبة من بيت شعر غزلي يقول:

أما رأيت حبيبي ... في حسنه كالغزال

فقد كان الزعيم المشير عبدالحكيم عامر قد حضر معركة سيناء قبل ابتدائها فأقول فيه غير متأسف:

أما رأيت مشيري ... في حربه كالغزال ؟

رحمه الله وغفر له ما جرّ على شعبه من مهانة وخذلان. وهو ثاني قائد في تأريخ الحروب كان موتها أثناء المعركة أجرى على جيشها من قيادتها. أما الأول فهو الفيلد مارشيل بوديني قائد جبهة الدوكرين سنة ١٩٤١ في حرب الروس مع الألمان فقد تبرع بمليون أسير سخاءً ومن باب تلطيف الخاطر فقد قيل قديماً بين العرب: إكرام الضيف واجب ولو كان كاذباً.[1]

يا لخسارة الحرب ويا لفضيحة من يكفل سلامة جيش ثم يكون وجوده نقمة على جيشه..

ثم دارت الأيام بعد عبدالناصر وصار أنور السادات رئيس جمهورية مصر.. استطاع عبور القناة ثم أرغم اسرائيل بأسناد من أمريكا أن تعيد الى مصر كامل أرض سيناء... وكان جزاؤه الاغتيال !!

تلك هي دنيا الحرب وهي في كل معنى وكل مكان وكل زمان ملعونة الملاعين الداسلف من قولي ان الحرب المراوغة شرف، يضاف إليه أن استعادة أرض مغصوبة شرف أكبر.

ان جرثومة (أنا) بما تعنيه من حب الذات واشتهاء التفوق موجودة في جبلّة كل انسان الا اذا كان في تكوينه نقص. ويوجد آحاد من أصحاب الارادة العصماء قديماً وحديثاً يتكون الشهوة والرغبة، وأغلب أولئك يسمونه (النفس الأمارة) بالفناء في العقيدة الدينية. والصوفية [تشمل الصوفي والدرويش] أتت بأفانين من الشعر المسحور يتيه خيالك اللبيب. ولعل هذه الرباعية ان تكون واحدة من ارق نماذج الوجدان:

بك جرعه مي از حريف مستت برسد
صد جاشنهٔ دمي آلستت برسد
اين جام نباده اند در طاق بلند
يا برسر خويش نه كه دستت برسد

وتكون ترجمته العربية هكذا مع الفارق الخطير بين الأصل والمترجم:

اذا وصلتك من مدام بخور جرعة خمر. وصلتك منه ذائقة من لحظة "ألستُ"[2]
وضعوا هذا الكأس في كوة عليا ... فضعْ قدمك على رأسك حتى تصله يدك.

---

(١) كلمة (كاذباً) هنا مرفوعة على تقدير حذف خبر الجملة فكأنه يقول: ولو كان كاذباً ضيفاً.

(٢) يقصد بها كلمة رب العالمين للناس "ألستُ بربكم" حال يتذوقها له فالجملة المذكورة في الرباعية "وصلتك من مدام بخور جرعة (الله) مكّنته من اللذة المذكورة ولو شاء الله جرعة لذاب وما شعر بشيء"

هذه المرحلة مع نفسي ومع القارئ في خط مستقيم مع الموضوع وما يتصل به على الجوانب من تداعياته ومكملاته التي كلها شيء واحد كما أن بجوع أعضاء الجسم شيء واحد مع تفاوت بين المخ والمعى الأغور.. هي جهد أبذله لتقريب الصورة وعرضها على بصيرة غير مشوشة لعلي ولعلك تنسجم وأنسجم مع احدى الحقائق الكبرى في عالم الانسان وهي الحرب الملعونة، فنذعن للاحتمال أن نركب موجتها غير شاعرين بغرابة ما نفعل نافلة بين لعن الحرب وبين المشاركة فيها على وجه من وجوه المشاركة، مسافة واسعة جداً جداً وعبورها صعب جداً جداً ولكن لا تبلغ الغرابة نصاب الانقلاب الى نقيض جلة إيماننا بدنيا للبشر فيها حمة عدالة وفن واكتشاف وعلم وإبداع وجهاد للسلم وارادها جنود تطوعوه بوجودهم المادي والمعنوي.. فانا أريد أن أشرح دور (النزع) في جبلة القاص الحي الى تأكيد الذات على درب تتسع مع اتساع الحول والطول؛ فقد ينقلب شاب من أنصار السلام عبر الصعوبة والأخفاق إلى مشعوذ يبيع صور الحمام وشارة السلم.. اذكر في بعض مراحل ما بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ أن شراسة أنصار السلم الدائرين في فلك السوفيت دفعت الآخرين الى حمل تمثال قط [يأكل الحمام]. فما من أحد مصونٌ من الالتواء إما بفساد في العقيدة أو بزحمة من أحداث تهرّئ الأحاس بصدق الاشياء وكذبها يعمل التلقين وغسل الدماغ وخداع النظر والترويع بالانهزامية أجهزة هي من البشر المتخلفين عمل السحرة والمورفين وتخدير العقل وتعطيل الارادة.. ان رائداً في السياسة أو في العقيدة أو في تقبيح الاشياء وتحسينها يستطيع ببراعة بالغة أن تقود ألوف الشذّج كقطيع غنم أو بقر لا يتقنبه لديهم عقل أو فهم أو ظل حكمة ويستهلكوه ذواتهم في الذي يرتاح اليه الرائد.

(ولا أبرئ نفسي) أو نفسك يا قارئي في الانزلاق الى مهاوي الغفلة حيث يمكن للمحتال أن ينصب شبكة لصيد إرادتك وإرادتي: اقول هذا عن عمر بلغ فيه الشخص نصاب التمييز فكان خليقاً أن يكشف الكذبة ولكن شيئاً بسيطاً من فتور الارادة وشيئاً بسيطاً من زيادة الاحتيال [حفر المخدوع وحيلة المحتال] يكفيان لوقوع الفريسة في المصيدة.. كثيراً ما أجد ضروباً من السذاجة والغباء عند عباد الله تجعلني في حيرة لا اقضي منها غاية وكأنّ عين المحتال فيها مغناطيسية تتهاوى اليها العامّة كالفراشات في الارتماء الى النار على حين أجدهم يستعملون ذكاءً في رفض نصيحة يبذلها رجل طيب بلا رتوش.

على اي حال في كل منا جزء من الغفلة وجزء من الانانية وجزء من حب الظهور واجزاء اخرى لصفات جبلّية ومكتسبة في البشر. والقاعدة العامة هي تقاربُ أصحاب الصفات المشتركة في التصرف تجاه أمر معين بالذات أو أمور لا على التعيين. والملحوظ أن سنّ الطفولة والصبا أوفق لتشابه التصرف بين طفل وطفل الا اذا كان احدهما أذكى كلاهما متميزاً بفرط الذكاء أو الغباء فإذا تساويا كانا متماثلين واذا تفاوتا بعدت الشقة بينهما... وكان من حسن حظي منذ الطفولة المبكرة أني كنت موصوفاً ١- بعدم البلاهة ٢- بعدم العنفوان لم أكن عبر مراحل عمري متهيأ لكي أكون على حب الظهور ولا كنت مشغول البال في أمور تخص الكبار، ولكوني من أسرة غير معمورة لم يحصل عندي شعور بالنقص ولا كنت محتاجاً الى استعارة الوجاهة. كنت في الصف الثاني الابتدائي فيبعث علي معلم الحساب في الصف الثالث لأحل مسألة رياضية استعصت على طلاب الصف الثالث. ومن عمر مبكر جداً ظهر ميلي الى الأدب والفكر لا سيما وأنا اعيش بين الكتب وبين القارئات والمدرسات في محالّه.. كل ذلك وغيره مما لا حاجة بي الى ذكره نهذ اماس سبيل استعمال الفكر والنظر.. كنت منذ الصغر أرفض تصديق الحكايات الخرافية فاسمعها لا للتصديق ولكن للطرافة. بلغت ما يقارب سنّ العاشرة فصرت نائباً ووزيراً وكنت الوحيد في هذا الشرق الذي فتح بابه لكل انسان بلا استثناء وآرائي في أخطر القضايا إلى ما كان من مناقشة (الحبيب) فقد تركتها ولكن رفضت الخفاء عن مكنوناتي بلطفٍ ويسرٍ وتناولت الأمور من وجهة واقع الحياة الدنيا وناقشت النظريات العقائدية والسياسية

بموضوعية متفاقمة بعيدة عن المس والهمز واللمز والغمز... وخلاصة ما أريد بيانه هي أنني لا أتبع فكرا أو فلسفة أو رأيا أو اقتراحا إلا إذا كان متوافقا مع معقولاتي فإذا تعذر تقدير شيء ما اتركه واتناساه كأنه لم يكن فليس بالأطباء الهروب من الوطن والبيت والأهل إلى الغربة بل معيشة من أجل بيان رأي يرقص في المهلكة ولا يرتق فتقا. إذا كانت الكذبة محققة لمصلحة الشعب الكردي فأهلا بألف كذبة مماثلة في الصباح والمساء. ولست بموقف متحرج اتبرع فيه بالكذب لخلاص العراق الواقع.

هذه منطلقات تنبع من أصل واحد وقد كشفت ما في نفسي، وسبق أن كشفت آرائي المنشورة، فلا خفاء عندي في أي مرضي يمكن كشفه فأصارحك يا قارئي كما أصارح نفسي فأقول أنك إنسان فيه قوة وفيه ضعف، يغري غيره بنفسه ويقتل غيره لقضية يصل وإن أحدا من كوفدات الكرد اسمه (آري) كان يقتل عابر سبيل لا يعرفه ويعلل فعلته بأنه لا يعجبني اختلاجه وتدفق دمه حتى تبرد حركته).

وإذا كان المقصود من الكتابة [إذا صحت العزيمة النظيفة] جلاء المستور وشرح المستغلق وكشف المصلحة والتحذير من المهلكة فلابد من مصارحة الذات قبل مصارحة الآخرين والآ فإن الذات التي لا تراجع بالصراحة تدوم على التبرير لما يفعل: إذ فالإنسان المشغل بأمور عامة مسؤول أدبيا وطنيا وشرعيا أن يحاكم قوله وتصرفه على ضوء مصلحة (الكل) وتأتي مسؤولية (الجماعات) السياسية في هذا المجال قبل مسؤولية الفرد المستقل لان الحزب يضم قوى ناس كثيرين فإذا اخطأ الحزب كان من عقباه أخطار خطيرات: الأول هو فرض الخطأ على الواقع حتى ولو لم يكن الحزب حاكما" فقد كفاه أن يقود الأمور الى وجهة غير ناضجة بل ضارة ويبقى الضرر قائما" فمه لا عوض له من جانب الجهة الحزبية التي أحدثت الضرر، ويستبد بالأسى إذ أجد الحزبي في مصلحة حزبه وحزبيته و تقتياته على غيرهم وقائي ملحوظا ثم ينقلب في تنظيم مظاهرة غير ضرورية إلى شعلة حماس خليقة بالأبطال وراءها هدايا بيوت وبوار مصالح و هدر حريات... الخ... والثاني تفتت الكلل والملل بين عامة الشعب الذين ليس لهم انتماء حزبي ولكن يزيدون المطالبات المعقولة بطرق مقبولة. لقد حدثت (الوثبة) ثم أكلت نفسها وصارت تشنجات أخرى واضطرابات لم يكن وراءها غير الخسار والبوار حتى حدثت ما سمي ثورة ١٤ تموز وهي في حقيقتها إنقلاب عسكري طالما الصفاء بين القائمين به الدايما" معدومات. وقد رأينا عواقب تموز على نحو ما كانت عمر بالهم الواعين.. ولكن متأكدين من أن ١٤ تموز كانت أهون ان تكون أكثر دموية لو أنها حدثت بثورة جماهيرية وقد وجدنا آثار الميل الثوري الى معالجة المشاكل في مثل حوادث الموصل وكركوك - على اي حال ان مداعبة القضايا العامة بعقل نصف شرير و بنضج المراهقة ولهفة المندفع الى الصلاح (الجذري!!) لن تأتي إلا بالمجازر والأهوال فافتح عينيك على البلاد التي فيها حركات (ثورية) واحسب الجماجم البشرية والبهيمية والعمران المنهار على نفسه و معجزة القمة المانعة من الموت و... و... في العالم الثالث كله تحتار ماذا تقول بصددها ومن أين علاج المهالك و إعادة البنيان وتوفير الطمأنينة (وبؤ مطلة وقصر مشيد)؟ لا والف كلا لحصاد الارواح وجدع الانوف وصلم الآذان وفقأ العيون توصلا" الى مجالس فاتحة لها أول وليس لها آخر!

هذه الفذلكات والتراعيات تمهيد لقول صريح اهمس به في سمع القارئ: لا تمنح نفسك في سبيل وطنية و انتقاء أفضل غد درجة نجاح مقبولة حتى تأخذ نفسك بمايلي:

ركز على جانب نشاطك الأدبي: فأنت وأنا وباقي الناس مخلوقون بصفات ذكرتها في سطور سابقة هي مكرها مخابية لنفس صاحبها فاذا لم تستطع شكم رغباتك المخابية لشخصك.. اجتهد في أن تكون مقبولا" بتصرفك وتكلمك و توقعك.. لا تدع طغيان النفس مالك قيادك والآ كنت في المآل قاتلا و سارقا"

و غاصب مال وهاتك شرف فاذا استعصت عليك نفسك إنثنِ عن الثورية والحزبية والوطنية الى مرفق أو وظيفة لا قدرة فيها على أذى الآخرين فالنزاع الموسوس في ضميرك لابدّ يحملك على ما تشتهي نفسك.. والواقع هو أن هذه الملحوظات جديرة أن يستوعبها من يصل الى قيادة الحكومة والحاشية المحيطة به، فالتزام بالملحوظات المذكورة هو عند ذا قوس الحرب فالظرف المشحون بالشارات والأشارات يبث في النفوس زيادة حماس الى الوقوف بمستوى الحدث ولنتذكر كيف أن مقتل ولي عهد النمسا سنة ١٩١٤ في مدينة سراجيفو أوقد شرارة الحرب العظمى الأولى: نعم، كانت هناك خلافات كثيرة على المصالح بين الدول لكنها بقيت خامدة وكان من الممكن ان تبقى خامدة الى أجل مسمى أو غير مسمى. اذكر في هذه المناسبة أن ثلاثاً من دول امريكا الجنوبية كانت مشتبكة على اعلان الحرب اما على هذا الغريم - كما اتذكر - فنهبت بنار تلك الدول واشعلت حكوماتها على ترك الحرب وصرفت ميزانيات الحرب في مدّ شبكة الخط بين الدول الثلاث وعلى ارتفاع ما بين ٨٠٠٠ - ١٠٠٠٠ قدم في نقطة تلتقي فيها الحدود الثلاثة واقيم الى جانب الشبكة تمثال عظيم للمسيح، وكانت ملكة بريطانيا هي المحكمة في النزاع. انا نعلم أن الأحداث تقع على كل شيء ولكنا يجب ان نعلم ان منع الكوارث ليس بالأمر المستحيل ونعلم أيضا أن الأماني والأحلام ومن الظن بالفلك الدوار - كما يقولون - يمهد للتعامل مع الأمور وهي بعد كلمات وافكار وآراء واحتمالات وليست وقائع محققة وقائمة وحاضرة. ولنعترف جميعا بأن في ضمائر كل الناس نزوعا الى البروز والبطولة والقوة حتى وهو لا يملك شيئاً من تحقيق أمانيه مع هذا حظة التفاوت في مقدار الميل من شخص إلى شخص. وأقرب الناس الى اشرة ناس ذوو نفوس طامحة وإرادة مقتحمة فهم أحرياء أن يارعوا الى المخاطرة متى ما تهيّأ لهم حيازة السلطة.. وربما كان صلاح الدين الصباغ من هذا النمط فقد دفع العراق الى ما سمّي بحركة رشيد عالي سنة ١٩٤١ في حرب الانجليز وقد ظهر ان القسط الأكبر من دعاوى البطولة والوطنية كان هشاشة الأرضية التي انتصب عليها فرسان الحركة مضافاً إليه اعجاب الصباغ بنفسه ونزوعه الى الأولية والقيادية وحيازة السلطان.. حتى اذا وقعت الواقعة هرب القائمون بالحركة الى خارج العراق ويستثنى منهم المرحوم يونس السبعاوي فقد طلب من الكل أن يقاتلوا حتى الموت أو النصر ولكن لم يلتفت اليه أحد.. والتاريخ مليء بالأمثلة في تحريك (الأمنية) لارادة الشخص المتصف بالنزوع الى الصدارة فيحصل الفوز مرة والأخفاق مرة. وما أظن أن احداً من يراتيه الظرف المغري بالمغامرة يمتنع عن المخاطرة اذا كانت الظروف تبشر بنسبة ٤٠٪ من النجاح - على ان هناك من يعد القائمين بالحركة مختلفاً بعضه عن بعض فقد نجا معهم فلسطين ورشيد عالي وأعدم اربعة من الضباط اولهم صلاح الدين - وأعدم يونس السبعاوي، الوحيد بين المدنيين، وقضى آخرون من غير الضباط مدداً في السجن.. ومما يعتبر من عجائب القدر أن الضباط الشهداء الأربعة من الأكراد الذين التحقوا بالبارزانيين ثم رجعوا الى العراق وسلموا أنفسهم للحكومة أعفوا عنهم وسلطات كثيرة وهانة وكانت الذريعة أن اعدام الضباط العرب الأربعة قبل بضع سنين لا يترك مجالاً لاعفاء هؤلاء الاربعة من الأكراد من الاعدام وحركتهم مشابهة لحركة أولئك.. هذا الكلام يعزى الى عبدالاله وإن يكن يمثل وجهة نظر النظام الحاكم والقيد قائم بالمرصاد لسخرية ثانية فالضباط الثوار في ١٤ تموز ١٩٥٨ قضوا على العائلة المالكة وعلى نوري السعيد ثم دار الزمان دورة اربع سنين فأعدم عبدالكريم قاسم والمهداوي وطه الشيخ أحمد [لست آسفاً عليه لمرارته ولم يكن آذى أحداً]. محكمة المهداوي خلقت ذريعة في مقتل أحد عمال الميناء بالبصرة قبل ١٨ سنتين [كما اتذكر] وكان سعيد القزاز موجوداً بالبصرة اثناء الحادث فأصدر المهداوي حكمه باعدامه واثنين من منتسبي الداخلية. اما سعيد القزاز فانه بقوته المشهورة في فتاح محكمته [عندما أصدر درجات المشنقة] أبدى كبيراً من الناس تحت قدمه لا يستحقون الحياة أكسب شرفاً مضافاً الى نبله حتى ان المرحوم كامل الجادرجي قال: ان ثورة تموز هي ثورة سعيد القزاز !!

لا يجلو من فائدة أن أبدي ملحوظة حول (الحرب) كحافز على المخاطرة وتحاصل الربحة: فأنت تعلم انه اذا حصلت حرب بين دولتين فانه كل واحدة منهما تستنفد الجهد في القضاء على الأخرى على حين نجد النزاع الحاد بين شخصين على مسألة لا يبلغ بالطرفين حد القتل، ولكن: إذا ثار النزاع بين هذين المتنافسين على قيادة الشارع توصلاً الى الحكم فان كل واحد منهما يفعل بالآخر ما تفعله دولة بدولة اخرى تحاربها. و من هذه الحقيقة يبدو لك أن الظرف المتكهرب يبث في المناضل فضل حماس وعناد لا يجده في نفسه وهو يقضي يوماً عبر متكهرب بنذر الحرب. ومن هذه الحقيقة الفاقعة في (هدايا) الحرب الأمم والأمراء للمتخلفة في العالم الثالث بعد العشرين يجب اعتبارها الملعونة الأولى والثانية والعاشرة في جدول الكوارث المحتملة الوقوع: هنالك فرق كبير بين أن يحرق سيل واحداً أو أكثر من الأفراد وبين أن يقتل بارام صديق أمه وزميل كفاحه جنيد، بسبب خلاف في الرأي حول موضوع (فائض القيمة) أو أفضلية المظاهرة قياساً الى تنظيم مضبطة.. تعسة وتعسة بالمئة من مناضلي الثورة العرقية أو الطبقية أو الدينية في دنيا المتخلفة يذبحون عزاءهم بمزاج من يدخل على عروسته ليلة الزفاف. وقد يتحقق عليه القيام بما هو منتظر في تلك الليلة ولكن ذبح العريس شرف لا يفلته.. وبالأمس!

مهما حاولت تصوير مواجع الحرب سواء بين الأعداء أو بين أصدقاء الأمس لن أبلغ بمخايلة واحد من ألف مما هو مخزون في وجداني من آثارها وما يعقبها من عداوات وثارات قد تغرق الجيل والجيلين فاذا غيبت العداء الفاجع من اليسار الكردي ضد الجناح القومي الذي قاده مصطفى البارزاني [منذ أيام] عبدالكريم قاسم ثم قبعت إليه حرب حلفاء الحزب القومي في ١٩٦٤ وما بعدها والى يومنا هذا وجدت أمامك بيدراً من الخسارات المادية و هلاك النفوس البشرية وانهدام الأسس الحضارية وفوات الفرص أمام الأماني القومية ثم تقمصت في بؤس الواقع الملتبس بالوجود الكردي المهدد من حوله في دائرة مغلقة بين الأعداء وجدت صورة طبق الأصل مضغوطة الماجة لعرض المدلول المفهوم من عنوان هذه الكتابة في تشبيه دنيانا بمستشفى مجاذيب.

الحرب في مجمل مضمونها كمجنبة خاسرة: فالجهة التي تكسب الحرب تكون قد دمرت كثيراً من دورها وأسرها وعمرانها وخيراتها وشرف انسانيتها - ثم تحول الحال فتكون خاسرة في حربها قادمة.. وهكذا يكون النصر والخذلان سجالاً أو يكون الثمن المؤدى في النصر معادلاً [بل أقل تقاتلاً] لدعاياتها وقتلاها وهدر أموالها وضياع انسانيتها.. ثم يتربص المستقبل بالمنتصر فلا يتركه إلا مهزوماً مخذولاً سواء من يد عدوه المهزوم سابقاً أو عدو مستجد تحدوه النشوة الى الانتصار.

على أي حال لا تتوقف الدنيا عن إدارة دولابها إكراماً لخاطر واحد مثلي يتشدد حكمته، أجدك الله ثواب، على رأي وسمع من يشتري الحكمة.. بل ان هذه [الدرر] لربما بين بني امكرد والغاب القريبين منهم أعداء يفوق عددهم عدد المستمعين الى خطابها زعم ان ماضي تجاربهم كليها مفتوحة لعل حكمة وردت في ثنايا هاوان نظرة وسنانة من عين نصف مفتوحة ترى بوضوح فلق الصبح أن المستقبل لن يكون مطواعاً للخزعبلات التي فرضتها الرعونة على مدى ثلث قرن وأكثر ذلك أن منزع قوس السياسة العالمية في إغماض العين عن حماقات جهلة بدليا تميل الى الضيق حتى لا تحتمل لعبة (شاي كه مان)[1] في طلبة المصالح الكبرى والتراث المزق الباقي في أيدي الهاهتين يظل مواريث دولية تتيح حلوسة الهوموس لفترة اخرى من الزمن، هذا التراث ينتشر كجبات السجة اذ ينقطع خيطها وذلك قدر مقدور من زحف الأحداث وتراكم المشاكل ونذر النبوءات وجماع الايديولوجيات وحتم الاوزون وطبقة السكان المتخلفين بنسبة لهندسية.. التفجر.. تعرّي أرض الغابات.. قصور (العلاج) عن (العلل) شرة العداء على الخلافات.. اخلاصة ان مستشفى مجاذيب الارض لا يوسع صدره لجنونه متدروش غير ينذرم

(١). لعبة (شاه كه مان) تعني لعبة (ملك الألعاب): عبارة عن جماعتين في نزهة ربيعية خارج المدن تتبارزان الغرجة في نهاية النهار بتبادل الركلات شريطة ان تصيب الكفلين.. كثيراً ما كانت الضربة تصيب الفتق - هذه اللعبة اندثرت مع مجموعة اخرى كانت شائعة.

بلغ نوبات العصر. والواقع هو أن ما أفعله وأكتبه لا يهمّ أحداً فهو في غالب الاحتمال يقرأه من يريد الاعتراض عليه وتشويه مقاصده فيستفيد من عداء شيء غير محبب الى أصحاب النظرة الحديثة الذين يضربون عند الغضب. اما الشارع والسوق والريف، لا سيما ما كان منها أقل الناس قرباً من روح العصر، فهي في واد لا علاقة له بالمسائل الفكرية والحضارية وحقوق الأمة في مشاركة الحكم القضايا المتصلة بالشيخ والزين فالهم الأول والأخير هو حيازة القوت والسكن وفرص (الاستغلال) فقد سمعت من عامة الخلق أن جماهير من اعمار مختلفة انتهزت فرصة (الفلهور) في أيلول فكانت تذهل بناية عامرة بالمواد المشتراة وهي تحت القصف، فتذهل مع القذيفة غير عابئة بما يحدث. بيئة مستة في بلد آخر تنقل اشلاء من مضت أذكرني إلى بيتها لعلها تلقى نفسها بالتفرج عليها وكأنه الله غفوراً رحيماً. لو كانت البشرية المتألمة، الفقيرة - المهضومة الحق تملك من الجرأة في المطالبة بالعدالة [ولا اقول تصفية الطبقات لانها جرمية وتخلف] مثل جرأة اولئك النسوة في مسابقة قذيفة المدفع الى داخل بناية منهوبة [والبناية للحكومة وليس لبرجوازي لعين] لكان من السهل اقامة مجتمع مستريح وذلك بشرط واحد فقط وهو إدراك ما يجوز ولا يجوز فالعدالة كلمة جميلة ولكنها غامضة. اقول هذا مع علمي بأن العدالة المجردة وهي تاج الفضائل لا تستطيع اشباع الناس اذا كانوا الاختناق في الغذاء و الكساء والزراعة والصناعة وجاهد العلم التطبيقي والتكنيك وطرق المواصلات وتناهة الحكام و القضاة دون الحد المطلوب للعدالة. اقول هذا وانا أعرف أسى ما اسمعه في الاذاعات عن منع المرأة من التعلم في الثورة الدينية القائمة في افغانستان. ما أشد المفارقة بين مرب مفترسات ناب ثلاثة وبين نساء محرومات من كتابة اسم الخالق - ثم ارفع رأسك الى السماء و أصغ سمعك لما تراه وتسمعه من بيانات تأتي من المريخ الى علماء الأرض ترسلها آلة بعشرة شرائح الأرض لتأتيه بحقائق الكون - الذي منع المرأة من تعلم الجدهوز هو فضيلة أن يقتل علماء الأرض كلهم و أجهزة العلم الحديث برمتها احتفاظاً بنظافة الملكوت الأعلى مع ان الكون ليس فيه أعلى وأسفل...

من غرائب ما يتصف به الانسان هو سعة المسافة والمساحة بين خارطة (التصرف والتصور) لآحاد الناس وجماعات الناس فكما أن أبهام زيد لا يكون منطبقاً على أبهام اي من مليارات البشر كذلك لا تكون أخلاق وسجايا ومزايا وروحي واحد من الخلائق منطبقة على تفاصيل طبائع انسان آخر ولا على ملامحه بل ان عين اليسار لا تشبه عين اليمين وكذلك كل عضو مزدوج مثل الاذنين والمخرين واليدين والقدمين و أصابع اليسار واليمين حتى ان اظفر أي من الاصابع لا تتشابه بل ان ظفر اصبع اليمين يختلف عن ظفر اليسار [وللبهائم حكاية مماثلة الى حدما]. ذلك أن تطرد في هذا المنحى حتى تقول ان صوت اي انسان لا يشبه صوت إنسان آخر. يضاف اليه ان الصوت نفسه يتغير يتفاوت السن. فاذا دققت في تصوراته و نزوعاته و آماله ورغباته... الخ وجدت الفروق غير قابلة للحصر، ولولا أن المعاشة وضرورات الحياة الاجتماعية تحدث نوعاً من تماثل الأشغال بأدامة الحياة لكان الفرق بين ما يريده زيد وما يريده بكر على أشد ما يكون من الاختلاف: لعلك لاحظت بينك وبين نفسك كيف ان زيارة البناء في المدينة الواحدة لا يكون لها حظ من حيث الشكل والهندسة والطول والعرض والزخرف والأناقة والتهوية... والتفت الى عالم العقيدة: كيف تباعدت عقائد الاسكيمو عن الهنود الحمر عن الصوتشوت عن البيلمي عن الاسلام فالمسيحية الخ عالم الاديان يشبه سوق الهرج من حيث التنوع والتشابك والتزاحم، ولولا موانع ما بين اجتماعية واضطرارية وغير هاتين بحالا يعدو لاحتملت لطانة الاديان فليقة أن يحو بعضها بعضاً فما من دين الا اعتبر غيره من اديان الدنيا باطلاً بطلاناً مطلقاً حتى ان حروبا فظيعة ذات لقرون و أبادت

---

(١) مرت الاشارة فيما سبق من صفحات الى الحادثة المشار اليها.

من البشر أعداداً تفوق ما يحصل من مواليد جديدة ستكبر و تباد حتماً .. و أظنني قرأت في أكثر من كتاب أن عشائر في أعماق الدنيا ، لا سيما في المناطق غير المتمدنة ، أُبيدت عن بكرة أبيها . والحق إن الذي يسمى متمدناً ما قصّر في هذا المجهود ولعلهم بذلك قصدوا منع الأزمات الاقتصادية التي تحصل عند تكاثر البشر !!! وقد يكونون غافلين عن (التعقيم) علماً لأنه مخالفة . والعرب قديماً كانوا يدفنون الطفلة حية لـ يستوي ذلك واداً] فأبطله الإسلام ولكن ركن (الجهاد) وهو أكبر الفضائل عوض عن إبطال الوأد عشرات المرات فقد بسط سلطانه خلال أقل من مئة وخمسين سنة على امبراطورية الفرس و ما جاورها من بلاد الهند وأفغانستان و تركستان و غالب أرض ما يسمى اليوم تركيا ، ثم مصر وشمال افريقيا و الأندلس ... و بلاداً أخرى في أواسط افريقيا .. ولا يخفى لأطالة أكثر فما من بقعة في كل هذه المساحات الواسعة دخلت في الإسلام إلا بحد السيف [الآ ناذر جداً] . والمسيحية التي كانت بالأصل تمتد حضارتها اليمنى إذا صح هذا التعبير أصبحت دين الفاتحين شرقاً وغرباً و إلى أية جهة استطاعت الوصول إليها ولا نظن ان حرباً دينية استطالت لمثل هذه المدة كما استطالت الحرب الصليبية وقد كرّ الزمان عليهم بعد فتح استنبول و غلبوا الإسلام في مساحات واسعة في البلقان و انبعثت العداوات ما بين دينية وعرقية في أيامنا هذه ولا أحد يستطيع التكهن بالمصائر :

من أشد الرؤى غرابة أن جامعتي العرق والدين من أظهر علامات الإحساس بالمشاركة و التعايش ولكنهما في الوقت نفسه صارتا أقوى سببين للخلاف بين العروق والأديان - إن التنافس على الاقتصاد عامل لا يفرق بين الناس على أساس العقيدة فقد اشتركت أوروبا وأمريكا سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ وكان المتحالفون المسلمون حلفاء لألمانيا على حين كان العرب المسلمون مؤيدين للغرب ضد الخلافة العثمانية . ثم يمتد الخلاف والشجار بين مذاهب الدين الواحد وأحزاب العرق الواحد ويلاحظ أن فكرة الأممية لها أنصار ومتابعون في كل الأوساط والأعراق شأنها شأن الدين الواحد في انتشاره بين شعوب متعددة . ويزداد التشابه بين فكرتي الدين والأممية من زوايا نظر متعددة منها ١- إن أكثر الناس جهالاً وتخلفاً يتشبثون ويؤمنون بالنواحي المغرقة في عواطف الفكرتين المتعلقة بالأساطير والأوهام فالأممية الغربية تخلت عن مبدأ الثورة البروليتارية ولكن الأممية الكردية و أمثال الكردية من شعوب العالم الثالث تجعل من نبذة سطرين ، هتلر يوماً صداء شعاراً و تعبد لينين بعدما قلب سكان لينينغراد تمثال لينين و أعادوا للمدينة اسمها القديم « بترو گراد » ... وانبعاث الموقيتات كبيت من ورق [لا يستبعد قيامها في المستقبل جداً] ... ٢- في غالب الأحوال يكون تشبث المتدين والأممي بالقراءات السهلة الهضم والقريبة من منطق الطفل أكثر إثارة لهما و أعلى في مذاقهما ويكونان أشد كراهية لمنطق العلم والحقيقة المبرهنة . ٣- في حال الجذبة الصوفية التي تعتريهما عند حدوث الفلاقل يكونان في طليعة الطبيعة لطلب شرف الأولوية للحرق و التنكيل و الترويع كل في مجال عقيدته فلا توجد فئة سياسية تعمل في حقل المسائل العامة ممن ينتمون الى الأحزاب والتكتلات يحملون حقداً قاتلاً على غيرهم و غاية تميز بعضهم عن بعض في المنتمى هي اختلاف وجهة نظر من فئة الى فئة يظهر أثرها يوم الانتخاب للنواب فقد يختلفون في رأي (الضريبة التصاعدية) أو تأميم بعض المرافق او ... او الخ أما عامة الناس من ليس لهم انتماء حزبي فهم أقل تعرضاً من اية جهة كانت - ومن الطريف الطريف أن الفلاح المصري وبعضاً من عامة أهل المدن كانوا يبيعون أصواتهم لمن يدفع فيها ثمناً أغلى .. و بعد ذهاب الانجليز و استقلال مصر فقد أولئك الفقراء هذه المزية في كل انتخاب فقد صارت الأصوات كلها لرشحي الثورة .. فوجدنا ناساً من الأثرياء لم ينجحوا في واحد من الانتخابات التي كانت تجرى قبل ثورة ٥٢ يولية فصاروا في الصدارة بعد ذلك .. وحلت الاشتراكية محل الدين والديمقراطية

وصارت سلم الوصول الى المراكز المرموقة والمصالح المجزية، وكانت الطامة الكبرى في حياة مصر السياسية والاقتصادية، كما يدعي الاشتراكي (تيودور لنك) زيانه. واحكي لكم حكاية قصيرة حتى:

الحركة الاسلامية، قبل ثورة ٥٢، يوليه، قتلت اثنين من رؤساء وزراء مصر من الحزب السعدي هما أحمد ماهر والنقراشي. وفي وزارة ابراهيم عبد الهادي أعدم واحد [وربما اكثر من واحد] ممن ثبتت التهمة عليهم في قتل المذكورين. بعد ثورة مصر وعلى عهد الصفاء بين المسلمين والحكومة المصرية الجديدة قدم ابراهيم عبد الهادي الى المحاكمة وتقدم للدفاع عنه اثنان من المحامين فرفضت المحكمة العسكرية توكيل احدهما بادعاء انه كان من وزراء المتهم. فلما خرج الى الشارع أبرق الى المحكمة العسكرية يقول: ارجوا من عدالة محكمتكم ان ينال ابراهيم عبد الهادي ما نال من عدالة المحكمة العسكرية الانجليزية سنة ١٩٤٢ بتبرئة ساحته من تهمة القتل الموجهة اليه.. [هذه الحادثة منقولة من مذكرات النائب الوفدي ابراهيم طلعت..]

ولا حول ولا قوة إلا بالله !! لقد صدر فيه حكم الاعدام ولكن، ربما للبرقية المذكورة، لم ينفذ..

من باب التحلية بعد هذه المرارة يروق لي ان احكي لكم حكاية ما يلي: أحد ضباط ثورة مصر [وكان يسمى الثائر الأحمر] سمع لاحدى اصوات الملك فاروق المعزول بغادرة مصر وهجرها نهائيا وهو اهرها لقاء ليلة غرام. [هذه الحكاية ايضا منقولة من مصادر مصرية..]

لقد قلنا انه لا يوجد تماثل بين اثنين في الصورة ولا بين عينين او أذنين او منخرين. ولكن، لغرابة تبدو في أمور أخرى، واشدها غرابة على الاطلاق هي فيما يلي:

تعلمون أن أصوات البراغي [أقصد غالبا] كثيرة التشابه في النوع الواحد وكلما كانت البهيمة أقل تطورا كانت اصوات افرادها كثيرة الشبه فزقزقة العصفور وعندلة البلبل وأزيز الزنبور وحفيف الافعى.. الخ متقاربة جدا ونحن نعلم ان هذه الأصوات تحل في البهيمة محل اللغة عند الانسان لأن الانسان له صوت وله لغة، والصوت له حالات مختلفة باختلاف الحالة النفسية للمتكلم فيضحك ويبكي ويغضب ويخرج أصواتا للغضب والرضا والتهديد والاستحسان والرفض والقبول.. الخ الخ وكل ذلك يكون أثرا في منتهى الدقة في موضوع (لغة الكلام) فنحن نعلم ان البهيمة لا قدرة لها على تنويع الصوت الى الرقم مثلا ولكن ذلك يبدو لاشيء الى (أعجمية، اعجوبة، اعجاز) الكلام البشري ليس فقط لقدرة الكلام على الأفصاح رغم كونه معجزة المعجزات ولكن لشيء آخر اكثر غرابة أو لأقل هو عندي سر دفين لم يكشف عنه الحجاب حتى يومي هذا ولا أجد له تفسيرا.

لقد رأينا البهائم تشابه الأصوات، فكل بهيمة تخرج صوتا معينا لغرض معين والبهيمة من نوع واحد تتشابه في التفهيم ما تريد. لكن البشر رغم جامعة (العقل) والمنطق لم يختر لسانا واحدا فعلى قدر تعدد المجتمعات البشرية تعددت الألسنة بل ان المجتمع الواحد تختلف لهجة بعضه عن بعض ثم تتعاقب الاجيال حتى يضيع لسان أجدادها من أربعة أظهر، ولذلك اذا جمعت لهجات امة واحدة كبيرة كالهند والصين والعرب.. حار فهمك وزاغ..

ان حيرتي في اختلاف الألسنة الى هذا الحد المحير عاتاها أن أم اللغة وأباها هما العقل فاذا كان

دعارت سلم الوصول الى المراكز المرموقة والمصالح المجزية، كانت الطامة الكبرى في حياة مصر السياسية والاقتصادية قيام الدعي الاشتراكي (تيمورلنك) زمانه. واحكي لكم حكاية قصيرة حتى:

الحركة الاسلامية، قبل ثورة ٥٢ بليلة قتلت اثنين من رؤساء وزراء مصر من الحزب السعدي هما أحمد ماهر والنقراشي. وفي وزارة ابراهيم عبدالهادي أعدم واحد وعدد اكثر من واحد ممن ثبتت التهمة عليه في قتل المذكورين. بعد ثورة مصر وعلى عهد الصفاء بين المسلمين والحكومة المصرية الجديدة قدم ابراهيم عبدالهادي الى المحاكمة وتقدم للدفاع عنه اثنان من المحامين فرفضت المحكمة العسكرية توكيل احدهما بادعاء انه كان من وزراء المتهم. فاضطر الى الاستئناف أمام المحكمة العسكرية بمايلي: ارجو من عدالة محكمة سيادتكم ان تسمح لي بالدفاع عن ابراهيم عبدالهادي ما نالني من عدالة المحكمة العسكرية الانجليزية سنة ١٩٤٢ ببرئة ساحته من التهمة الموجهة اليه ... [هذه الحادثة منقولة من مذكرات النائب الوفدي ابراهيم طلعت.]

ولا حول ولا قوة إلا بالله!! لقد صدر فيه حكم الاعدام ولكن: ربما للبرقية المذكورة لم ينفذ.. من باب التحلية بعد هذه المرارة نروق مزاجكم بحكاية ما يلي: أصدر ضباط ثورة مصر وقائدهم سيمي الثاني لأسمح لأدهم صبحي لاصوات الملاك فاروق المخلوع بمغادرة مصر ومحرما شرقيتها وجواهرها الى قاعدة ليلة غرام.

هذه الحكاية ايضا منقولة من مصادر مصرية ..

لقد قلت انه لا يوجد تماثل بين انسانين في الصورة ولا بين عينين أو أذنين او منخرين. ولكن، تجاوزوا أن أصوات البهائم لا تقصد غالبا كثرة التشابه في النوع الواحد وكما كانت البهيمة في تطورها كانت اصوات افرادها كثيرة الشبه في فرقة الحصان وعائلة البغل وأنيق الزنبور وخليع الدفلى متقاربة جداً ونحن نعلم ان هذه الأصوات تحل في البهيمة محل اللغة عند الانسان لان الانسان له صوت وله لغة، والصوت له دلالات مختلفة باختلاف الحالة النفسية للمتكلم يضحك ويبكي ويغضب ويخرج أصواتاً للغضب والرضا والتهنئة والاستحسان والرفض والقبول الخ الخ على ذلك يكون أبراً في منتهى الباطل اذا قيس الى موضوع (لغة الكلام) فنحن نعلم ان البهيمة لا قدرة لها على تنويع الصوت الى الرقي مثلاً ولكن ذلك يبدو لاشيء الى (أجيبة، اعجوبة، اعجاز) الكلام البشري ليس فقط لقدرة الكلام على الأفصاح مع كونه معجزة المعجزات ولكن لشيء آخر كغرابة أو لأقل هو عندي سر دفين لم يكشف عنه الحجاب حتى يومنا هذا ولا أجد له تفسيراً نقرأ ان البهائم تتشابه الأصوات، فكل بهيمة تخرج صوتاً معيناً لغرض معين والبهيمة من نوع واحد تتشابه في التفهيم ما تريد. لكن البشر مع جامعة العقل والمنطق لم يختر لساناً واحداً على قدر تعدد المجتمعات البشرية تعددت الألسنة بل ان المجتمع الواحد تختلف لهجة بعضه عن بعض تتعاقب الاجيال حتى يصبح لسانها من أربعة أظهر، وقد اجمعت اللهجات امة واحدة كبيرة كالهند والصين والعرب صار فيهما فروع.

ان حيرتي في اختلاف الألسنة الى هذا الحد المحير ما تاها أن أم اللغة وأباها هما العقل فإذا كان

بشره لطبائع الأشياء يصنع تراثاً متشابهاً في انحاء الدنيا ويبني صيغاناً متشابهة حيثما كان البناء وتركب فاكهة من فاكهة اخرى في استراليا وفنلندا وبحور القماش ... الى آخر القائمة فبين اين تأتى الاستحالة للتعبير عن حطول المطر هنا وفي سفافوره بلفظ واحد. أنا أعلم ان الوصول في التعبير عن الرقم (٧) من طريق (١+١) لا يحتاج الى كلام لان صورة الغزال تدل على الغزال بلا لغة لأن الصورة و (١+١) كليهما تجريد ولكن يصعب القبول بانتفاء كلمة واحدة تشارك غيرها لأقوام الدلالة على معنى واحد فلأن كل عشيرة أو شعب من عشائر وشعوب الأرض حرصت على رفض شاركة غيرها من البشر في نطقها. والكلام يدور في أدوات مستقلة وليس أسرة شعوب كانت بالاصل واحدة ولا يطلب تماثلاً في الصوت والنحو وأقسام الكلام وصيغ تقدية الافعال بل يريد كلمة مثل كلمة (ماء) العربية كانت سارية من آلاف السنين بين الأقوام فلا نجد بين ذلك شيئاً. تروى كتب عربية عن رجل كان يقول انه يفهم من الكلمة الأجنبية معنى مقارباً لما تعنى فأنوه في كلمة روسية [كما اتذكر] فقال: أجد فيها غلظة أو صلابة... ولكن أقدم له كلمة (رق) في العربية وتعني اللطف والليونة وكلمة (رق ... ق) في الكردية وتعني الصلابة والقسوة تماماً أقرب الى التضاد... في العربية، مثلاً، تجد حروف المضارعة في أول الافعال علامات فقط ولا تفيد الايجاب والحدوث فانت تقول: يدخل ثم تنفيه فتقول لايدخل فالياء باقية على وضعها مع وجود (لا) النافية. على حين تقول في الكردية: (دكم) بمعنى (أفعل) ثم تنفيه فتقول (ناكم) فاختفت دال المضارعة لأنها تتضاد مع (نا) النافية ولوجبت على قياس العربية لقلت في الكردية (نادكم). الخلاصة ان لغات الشعوب في أصلها انسابت في مجريات لا علاقة لبعضها ببعض وسلكت في ابتداع صيغ المعاني المختلفة طرائق لم تكن المتكلمون بها من مكان البحر والكوالك المتباعدة فازدادت في الاختلاف بعضها عن بعض... تصوروا كلاماً في العربية متداولاً في كتب القواعد لغرابته يقول: رجلاً سأل فتاة من حيّ مجاور كيف عن أبيها فقالت له: فاءَ الى الفيء ليفيءَ الفيءَ حتى اذا فاء الفيءُ فيئهم. ومعناه: ذهب الى الصحراء ليصيد الصيد حتى اذا اقترب الظل يرجع.

كثيراً ما أفكر في الآية القرآنية (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) فأجد في اختلاف اللغات على الصورة التي تباعدت حتى لا يفهم أحدٌ من عشيرة (ك) أحداً من قبيلة (م)، اجد نوعاً من الاستحالة في تعارف ناس لا يفهم بعضهم بعضاً وهم سكان بلاد بينها مسافات شهور، وبعضها كان في أزمان لم تكتشف أمريكا لم يسمع ناس آخرون في دنيا أخرى بوجودهم. فاذا كان المجتمع الذي يعيش في بلد واحد ويتكلم لغة واحدة ويدين بدين واحد وعاش بعضهم أبناء جيل ثم يدخلون في الخصام ويغش بعضهم بعضاً ويتحاربون على الطمع فكيف يتعارف اهل كتلتنا مع أهل اليابان وأمريكا وهم لا يرى بعضهم بعضاً ويختلفون في كل شيء ولم يسمع بوجود بعضهم ناس من اوربة على بعد عشرة آلاف ميل. ألا ليت سكان البلد الواحد والحارة الواحدة والسوق الواحدة تعارفوا وتناصفوا حتى اذا نشبت بينهم خلاف عولج بالحسنى... بل أسف أن الخلاف بين الناس، لا سيما المتخلفين منهم، اقرب الى الوقوع من دوام الوفاق. فاذا كان المكان قفراً خاوياً لا شيء فيه يغري بالطمع تحركت النفس الامارة

الى البطر والتعالي واذلال الناس فتركك النفس العنية أن تنتشي وتنفش الريش وتشمخ بأنفها تقول: صل من مبارز؟

إذن علمنا أن تعاور كلمات من لغات مختلفة بلفظ ومعنى واحد لم يقع في تاريخ بني البشر فقد صرح ان قواعد اللغة [الصرف والنحو وحالات الاسماء والأفعال وما اليها] في عامة اللغات كانت قريبة بعضها من بعض كصرف الأفعال وأزمانها من ماض ومضارع وأمر ومن شتى لانواعها ومقدارها وطريقة تعدية اللازم وحالات الاسم من فاعل ومفعول به ومصدر وجمع الى تفصيلات كثيرة مذكورة في كتب القواعد. والسبب في ذلك حسب أن العقل اهتدى الى هذه الحالات لما احتاج الى الفعل والزراعة والحياكة وغيرها أمور مادية ملموسة تقوم البرهنة أيضاً بكثير من تلك التصرفات من باب ضرورات الحياة لكن صرف الفعل عبارة عن (تجريد) ليس له وجود ملموس فلا هو يذرع أو يُحب أو يُكال أو يوزن أو يُنقل... الخ كذلك الحال مع الاسم فصاحب الاسم إنسان ذو وجود مادي ملموس فكلمة الرجل لا توجد في غير العربية وتكن جمعها الى (رجال) تصرف عقلي يمكن ان يقع في كل اللغات. فاذا وقع في حال الفاعلية ضمن جملة معينة فالفاعلية تعبير تجريد لا وجود مادي لها. اذا انتقل الفعل من ماض الى مضارع هو في الحالتين تجريد ليس له وجود ملموس. من هذا يتبين لك ان حالات الكلمات التي تسير قواعد اللغة طبيعة أن تكون متقاربة في اللغات جميعاً لأنها سمات الكلام حتى ان بعض اللغات القديمة كانت تستعمل تكرار الكلمة الواحدة للدلالة على الجمع. ونحن وغيرنا في غير العربية لا نغلب صيغة للتثنية فنضيف كلمة تعني (الاثنين) في لغاتنا للدلالة على التثنية فنقول (اثنين رجل - دو بياو - اثنين طير two birds ... وهكذا).

كان من الممكن في قديم الزمان أن يطلع قوم على بعض شؤون قوم مجاور كمراسيم الفرح والعزاء وضرب العبادات والكفارات وآداب الصيد بالسلاح والكلاب وحلبات المصارعة وفنون الضيافة... الخ فيخلص من ذلك تسرب الفاظ من عشيرة الى عشيرة أو من بلد الى بلد. وكما من نصيب المرأة الكردية أن قلدت المرأة العربية في استعمال خزام الأنف على ما فيه من قبح وأذى... ومثله ثقب شحمة الاذن لحمل القرط لا يورث فيه. أذكر في هذا المجال ما كان من قول والدي ان الدبكة (الكردية المسماة سه ربي) [الثلاثية الأقدام] مستوحاة من عملية الرقص وتقليب الثوب بالرحى فالحركات في العمليتين واحدة تقريباً فكان من حسن الطالع أن انكشف لي أن اسم الدبكة ايضاً مشتق من الرقص لا من الفلاح اذ يقلب الثوب يستعمل رجليه وحركما الرحى فصرت "ثلاثاً".

من الملحوظ حسب ما تذكر كتب المؤرخين والمكتشفين أن القبائل غير المتصلة بالحضارات كانت عنيفة في سلوكها لا ترحم الأجنبي وتأكل من لحمه بعد قتله وكانت معقولاته ضبابية ما أخرت شيئاً مما أثرته ثقافات امم اخرى كاليونان والصين والروماني ومن قبلهم السومريون والاكديون و أهل بابل والاشوريين وثقافة الزراد شتية [قبل أيامنا بما يقدر بالفين وخمسمئة وثمانية آلاف سنة - ويروى لأفلاطون في القرن الخامس قبل الميلاد كلام مؤداه ان زراد شت عاش قبل زمانه بستة آلاف سنة ولم أجد من المعنيين اهتماماً بالموضوع]. ومن المستغرب حقاً أن الهوتنتوت والبيغمي

وقبائل اخرى مثلهما كانت على حال من التأخر لا يتصوره العقل. وأظن أن قاموس مفردات الهوتنتوت لم يتجاوز خمسين كلمة [قرأته في كتاب: افريقيا قبل التاريخ لمؤلف انجليزي] ولم يبنوا بيوتاً "اكتفاءً" منهم بأغصان الغابات [وربما بعريشة من فروع الاشجار]. والذين يتامى السياسين ويبرتاجات الكفزيون ان أكل لحم البشر لم يزل موجوداً بين اولئك المتخلفين... يثبت العقيلة له مثل امتياز (حكم الملوك الألهي). لكن الأمر في مجمله ميّال الى الاختفاء. فقد صارت افريقيا تحوي دولاً متعددة من الأفريقيين بالعواصم متقدمة في الحضارة وبعض سكانها بمستوى مدن اوروبا ولهم منتزهات، لا سيما في (الاخدود الأعظم) تبعث على الدهشة. فيالتعة ان البشر نفسه كان على شاكلة الجمال الطبيعي والجمال الذي صنعه بنفسه ولكن...!

كثيرة هي صور القبح والقباحة والظلم والخديعة والفتنة والتخريب و... الى نهاية قائمة ضخمة طويلة بأمثال هذه الكلمات فتحيل الاجتماع البشري كطعام سخرت زادوه ملحاً أو أضافوا اليه نفطاً فقد تلتبس لذاذاته وقد يفقد صلاحيته لكن [ ] يدعونا بوجود ما قدناه سابقاً من تشريع النفوس للحياة والصيانة وما قد يستلزمه ذلك من حد كثير أو قليل من استعمال القوة [في أحيان...] وليس بالضرورة ان يكون كل صاحب جاه أو مال أو سلطان ظالماً فقد يحدث أن القوي القادر يمتنع من الظلم لنفسه الحرة ويعزف عن الحرام، كما أنه ليس بالضرورة ان تكون الجماليد المسكينة المفتقدة للأسباب القوة لها بالمثل الرحماء ولكن الغالب هو كون القوي أقرب الى ان يلوذ بنفوذه وجمع المال وحيازة الشهيات كما ينتظر ان تكون أكثرية المالكين أهوط في (مدرجها على قدر حصيرتها) وتلك أحوال وقائع يألوف لا غرابة فيها ولا تلحق ضرراً كبيراً بالنسق الاجتماعي الذي يظل غالبية الناس. والواقع هو أني أرضى بين وبين نفسي ان يكون صلاح حال المجتمع البشري كصلاح حال السوق في قيامها على رضا الناس بالمساومة المألوفة وبالربح الذي يفرضه البيع والشراء على حسب قلة وكثرة العرض والطلب. ولو قلبت صفحات الماضي عن احوال المجتمعات وجدت (السوق) أدق مقياس لمعرفة الرضا والسخط بين الناس [خلافاً جارٍ في معتاد الأحوال وليس في أدوار الفوضى والظلم الصريح] فلا مكان لمزاج الشخصي في تحديد ثمن بضاعة معروضة للبيع وإنما العامل الحاسم في ذلك هو: جودة ورداءة البضاعة - مقدار العرض - مقدار الطلب. فالسوق حاسمة في فرض موازينها فلا يفكر أكبر موظف في المدينة ولا أكبر مقتدر بين الناس في الأدلال بما رسّت عليه احوال السوق من عوامل تحديد السعر، مثلها يتذلل المسجد والدير والكنيسة وبيت العبادة للمال والمنى كافة فالكل منقاد لشعائرها ودساتيرها وبغير ذلك لا تقوم قائمة للروابط الراسخة بين الناس وبين الله... فاذا ضاق الشك قلوب اللادينيين في خطورة السوق وبيت العبادة فليتذكروا دوماً ان السوق التي تروج فيها (البرجوازية) الملعونة [بنظر الداعين الى هدمها] مارست عملها على وجه الاستقلال في ربط اكناف الدنيا بعضها ببعض لا يحيرها الا ضرورة وجودها وتغييرها لا تكون حضارة حتى ان ما يسمى (طريق الحرير) هو أعجوبة ترقى الى مقام سور الصين الأعظم بل تفوقه من ناحية كونه هذا الطريق أقام نفسه بنفسه وبمقتضى احتياج الناس الى دوام. أما بيوت العبادة فقد كفاها خطورة شأنها أدامت الحج الى مكة والى القدس عبر مضايق ومهالك كثيراً ما هلكت فيها ألوف الحجيج ولا غاية لهم الا غفران لمعاصيهم

من رب العالمين. فاذا أعجب الملحدان يفند الدين بكونه أفيونة بورجوازية إلهاء للناس البسطاء عن مصالحهم الحقيقية فليتنبه الى وعيه المقلوب فالدين من هذا المنظور يزداد قوة وظهورة لان تمسك الناس بشيء باطل الى حد بذل المال والروح في سبيله طمعاً في جنة موعودة، هذا الشك له دلالة و ايماء الى قدسية تفوق التصور فلقد كان الاستغراب من قدسية الدين ينتفي اذا كان حقاً وحياً من الله أما أن يقترن الى حد افتداء الناس بالنفس والمال في سبيل رفعة شأنه وهو باطل فانظر وفكر. ان الدين من مراتب الشرف والكرامة عندهم تكمن فوق النقض والعيب والتفاهة وحركت في اثبات هذه أدلة تفنيدها زادت جلالاً وجمالاً في نظر المؤمنين برغم ان الماديين في عالمنا الثالث المصاب بعقم الفكر يغلوون في تمجين فلسفتهم الماركسية [والماركسية كفلسفة عامة شيء مختلف عما يردده ببغاوات السياسة] مثل ما يفعل المتدين في تقديس عقيدته فقد انهارت السوفيتات وانكشفت ضلالات ستالين الملوثة بالدم و ذهب بريق لينين ولكنهم متمسكون بنظرية الماركس كتمسك درويش الطريقة بأهبة شيخه: يتعذبهم في بلقع كردستان وتتغزل في أسير الذي يتطوى به (الاستغلال) هكذا بقدرة قادر فيصبح البروليتاريا [غير المولودة في كردستان] صاحب التاج والصولجان وتمطر السماء علماً و هواً عيناً فتبارك مدرسة أحسن المبدعين. والأمر سهل في نظر المرءوسين خصوصاً اولاء الذين منع العربات بخيول ثم العربات المتحركة بالدواليب ثم العربات المتحركة بالبخار ثم قاطرات من نوع فريد ثم حتى نظير بطائرات من صنع عمال أحمراوا و قرناخو وعمال النفط والبترين وقولوا لها عاش ستالين عاش... وليس في الموضوع الا نقض واحد وهو اننا لا نعرف كيف نتصرف مع الطيارة وما نوع البترين لصالح لها وكيفية بناء المطار والأجهزة اللازمة للارشاد في الاقلاع والنزول وسنتغلب على هذا الاشكال بعد بن عقرية ستالين: ألم يكن صاحب معجزة استعباد العامل والفلاح الروسي..؟ أم يحقق في تعامله مع الأوكرانيين و بولونيا ما عجز عنه القياصرة من تخنيث الشعبين..؟ ثم انه هو الذي بعث من الطراغ المعية ستخانوف حتى صارت السيارة السوفيتية تأتي من أواخر سيارات العالم...؟ كل عقيدة مهما بلغت من القدسية تبطل بطلاناً كاملاً اذا صارت dogma ففي كنفها يتساوى المتدين والسياسي والمتعصب لرأي علمي معين فليس في خرج (المعقولات) أي موضوع يتأبى على المناقشة والتجربة. الغريب أن اصحاب عقيدة واحدة كالاشتراكية يختلفون في تحديد معناها ومبناها باختلاف اجتهاد وادعاء فيشتد النزاع بينهم حتى يتشققوا عن بعضهم و يصبحوا اعداءً كما حدث في الخلاف بين روسيا الصين الشيوعيتين فأوشكتا ان تدخلا في حرب... جورج بوش زار الصين على أيام ماو فرحب وبعث معه أدلاء لرؤية شبكة أنفاق الحماية من الغارات الجوية تحت مدينة بكين وقال له: ان هذا الذي رأيته هو احتياط ضد روسيا وليس ضدكم!! اذكر هذا المثال لغرابة ما فيه من تناقض. كل الأدعاءات القائمة باطلة عدا واحد لأصحاب الفلسفة البروليتارية سواء الدول غير الحاملة لفلسفة ماركس في السياسة والتأريخ وغير المدعية لمصير مشترك حاربت بعضها بعضاً على مدى التأريخ بل ان دول الغرب حالفت روسيا الشيوعية ضد المانيا النازية في الحرب الكونية الثانية.

زيارة جورج بوش للصين على ايام ماو كانت قبل انتخابه لرئاسة جمهورية الولايات المتحدة.

على أي حال، كثيرة هي زوايا النقص في دنيانا المريضة لانتخاب الأمثلة المقنعة في صحة دعوانا ان المجتمع البشري، في تقسيمه، مستغن مخابيل... و للخبال درجات و انواع في مرضاته و يكتسب لونا بل طبعاً خاصاً بحسب طبع الشخص المصاب به. ويمكن التدرج في درجات الغرابة لتصرف المخبول قبل ان نختمه في أصل خباله فقد رأيت ناساً يغنون بإدارة وجوههم نحو على غير داع أو يبتسمون بلا سبب أو يزعق بعضهم مستغيثاً بالله أو بالكيلاني... بل رأيت قروياً في بيت عمي ارشك ان يغمى عليه حينما رأى الضوء اذ رأى مصباحاً كهربائياً يضيء الغرفة بلا نار على حين دهشت قرويين آخرين رأوا الراديو أول مرة فلم يندهشوا وكأنهم كانوا سمعوا بالكهرباء و بالراديو فلم يكن يعيب بعضهم عن بعض لسبق علمهم بتلك الأشياء. لكن هذا الضرب من العقلة لا ضرر منه ما دام تصرف الشخص نفسه مألوفاً، إنما الضرر يأتي من الانجذاب الى تطبيق (الشهية) بطرق غير شريفة وقد تكون (غير شريفة) هذه قليلة الخطورة ولكن اسماح في القليل يجر الى اقتراف الكبائر فأنت تعلم انه كثيراً ما تكون دعابة فكهة تحدث ضجة وقد تنقلب الى خصام ومهارشة سيل فيها دم يستوجب جناية غرامة. ان الاستخفاف بشعور الآخرين جريمة بحد ذاته فاذا أعقبه لفظ نابٍ حصل منه الضرب و الكلم حتى تستل الخناجر والسكاكين غدا للعار... قيل ان سيدة سألت صديقة لها: ماذا تقول فلانة عني؟ فأجابت: انها تقول عنك ما تقولين عنها، فجن جنونها وراحت تكيل للتهم مرتجلة اياها بسقوط الاخلاق وما اشبه. وهذه حقيقة ملموسة تصدق في اخلاق كثير من الناس بنشأتها (الأنانية) في احرى شكولها فكأن الشخص يرع غنمه في مرعى جاره ولا ينبغي له عرف واحد باستهجانه ما يفعل حتى اذا سرح شخص آخر بغنمه في مرعاه اختكم الى حكم الشرع و مراعاة الجوار و حسن الأخلاق... تلك هوامش مزعجة في المجتمع البشري، لا سيما الذي تخلف عن ركب الحضارة، ويلحقها شكوى من التصرف المتهاون الذي يطالعه القانون كأن يحتال الشخص في مقياس الماء والكهرباء وينقص البقال من وزن مبيعاته... الخ وناس آخرون معروفون بضبركة الأكاذيب المؤذية على غير داع من خصومة أو منفعة وقد يخترع الكذبة التي لا نفع فيها ولا ضرر ولكنه مرض نفسي يصاب به بعض ضعاف الحيلة إرادته عن حبس لسانه. وآخرون فيهم جنون العظمة أو عشق الذات وغيرها من أدواء النفس هي ضريبة يدفعها المجتمع متمثلة في ضياع الرشد و اختلال الشخصية أغلبها تضر ناساً لا ذنب لهم الا سوء الطالع أو سوء الصرف...

فئة من البشر تولع بالتلصص والتجسس على الآخرين لا سيما الاطلاع على عورات النساء. ومن أغرب احكام على أحد هؤلاء أنه كان منافساً لشخص آخر في فتاة يريد الزواج منها وهي لا تستجيب له، اي لراوي الحكاية، فانتهز فرصة نادرة في استحمام الفتاة ببيت ملاصق لبيت صاحبنا وكان قد أحدث ثقباً في الجدار يكفي لتصوير الفتاة عارية... وقال لي مفتخراً انه نشر صورها العارية بين ناس كان من بينهم الشخص الآخر و أكرر باهياً انه فضحها بهذه الصور فخازها... ومن باب زيادة العلم ان هذا الحقير كان شاعراً كويتياً و يبدو لي بهذه الحكاية كيف سودت بعد جفوة بيننا طالت أشهراً... والشهادة لله كانت

نسيلة

نموذجاً في الخشية والنجابة والتعقل - ولله في خلقه شؤون !!

هناك أنواع من عدوان الأفراد على غيرهم حباً في العدوان ليس إلا فلا محصول وراءها الا راحة نفس مريضة تريا قربها التلذذ ببلوى الآخرين. وأظن أولئك المجرمين من كان منهم يخلط لفتة تشمل خلقاً كثيراً ودما ترتفع لمنفعة مادية أو اعتبارية ينالها وهي صورة للشر المطلق يرى في ثنايين بعضهم خالصاً لوجه الشر. والواقع هو أنه في نفوس غالبية الناس، صالحين وفاسدين، نزوعاً ساذجاً الى توريط الناس في موقف يبعث على البسمة. ويقوى هذا الميل لدى آخرين حتى يرتاحوا الى وقوع هذا وذاك في فخ مزلج يبعث على الخجل. وآخرون يتمادون في نصب (فخ) للتندر وذوي النوايا الطيبة يتمادون في مداراة مرحهم. ثم يشتد ميل ناس آخرين الى الضحك على الذقون مقترناً بالأذى او الضرر المادي أو موقف ترفضه الكرامة. والملحوظ في هذه الأحوال أن ناصب الفخ للتوريط يستهدف فيه بشراً فائق القدرة على رد الكيد. في كتاب ألف ليلة وليلة (حكايا) منسوبة الى ناس ذوي سطوة يلجئون الى ذكاء احد من العامة منها أن أبا نواس قال في مجلس الرشيد: قد يكون القرد أقبح من القباحة غير الله الرشيد، حتى اذا قام من المجلس مد ابو نواس يده الى كفل الخليفة فجفل فاشتهره فقال ابو نواس: عذرا يا مولاي فقد ظننتك التي زبيدة. فقال الرشيد عذرك أقبح من القباحة يا فاجر! ان اختلاق هذه الرواية التي لا تصح في وهم الواهم جاءت من دافعين: أولهما إثبات ذكاء الراوي. ثانيهما نزوع الراوي الى الاستعانة بالتعالي الى مقام يعنو فيه الرشيد لأهمية الحاكي فمن الواضح أن هذا المخلوق المجرد من اي قوة أو شأن لا يشبع نزوعه الى التفاظم بالتندر شخص بمستوى الفراش أو الحمال.

نحن نعلم بالمباهاة ان آفة (الحرب) أكبر الآفات فهي تحرق الأخضر واليابس وتقتل الشيخ والصبي وتفني القرى والمدن وتنشر بها الأوبئة فيما عدها الجوع والمرض والدمار لتزداد عدد الموتى. وأعتقد بيني وبين نفسي ان ابتداع الحرب أفظع دليل صارخ على فجاجة وحمان البشر [استثنى صفوة مختارة من محبي البشر وبناة الحضارة] فيا هول الأفلاس والسقوط والطراوة لدى انسان يحلي أن يهين شخصا ضعيفا ثم يتسلط كالبركان المنقض على الناس يحصدهم حصداً ولا يطرف له جفن! فاذا غادرنا هوجة الحرب اللعينة وبشناعتها مباآت الناس أفراداً وجماعات حصلنا على بيدر من أمور لا تسر ومن أنواع ومراتب أولها المصاب بمرض نفسي لا علاج له أو لم يعالج عبر ولا أفرق في هذا بين سادي ظاهر وبين متغطرس يتعالى على الناس بالغلظة والأذى والأعنات فمن طبيعة أن يرتكب الجريمة انسيابا قائما تأكيد الذات...

والناس آخرون على الحد الفاصل بين الاستقامة والالتواء ويكون التزامهم بالاستقامة أثقل عليهم من الانجراف مع الشذوذ فلا حصانة لديهم ضد الجريمة لاسيما اذا كان ارتكابها ميسراً. ولأفراد هذه الفئة فرصة النجاة من السقوط اذا كانت الظروف المحيطة بهم نظيفة...

وهنالك ناس يستمرئون الجريمة للمرض ولكن لسببين أولهما فقدان الحصانة ضد الجريمة في البيئة التي لا تحث على نبذ الالتواء. وثانيهما تشرب أنماط المكنة الى صعيد المغالبة المشعرة بالاعتزاز وقد أثبتت تجاريب الأيام صحة هذه الملحوظة بما هو ظاهر من تجنب عامة الخلق تحريك حفيظة أولئك او إغاظتهم

بل إن كسب رضاهم بالمجاملة يعتبر من حسن السياسة ..

فريق آخر له شأن يختلف عما سواه ذلك أن آحاداً من المغامرين يمرقون ويقطعون الطرق ومنهم رجال ذوو مكانة واصحاب نيران وضيفة يحتوبهم من أشراف الدرجة الأولى : أما المرق وقطع الطرق فان غاية الاحترام لهم هي خوف الناس من بطشهم فما بالناس جُلُدٌ أن يمروا على بيوتهم على مدار السنة فقد تكفي مجاملتهم أو تسهيل بعض أمورهم ثمناً للأمن من اذاهم . أما الأشراف ففي المدن غالباً ما تكون سيرتهم مقبولة وإن كانوا يشاركون بقية خلق الله ينزعون الى الأمانة وصيانة الوجاهة والصيارة ولا تثريب عليهم في ذلك مابقي التنافس بينهم ضمن قصد سليم . والواقع ان مراءاة الوجاهة والشهرة باصطناع الثمن فيها جانب الكلفة أثقل كثيراً من كلفة المصلحة المادية .... كنت أراعب أحد اولئك الوجهاء فأقول له : إنك اذ يمرقون لك حماراً بخمسة دنانير تصرف في الشعير عليه وإفنائه ثمن بغل بعشرة دنانير ترضى بها دائرة الشرطة . من أمثلة كلفة الوجاهة اقدم لك هذه الصورة : اربعون رجلاً من عرب كردستان ايران جاءوا الى بندر أول الشتاء للتزود بالحوائج الضرورية فما صلوا ضيوفاً في ديوان صاحب القرية حتى نزل ثلج كثيف قطع الاتصال بقريتهم فاستضافهم [المرحوم بابير بابكر محمود] صاحب قرية نورالدين] أكثر من شهر في مضيفه بلا ملل أو عبوس فاحسب لكل رجل ثلاث وجبات الأكل اليومي لاكثر من ثلاثين يوماً واضربه في عدد الضيوف الاربعين فيكون قد اشبع أكثر من أربعة آلاف جل خلال فترة وجودهم ضيوفاً عليه .. رحم الله بابكر فارساً شديد البأس لم يكن يملك الا ثلث قرية لوجود أخوين يشاركانه في ملكية القرية . هناك مثل كردي يترجم الى العربية بمايلي : الحياة المملوءة بالطين خفيفة على عاتق من لا يحملها !

هذه الصور تمثل فراغاً ملحوظاً من خارطة الاجتماع البشري وهي لا تشكل ذروة المحنة في النفوس شرهة الى الفتنة والقال والقيل فضلاً منهم تجتره تلك النفوس ولا تهدأ فمنها ما تجمع التقولات حتى تصبح ضغينة محترقة جديرة بإثارة البغضاء وآخرون مشغولون بضبركة الروايات الكاذبة من شأنها أن تحدث ضرراً وعداوة تطول مكابدتها وتدوم آثارها حتى أن بعضها تتأصل فتنتقل من جيل الى جيل كجزء موروث من ميراث الماضي . وأجد أكثر من اسرتين دامت العداوة بين طرفيها لما يقارب مئة سنة حتى ان المصاهرة ما كانت كافية لقلب الصفحات الى صفاء : فانظر كيف ان وشاية من حاقد لعينة بعض سبب الجفاء ثم يستعصي العلاج حتى على يد لقمان أو سليمان فالقلوب كالزجاج الهش يصعب جبرانه .. وأضف أولئك الحثالات كتّاب الاضابير الى جهة رسمية في وشاية مختلقة حول مسألة ساسة بنظر السلطة . مثل هذا الواشي يرجع الى البهيمية بقدر علمه في تطير نقوم الفتنة فهو يتأخر الى وراء بقلمه فينتصب كذيل كلب أو بغل !! قديماً لم يكن الوشاة والنمامون يعرفون الكتابة فكانوا بالضرورة يعتمدون الكلام في التبليغ ضد الشخص المطلوب عندهم فتكون فضيحتهم مكشوفة عند ذوي السلطة الرسمية وفي ذلك فتح لباب آخر من أبواب الافتضاح يضيع فيه شرف الواشي مرتين فالموظف الذي اطلع على خسة الواشي يطلب منه تزويده بالبنت الشكلة أو الأمرد الأملس وتكون السعادة من نصيب الضغينة

ان تكون الضحية بنت الواشي أو زوجته أو ابنه على حب رعية صاحب الشأن ...

من خلال هذا الاستطراد يجب بيان حقيقة في حواشي الموضوع هي أنه على قدر بداية و بساطة الحياة الاجتماعية تكون كثافة وتعقيدات العلاقات التي بيناها أضعف وطأة و أقل تجريحاً بقياسها الى مجتمع فتحت عينها على واقع تربت اليه ا- بدايات الثقافة . ب- بدايات السياسة . ج- بدايات الاتصال المتشيط بالمدن المجاورة . اني أذكر بوضوح ان شباب كريستي في المرحلة الأخيرة للدراسة الابتدائية و الأهرين الذين التحقوا بدار المعلمين في بغداد و بالمتوسطة في أربيل كان الحماس يملأ رئاتهم بالشعور القومي حتى ان غالب كلامهم كان يدور في التحرر على ظلم التأريخ للشعب الكردي و يديرون النقاش في مواضيع مماثلة مع أهل السوق و طائفة الحجاج المتزمتين حتى تراءى الى الناس قول احد ابناء الذوات في شجب اولئك الطلبة فأفصح بالعربية يقول ، وهو يقصد اولئك الطلبة والمعلمين الجدد ، : الشلاليون يشتغلون بالشياشة ! فقد لاسم تخرج حرف السين عند اختلاطه بحرف الشين رحمه الله . [السريون يشتغلون بالسياسة] هذا مع العلم بأن الاشتغال بالسياسة من واجبات النظام البرلماني فلا يمكن وجود حكومة دون انتخابات فالادلاء بالصوت حق و واجب معاً و إلا تصبح الحكومة شرذمة من ناس مستبدين برأيهم وغاية صنعهم أن يضركوا قوانين من نوع ما ليمكن الركون الى صيغة كلام شرعي مفروض يراعيها الرعية دفعاً لبلاء يتشرها الحاكم بأمره . والتأريخ يذكر عن سيرة الحجاج بن يوسف انه نادى على الناس ان من يخرج عن الميل يُصرم خارج المدينة رجل بعد الغروب فسيق الى الموت فاعتذر بأن المناداة لم يصل أهل القرى . فقال له الحجاج : انك صادق و لكن في اعدامك صلاح لعامة المسلمين فأعدم !! ترى لو كلام الحجاج نفسه هو الداخل ليلا في المدينة فأمر الوالي بقتله فهل كان يتقبل الحكم بصدر رحب و قلب مستريح !! في شريعة الاسلام يوجد ما يسمى (سد الذرائع) وهو مبدأ سليم ومبدع في حد ذاته و المقصود منه سن القانون مشتملا لتفصيل الموضوع حتى لا يُعثار المواطن من عامة الخلق بسبب مخارم و فراغات في الصيغ يتأولها القاضي اذا شاء الالتواء . وفي المأثورات رواية موثوقة تقول ان أحد خلفاء العباسيين اراد بناء قصر على عرصة توجد في ركن منها دار لامرأة فساوموها على بيعها للخليفة حتى تكون العرصة تامة الاستواء فرفضت فبلغ الخبر القاضي أبا يوسف فبعث عليها فجاءت وخاطبها في بيع ذلك البيت فأصرت على الرفض فرفع لها السعر مرات وهرات بلا فائدة فقال لها : انت امرأة ناقصة الأهلية فأحكم عليك بفساد الرأي و نقص الأهلية حين يدفع في اشراء أضعاف أضعاف الثمن فنهرت القاضي وتركها ... تروى رواية مماثلة لسيدة من برلين ارادت جهة حزبية أن تأخذ منها بيتها فأبت بيعها فهددها الرجل فشمخت السيدة بأنفها و قالت وهي تخرج من قاعة المساومة : إن في برلين قضاة !!! يا بورك نيكما ايتها السيدة الملهمة ! و يا بورك في أبي يوسف و في الخليفة و في الشعب المقتدر ببرلين حين أذعنوا لحكم العدالة و المنطق ! يا ترى كم من مقام العالم الثالث يلين لصوت الحق حين يخرج من حلق انسان ضعيف و كم من المتحاكمين يلتزم جانب الضعيف !! أضاعت وجوه وشاهت وجوه ...

مررنا مروراً عابراً ببدايات الثقافة وبدايات السياسة وبدايات الاتصال بالدنيا. لا ينبغي قطعاً أن نجهل كون هذه البدايات في مبدأ أمرها مصدر تزوّد نظيف الى غاية نبيلة. وما تزدحم النظر وترصد فضل (الوطنيين) الحديث البلوغ تجد أن الطالب أكثر حرّية من معلم أصبح يتقاضى راتباً مجزياً [كانت ٨ دنانير ... دنانير راتب معلم ابتدائي لا يصرف نصفه فما أشهر] مصحوباً بمسؤوليات لا يجوز إهمالها في التدريس والانتظام وضبط السلوك. وما الى ذلك حتى اذا تزوج وتلاطف بيته ثم حدث منه ما استوجب نقله الى قرية موحشة أو بلد بعيد أعاد النظر في مناهجه القومي القديم واكتشف اسباباً وجيهة لتخفيف غلوائه لعله يعاد الى بلده أو يُرفّع الى مدير مدرسة. ثم ان تطرف الطالب الحالي من مسؤولية اعالة الأسرة أصبح بنظر المتزوج [لا سيما اذا تزوج معلمة] منهجاً حياتياً عقيماً غير صالح لغير الحضارة وتربية الناشئة فالدنيا لا تلتفت الى شرذمة شباب تردد شعارات وهتافات لا تغني ولا تسمن من جوع ويستعيد الأفندي أحوال الدنيا والدول الكبرى وعصبة الأمم ومذهب الامام الشافعي في شجب ما يسمى بعنوان المراهقة [والطفولة اليسارية فيما بعد حرب ١٩٢٩-١٩٣٣] وبحصل ما هو مكتوم من وجود منافسة على بلوغ وظيفة (مدير - مدير معارف أو مفتش س). ثم ان الطالب المتطرف يصبح موظفاً أو يتشيخ أو يتهاسل ولا تكوّنه الهداف القومية [والطبقية فيما بعد] تقدمت الى امام خطوة واحدة. ثم ان نشوة سرية توزع بالميل أو صخباً يقع بين الوطنيين [والطبقيين فيما بعد] وبين شرطة الحكومة أو جيشها رغم انزعاج السلطة ما أتت بنتيجة. ولو أضفنا انفسنا لقلنا بقلب مستريح ان كل الضحايا في المظاهرات وغيرها ما احت هدراً فقد دات الاوضاع التي يشكو منها المناضل على ما هي حتى حركة ١٤ تموز ١٩٥٨ وقد كانت انقلاباً من الجيش على الحكومة، فكانت آخر الآفات ومقبرة الآمال ونهزة الشر المستطير. ان الكوارث التي استمرت بعد فاجعة تموز ١٩٥٨ حتى يومك هذا وما تخللها من تربص الشيوعيين بالوصول الى الحكم ثم انقلاب البعثيين عليهم وما استمر قيام الحرب الكردية ضد كريم قاسم وسنوات الانفال وقتل البارزانيين الموالين للبعث من قبل البعث نفسه وحرب البعث مع الخميني لاكثر من سبع سنين ثم ... نزهة الجيش العراقي في الكويت الى آخر المقاومة الفاجعة وتدخل الامريكان وحلفائهم. كل هذا وغيرها من الكوارث محت من أذهان الناس في حكم ما قبل تموز وعذابات المناضلين الشيوعيين والأربعينات بطولاتهم ونزوعاتهم الحلولية المتواضعة حتى حدث في الحركة الكردية ما لم يكن يخطر على بال أحد من انشقاقها إلى فئتين تؤيد احداهما سكرتير الحزب الكردي (ابراهيم احمد) وأعلن انفصال المكتب السياسي من شعاعة ملا مصطفى ودخل في حرب خاسرة معه فكانت فاتحة اقتتال الأخوان ضرب بجمعه الى ايران ثم لجأ هو وجماعته الى بغداد ... الخ. مما لا يتسع المجال لبيان تفصيل ما حدث. كما ترى قد حشدت القوى من كردية وعربية وفارسية وأوروبية طرفاً قلقاً، لا سيما ما كان من أثر حرب الخليج في مجريات الأمور، فأصبحت المصائر تتمايل على نسمات المصالح الكبرى من نفطية وستراتيجية شرق أوسطية وما هو أوسع منها في نطاق عالمي. [شرح هذا الجانب لا يحويه كلام هامشي فأتركه من باب الضرورة وقلة الحيلة.] هذه هي القول الذي بدأناه في تصوير طموحات الوطني مع بدايات الثقافة

وبدايات السياسة وبدايات الاتصال بالأطراف فأصبحت مطوية ومسوحة في خارطة المصالح و الستراتيجيات الكبرى ولا يدري غير علام الغيوب ما مآل الكرد وما مآل المنطقة التي يعيش فيها الكرد ربما شعوب كثيرة في العالم الثالث مثل منطقة ان الشعوب ذات الكيان السياسي المعترف به دوليا لها ميزة الشرعية فلا يمكن تجاوز حقوقها من قبل دول أخرى فمن تجد العون من الأمم المتحدة ومن مجلس الأمن [وان يكن دور المؤسستين المذكورتين قد يكون فيه ثلم من حيث أن : ١- مجلس الأمن يمنح فيه دول لها الحق في استعمال (الفيتو) ضد قرار الأكثرية . ٢- قد تكون التكتلات في الأمم المتحدة مخازة الى جانب دونه جانب وراضية لبعض القرارات فيها صلاح دول ضعيفة] .

لعل من المفيد أن أطرق بابا طرقته إلا عابراً وطئ موضوع متعدد الامتدادات وأقصد به موضوع الكذب وهو غير التلفيق أي انهما ليسا شيئاً واحداً وكلاهما يختلفان عن التزوير وهو يختلف عن الخدعة وهي بدورها تختلف عن التغليط ثم عن التحريف ثم وهم الى فئة محترمة من أسرة هذه المفردات غير المحترمات . والملحوظ ان الكذب يعده عبارة عن (كلام) مجرد من مجهود عضلي أو فني أو تركيبي وهو بهذا يُعتبر أسهل وسيلة يحقق بها الكاذب غرضه [وقد يكذب بعض الناس لغير غرض معين] وبسبب سهولة الكذب يمكن اعتباره من أروح فنون (التمويه) على الحقيقة . اذكر من رصايا والدي قوله أن بعض الكلام قد يحلو بمزج نصه مع اضافة تحلية فاذا استطاع المرء أن ينصرف ميله الى التشويق بقدر ذلك الميل مرة ومرتين سهل عليه الاستباع من الكذب ! لقد صادفت ناساً من مراتب متفاوتة يكذبون بشكل مفضوح في سرد وقائع مألوفة مستحيلة وأولئك ناس مرضى بالكذب لا يملكون فيه خياراً وقلما يكون له ضرر بسبب سذاجة صاحبه من هذا الباب . تقول الأحدوثة ان والداً كان له ثلاثة اولاد فقال عن أكبرهم انه صادق في كل ما يقول وقال عن اوسطهم انه كاذب في كل ما يقول فانا مرتاح من جهتهما لكن ولدي الأصغر يصدق مرة ويكذب مرة فاحتار في أمره . [والناس فيما يحسنون مذاهب] .

انني لم أر اليوم انساناً يكذب دفعاً للأذى عن نفسه أو غيره .

ولا اليوم انساناً يكذب من جوع .

ولا اليوم انساناً يكذب بحكم مرض الكذب .

ولا اليوم انساناً يكذب جلباً لمنفعة ليس لها صاحب معلوم ، لا سيما اذا كان اقرب الى الفقر هو نفسه .

ولا اليوم انساناً يكذب من خوف .

وكل هذه الحالات بوجاهتها ومن عقباها تبدو قطرة من جدول الأكاذيب التي يتطوع بها الفقير والوسط والغني والمقتدر والمسكين . جابهتني حالات تطوع فيها من يحبني بمدائح غير صحيحة فلم أجد سبيلاً لرجعه الكذب صفحة المدح الى كلام عادي . في حالات نادرة صرت مضطراً لاجراح المادح بسبب ان سكوتي عنه يجعلني شريكاً له في موبقة الكذب . ومن غريب الأمر ان المدح المنثور في الصحف والكتب لا يجلب محبة المادح والممدوح . لكن بعض الغرابة يزول بسبب ان المديح من هذا النوع كلام معتنى به ومدروس وذو سند الا فيما ندر حين يشط صاحب الوهم الفاتر مدحاً أو قرحاً . ان اديباً

شاعراً بين فطاحل الشعر العربي، المتنبي، أجاز نقده مرتين بباب كافور الأخشيدي: مرة في أبياته المترفدة حتى قال:

أولاي هل في الكأس فضل أنالها ... فإني أغث مذ ميز وتشرب

فلما يئس من نواله ترك، بعد مغادرته مصر، قصيدته المشهورة في ذم الأخشيدي:

عيد بأية حال عدت يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد

والمتنبي عليناً ما في قصيدته المترفدة من جرأة تتصل بالعتاب!! لعمة المتنبي لم يكن لها دواء لأنه تحولته في الشعر قد ترفعه الى أعلى عليين ولكن لا بد له من جاه وسلطان هما عماد التقرب وتجاوز الاقران في الوجاهة ولو وضعوه في مقام الوزارة تنضلاً لعاد الى الشعر وهو يهش بتوقيعه ألوكة في اقتراح بهدم جدار مائل الى السقوط فلعله كتب مايلي:

فقوّموا الجدار أو فاهدموا ... بأي وجهٍ شئتموا فاخدموا !

المتنبي كان يبالغ في المدح والقدح وكلا الأمرين منطوٍ على تجاوز المألوف فهو كاذب كبقية الشعراء الماديحين القادحين ولكن عصرهم كان يبيح هذا الاغراق:

أرهبت أهل الكفر حتى انه ... لتخافك النطف التي لم تخلق

ولكن يبقى له ما عزز به جانبه من تجاوز الشعراء المترفقين الى عارف المنّة على ممدوحيه وليس له مثيل بين شعراء العرب، وهذه شذرة من الأسم الأخرى في جملة صفاته.

هذا الكذب الرائج سائر في المجتمعات سريان الهواء بين اعشاب الربيع ولكن بتفاوت ملحوظ من مجتمع بدائي لاضمام فيه للأنسان من البطش الدبالتودد والمراآة وطلب الغاط ومجتمع فيه كفالات الحضارة الراسخة المغنية عن النفاق في جميع الأحوال فقد نذر تطوع الشخص العتاد بالتزلف الى صاحب سلطة أو مال - ولا بد هنا من جملة معترضة من باب زيادة الوضوح وهي أن الاشخاص في اي مجتمع كان لهم طبائع وأخلاق متباينة فأنهم في نسبة التشابه بينهم من حيث الكذب والصدق يكونون متشابهين في الجمال وحسن الصوت ودقة الملاحظة واشتهاء المغريات وغاية الفرق أن (الكذب) لا يكون مرئياً على وجه صاحبه كما يكون الجمال والقبح باديين للعيان في كل حال. وتكون ظهورة الكذب الاعتيادي، وقد مرت اليه اشارة عابرة، أنه لا يطلب فضل فهم أو علم أو ذكاء وللعب ذات يشيع الكذب بشكل مبالغ فيه حتى أن الأخبار الصحيحة كثيراً ما تروى شوبة بالتبديل فتتغير عن الأصل وقد تنقلب الى ضده إما عفوياً أو قصدياً.

آفة الكذب في ساحة الاجتماع البشري تحمل منها حيزاً مخيفاً فما من خبر يروى الا تعددت صيغته من فم الى فم بل انك تستطيع استكناه ضمير الراوي في نوع التبديل: هل يقصد تعييب صاحب الخبر أم تنزيهه مما قد تكون فيه شائبة وقد يطلق الرواية بلراكة عبطة بالزراية أو بالاستخفاف وهو في غالب الحال يضيق ذرعاً بكلام يعزى الى تخصائه يوده اذا كان الكلام جريئاً فذو النفس القافرة يلذ له أن يحرف من الرواية ما هو موجب للاعجاب وهذا اقصى ما يقدر عليه من مراتب الشوق. والخبر المنقول خطاها عرضة للتغير بلا نية للتشويه، ولو تتبعت روايات الرواة في جمع القرآن والأحاديث لطالك الأمر فكيف بكلام عادي

استغفر

لا قدسية ولا خطورة فيه وانى ليومنا هذا كيف استطاع المؤرخون المسلمون القدامى حيازة الأضبار ورواياتها بنصوص متقاربة جداً واغرب من ذلك انه لم يعد شئ من عيوب تأريخ الاسلام والثوار أبطالها خافياً على أحد فكأن تلك المصادر كلها نوع النصوص المعروضة على الامتحان على أسلوب هذا العصر في التوثيق مع ان المؤرخين عصرئذ لم يكونوا من بلد واحد ولا عاشوا في زمان واحد وتعددت مصادرهم ولكن تقاربت آراؤهم لا سيما فيما هو الجانب غير المشرق في سيرة المسلمين وباليتك قارنت كتب اولئك المؤرخين في تفصيل التأريخ الاسلامي بكل ما هو من عيوب ما كانت مأصولة من ورثة القرآن، قارنتها الى تأريخ اي حزب ثوري كتبه الحزب نفسه في هذا الزمان فرجح بين عيبين كبيرين اولهما تنزيه الذات الى مرتبة الملائكة وثانيهما تقبيح الخصم بأقبح ما يمكن ان يوصف به بشر مجرد من كل شر أكاد أجزم ان مؤرخي الاسلام تحروا وجه الصحة في الاخبار بقدر ما تحرى أئمة الشريعة عن اليقين في روى تدوينه نصوص القرآن وأحاديث النبي وسائله بل الأغرب من ذلك أن علماء العربية من نحو وصرف وبيان وبديع استهلكوا نواتهم في استخراج القواعد بأدق المقاييس.. والحديث في ذلك كله يطول..!

فالكذب عمود شامخ من بين أعمدة مستشفى المجاذيب بسبب سهولته وتبذل الكلام الصادق الى كلام كذب عند الرواية يضاف اليهما شئ أهم من كل ما عداه وهو جبلة الانسان كل مترابط متداخل متباعد متقارب موجب سالب قابل رافض - الخ - الخ وراء كل ذلك عقلٌ أولاً ونفسٌ ثانياً [الجبلة غير العقل وغير النفس] فالمؤثرات ما بين مسموع ومحسوس ومرئي ومستقر ومظنون ومتخيل ومرغوب ومحتجب [قد يكشف في احدى الوقائع عند مقارنة معقولات الانسان ويشتبك بعضها ببعض فيصعب عند الرواية لقط خيط واحد هو المقصود بالذات منفصلاً عن بقية الخيوط فالغالب هو ترتب الايحاءات اليه من الخيوط الأخرى ولو بشكل جزئي فاذا كان الخيط المذكور منقولاً من راوٍ آخر فتأكد من تتبع الخيط الى ما لا يعرف له هوية. حدث اني تركت العراق الى الأردن سنة ١٩٥٨ فلم أكد استقر في احد الفنادق حتى وردتني اخبار من العراق ان مسعود محمد التقى مع الشخصية الكردية (س) في سوق قنديل وحكوا قصة بما دار بيني وبينه في عظائم الأمور!!

أنا لم ادرس تكوين الانسان في هيكله العام أو في بنيانه الوجداني وان كنت على شئ [ربما غير قليل] من الدراية بطبائعه فكما أني اعرف تشهيه (للبن) من يراكيره حتى أواخر عمره [وفي حالات كثيرة الى مدى قدرته على الأكل والشرب] فاني عند غاية ما أعرف ظاهرة كذبه بغالب انواعه ولمتُ الى صاحبي انياقه الى الكذب بسبب أو بغير سبب فالكذب طبيعي وكلفته أرخص من التراب ويرقص على ألف نوته بل لا تعداد لنوتاته ويملك آلة مختلفة من قاطع وهادم وصنجر وحارق.. الخ الخ بضاعاته التي تروق كل سمع بحسب ما ترغب. أما من أين يشبع؟ فذلك هو السؤال الشائك! ليس لي كتاب يشرح (الانسان) كما أن طبيعي مصنوع مما صُنع منه سائر الأحياء لكن (الكلام) لم يكن من مواليد الأحياء البهيمية فهي لا تستطيع الكذب وميزة من هذه الحقيقة ان الكذب وما في حكمه مختص بالبشر وحده فيكون من باب البديهية أن نقول أن العقل أولاً ثم النفس ثانياً شاركا في حبكة الكذب وواضح ان دور النفس في الضبكة بقصد الاساءة يأتي أولاً وعلى قدر غلبة الرغبة في الايذاء يكون الدور أشد وبالاً والذي هو واضح عندي ان دور العقل في معرض الكذب يكون أميل الى الحياد

ان لم اقل انه يكون مع الصدق اذا لم يوجد سبب يُخِلّ بهذه القاعدة.

من مصاديق هذا الذي قلته إن الطفل في طور براءته يكون صادق الكلام ولا أظن انه يفكر في الكذب بل انه لا يقدر على اختلاقه. ومن هذه المصداقة، اذا كانت مطابقة للواقع، يكون العقل بطبعه ساعياً للحقيقة فنحن نرى ونعلم ان الكذب في البلدان المتحضرة كالسويد والدانمارك أقل رواجاً الى حد بعيد بقياسه الى بلد متخلف. وقد يتردد أن يلجأ انسان متحضر الى استعمال اليمين اثناء كلامه على حين يلجأ الشخص من بلد متخلف الى ترصيع كلامه وهو يسرد قصة رجوعه من السوق الى البيت بأغلظ الأيمان فكأنه يدرأ عن نفسه تهمة السرقة أو القتل وغالب يمين الكردي الاعتيادي هو الاستغاثة بـ (شاه النقشبند) و بـ (الغوث عبد القادر الكيلاني) أما الدرويش والصوفي فقد يلجأ الى شيخ طريقتهما وصوته يرتفع بين عامة الخلق كلام مأثور عن الدنيا ودوارها نصّه: لو خُلِيت قُلِبت، أي اذا خلا الكون من ولي يديم الارض والافلاك انقلب عاليها سافلها فهو وكيل الله في الارض يحافظ بسلامة الدنيا الفانية خلال المدة السابقة على يوم القيامة. ويلزم من ذلك ان الولي لا ينام خلال آلاف السنين وأنه يراقب الملائكة في حسن قيامهم بالمهام الموكولة إليهم. ولا أعلم كيف يدرأ كيد الشيطان الرجيم وهو مطلق السراح من قبل الخالق منذ عصى أمره في سجوده لآدم الى يوم القيامة. لا أكتمك انني أحس بالضيقة إذ أرى البشر المتمدن يكتشف أسرار الكون ويسبح بين الكواكب ويسيرها على قدر الاطلاق لتسهيل الصعب بضاعفة الجهد الواعي المبذول في اشباع الجياع وشفاء المرضى ورفع الفاقة المتفرس وتكون نحن مشغولين بترديد الادعية ومضغ الكلام الفارغ والتبجح بحيازة الوكالة عن رب العالمين في حماية الأنس والجن حتى اذا حدثت ثقب في إطار السيارة عجز هؤلاء عن تغيير السيارة فاذا سألتهم ما بالكم عاجزين عن هذه المهمة الصغيرة وانتم تزعمون علم الساعات والأرضين؟ أتوا بأجوبة غامضة تكفي لتسلية انفسهم وعامة من يعيشون وراءهم. وتدور دوالب الهزيان في إعادة سكرة أسلاف البشر الذين يدقون الطبل لتفريق العفاريت عن القرى الخسوف والكسوف في الكون.

قلت ان العقل يكون مع الصدق اذا لم يوجد سبب بخلاف ذلك. والآن تتمة لما يلي:

اذا أصغيت الأديان ومذاهبها والمدارس السياسية المختلفة والايديولوجيات المتباينة في شتى مناحي الحياة وأصحاب الآراء الخاصة بهم تكون جبهة رحماً مذهلاً يتجاوز الألوف المؤلفة وكل واحد من هذه المناهل يكذب على المناهل الأخرى. كثير منها يحارب بعضها بعضاً فأنت تجد مجتمعاً بشرياً يرى الكذب في عروقه عن طريق تداولة (الحياة اليومية) فما دق ناقوس الا عارضه الأذان أو قيل في الهتاف السياسي (عاش..) برز آخرون صائحين (فليسقط..) وتشابكت النشرات والكتابات الصحفية والكتب المتضادة في حرب على الورق خليقة أن تنقلب الى نار وشرار وهي في كثير من الكفاف الدنيا تحرق وتدمر وتقتل وتفتح الوف أوراق الدعاوى الجنائية ضد مرتكب وذنب من لا تراه الى سجنهم بأوصاف وأفاعيل لا تنسب الا إلى أهل المواخير. اذكر من ذيول ثورة تموز ان ناساً كثيرين ذهبوا الى اوروبا فلما رجعوا كانت مدار مظهم أن الاوروبيين لا يفهمون شيئاً في السياسة والسبب في قولهم هذا هو ان السياسة في نظرهم عبارة عن النشرات السياسية والمظاهرات غير المرخص بها والتهجم على الاستعمار وامتداح الماركسية ولا ينصرف ذهنهم ان السياسة في اوروبا حارسة يومية وليلية عن شرطة مضطلعة فالسياسة والاقتصاد وجهان لعملة واحدة في الأمم المتقدمة. ولا داعي لاطالة الكلام.

الكذب بحد ذاته آفة هائلة ويكون الاتصاف بالكذب عاراً وشناراً وجريمة ضد البشرية.

أما التلفيق فشأنه يختلف عن الكذب المجرد فهو يجمع أشتاتاً من اجزاء الصيغ المتعلقة بشأنها ليكمل بعضها بعضاً كلاماً مفهوماً ومعبراً بالأثارة والترهيب معاً لكل الناس المفتونين بحكايات ألف ليلة وقصر الزمان وشعراء المقامات. تقول أفكوهة من سالف الدهران رجلاً اراد تجربة زوجته في الحرص على السر فقال لها انه في (المخراج) قد خرج من بطنه غراب أسود... وكرت حبات السبحة حتى بلغ الخبر ملك المدينة فبعث على المرتوم فقال له هل صحيح انك قد خرج من بطنك اربعون غراباً هذا الصباح؟ فقال له ياسيدي انا عربت مرض زوجتي على السر وكان عدد الغراب واحداً فمتى وصل عندك سقاطعه الملك بقوله: والله لقد صدقتَ فقد بلغني الخبر برقم ٧٩ فأضفتُ اليه واحداً فصار أربعين...!

عامة الناس من الشعوب المختلفة سريعو التصديق للمحالات وعلى قدر فخامة المستحيل يرتفع شأن الله في نظرهم فكأنه رب العالمين طفلٌ يزهو بزخرف له رأسان يجيء في القفا يتكلم بلغة العصافير ويخف (الله ويسير) مع طلوع وقت السحور خارج أيام رمضان...

الملفقون ذوو مهارة فهم أحرياء أن يمارسوا تلفيقهم فيما هو أخطر من اجزاء الكلام فقد يجمعون اجزاءً من روايات مختلفة في فترة أكبر من مهارشة بين اثنين أو ثلاثة أو عشرة من الاشخاص. ثم ان الكاذب العادي لا يمارس (مهنة) الكذب لكن الملفق يتربّص بسواه تعيينه على تلفيق الأمر الخطير والأخطر اذا أمكنه الأفكاه لعنة الله ولعنة اللاعنون!! يقول كلام منتقل من الفرنسة واكثر: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

ثم ان التلفيق لا ينحصر بالكلام [والكلام المكتوب] فقد يستطيع شخص ماهر في الحيل أن يلفق ادلة ليس فيها كلام وانما آثار محسوسة وأشياء مملوكة لشخص معين ونفثة فعل بباب فلان تجمع لتصبح برهاناً جريمة افترضها صاحب الكيد ولكن ثبتت بالتلفيق في ذمة البريء.

والكلام في التزوير والكذبة والتغليط والتحريف وغيرها من فنون الشياطين كلها من اخوات الكذب والتلفيق وتشاهم جميعاً في بنيان مستشفى المجاذيب العامر بأهله. أما الجانب المشروع من هذه الحرفة الملعونة فهو كل كذب وتلفيق وغيرها يحفظ حياة البريء ويكشف تآمر الأشرار ويردع بطشة الباطش ويوصل الحق الى صاحبه ويوقع المجرم في العقوبة التي يستحقها [عند التأكد من إجرامه]. هذه الناحية المحمودة على المصلحة تشبه استنباط الفخ والمقلاع والرشق وغاليها باعتبارها معينة على مصالح العيش ويدخل فيه النصل والسكين والمنشار... الخ ولكن يشترط لشرعيتها الاستعمال في المحظورات وليس الصيد مثلاً، يعتبر عدواناً ما دمنا قد حللنا تسمين الغنم والماعز والبقر والديك الرومي... الخ وتأكل السمك والغزال وماعز الجبل والأرنب في الصيد وبالاستغفال والحيل... ومن المفارقات العجيبة أن الخنزير قد عتبر من البهائم النجسة فحرم لحمه في الأسلام وداست بذلك سلامته الا في صيده وهو قليل، اذكر انني في حياتي كلها ذات ليلة بأحدى السفارات المسلمة قد تناولت قطعة لحم ضئى قطعات كثيرة في صينية كبيرة فلما مضغتها علمت انها لحم الخنزير ولم أجد مجالاً لنبذها من فمي على رأي من الناس. وليوم هذا

أحس نوعا من التقزز كلما ذكرت تلك الصدفة. ويشبه هذا الأمر ما قد يحلم أحدنا أن الدجاجة ذبحت في غير موضعها الشرعي وقتيرها فلا تعود تمتد اليها يد الا فيما ندر. وذلك أن تقيس من هذه الأمثلة السابقة صعوبة تبديل الدين أو المذهب أو اختلاف السياسي.. بل ان ارتباطك بمحلتك وبحارتك وبأزقة مابين البيوت من اطرافك يعيش معك الى أواخر العمر بل ان الناس ليدفنون موتاهم الا في مقابرهم وهكذا.. هذه الألفة تكون مفيدة من جهة الانسانية ولكن تشوه حاجز نفسي بين الفرد [والجماعة] وبين افراد وجماعات على مسافة شاسعة من الاتصال لكي يصل الاتصال بين الجار والجار كل يوم يكون له مردود سلبي دون قصد يمنع صوت ألفة من اساس المشاركة الوجدانية... الواقع هو أن الكائن الحي هو من حيث (طلب السلامة) يكون شخصه محور توفير السلامة [حالات معينة مثل الدفاع عن الأولاد والأقربين لها موقع وصوت نعرفه جميعا] ويأتي من هذه الملاحظة أن العدو هو محور الاهتمام بدرجة كبيرة وبموته في أحوال كثيرة. في فلم بعنوان Vikings يحصل عراك بين ابنين أحدهما من اب ثايكنگي والثاني من الأب نفسه ولكن من أم هي زوجة ملك بريطانيا ويدور ان يعلم هذا الابن حقيقة الحال. يحس أن سيف هذا الثاني ينكسر نصله فيتردد الأخ الآخر [وهو يعلم أنه من يحاربه أخوه من ابيه] ولا يطاوعه قلبه على قتله فيفاجأه الآخر ببقية نصل سيفه ويقتله وكان يردد مع نفسه لماذا لم يقتلني؟ وظلت علامة الاستفهام حائرة !!

ما أروع سمة الرحمة اذ يمارسها شخص قادر على عدم الرحمة !! وفي قلب المعركة !!؟

صلاح الدين الأيوبي كان في الفتيان وينوع النبل في حربه مع خصومه وازداد نبلا في معاملته مع أهل الصليب ولكن ينبغي القول بأن المبالغة في النبل الى حد اغراء الخصم بالجرأة عليه شيء ليس من متممات الحصافة ولا من النبل في عرف مصالح الدنيا المتعارف عليها فقد كفى نبلا وحصافة تجنب الختل والخديعة الشائنة.

وأخرى آفات مستفادا المذكورة أن الغالبية العظمى لكافة العالم المتخلف ألقت قيادها الى شخص أو جهة أو حزب أو دين فأراحت نفسها المتخمة من صداع المناقشات والمناقضات والتقويمات والترجيحات في كل المصالح والمرافق والبرامج التي يثور حولها النزاع أو تختلف وجهات النظر بين ناس مرخين للآراء بالرأي سواء في لين أو في غلظة وسواء بفهم أو نصف فهم وسواء بأمانة أو بغيرها فلا يشترط في هذا الميدان علم ودراية وحصافة وتجربة وأمانة لان الذي يمنح الشخص حق الرأي هو الاعتزاز بالذي معه ودراه من المؤيدين وما يملك من رؤية سياسية يمكن الدفاع عنها في البلاد الديمقراطية [وما عنده من قوة الاقناع].

من قناعات (المدينة) المختلطة من افكار قديمة عاشت آلاف السنين وكشوف علمية بلغت حتى اليوم استنباط البشر وكانت قد جاوزت رؤية الوليد وهو في بطن أمه يوما بعد يوم تحت بصرك و لا أقول قبل سمعك لان الجنين لا يبكي ولا يضحك ولا يتكلم وهي كلها أمور في بدايات النشاط العلمي فانا تنبي للبشرية أن تدرأ عن نفسها مخاطر الفناء بالنووية وغيرها فهي مدى ألف سنة أو أقل تصبح خفايا اليوم الراهن المستعصية على البيان في سهولة تحريك مجارة الدابة، ويحاذر ...

الأمل في تجاوز سرعة الضوء في أن يأتي زمن يرتاح اليه العقل الرصين ثم يصبح ذلك لعبة أطفال فلا غرابة تبقى عندئذ أن تختلط الاحياء المنقضية والحاضرة والمستقبلة في تشابكات علمانية حتى تعطي بشر المستقبل صوراً لا مصدر لها من مشهودات ناطقة أو موحية بالرؤية بما لا يخطر على اذهان هذه الأيام؛ وما يدريك فلعل قدرة العلم المقارب للكمال أن تعرض مشهداً حياً غير منذ نصف مليون سنة في أكناف أرضنا المعطاء كما تعرض عليك الشاشة حالات الأمم في تلفزيون اليوم فتجد أموراً في سوى نظرك من اوروبا و أمريكا و طقطق سلام لا تستطيع رؤية دار جيرانك مما حولك. اقول ذلك من باب تقريب الموضوع الى ذهن من يهتم بالاحتمالات المستقبلية في ضوء العلم الذي سيقارب الكمال، اقول ان حروف الهجاء ذات عدد محدود لا أظنها تتجاوز الاربعين حرفاً في أبعد احتمال ولكنك تجد في قواميس لغات الدنيا كلمات مركبة من بضعة حروف يتجاوز عددها المليون بل يمكن تركيب كلمات من ترتيب الحروف كما اتفق لا يحصيها العدد: الكلمات المركبة من حرفين قليلة العدد فاذا صارت ثلاثية الحروف جاوزت عشرات الالوف ثم تجاوز المليون فالمليار فالمليار، واذا جعلت حروف الكلمات عشرين فأكثر هناك طريقة لمعرفة نسبة الزيادة بزيادة الحرف الى الكلمة لكني لا اعرفها. فاذا كان شأن الارقام التي نحن بخلقها يخرج عن نطاق استيعابنا فما رأيك بكون لا نهاية ولا بداية له ويستبطن مفاتن واسراراً وعجائب وأعاجيب (قد نرى تناقضات) متشابكة متداخلة متفارقة ملتحمة طبقات وطبقات فوق طبقات وشراكٍ وفجوات وخلوات ومواد من غير طينة مادية نفتادها، خليقة أن تحوي مذهلات اذا تراءت لافهامنا شُلّت عقولنا وهمدت احاسيسنا واستغربنا خلال صنيعات الصحو أنماطاً واشكالاً من (الموجود) حولنا لم نألفه ولم نتصوره ولن نتفهم نوعية طبيعتها فلا هي سائل ولا غاز ولا جماد ولا طاقة مطلقة ويغيب في جبلتها الوزن والجاذبية وقابلية التكيف الى صورة يريدها شيء أو مخلوق (فوق بشري). فاذا شبعت يا حارثي من مطالعة هذه السطور، فهل أدنى مراتب الغرابة في الكون الذي (أنا أتصوره) قد تجادلني في: كيف؟ ماذا؟ متى؟ اين؟ لماذا؟ هل؟ أم؟ أو؟ فلن يفتح لك قدر خردلة ابرة في الكون المرتبط بالفناء المطلق... واقصد الكون الذي يتراءى للفهم البشري بعد وصوله في معارفه الى مجاوزة سرعة الضوء فندخل في (حال مركّبة) عزيزة عليك فأنت تغادر الحاضر وتدخل في الماضي فتطويه فيحصل للزمن تراجع بالنسبة اليك وأنت تجاوز سرعة الضوء فتكون قد سبقت الزمن واصبح الزمن هو الذي يلاحقك فلا يلحقك... ستجد أن يوم أمس قد عاد اليك في مرورك به وتراه متراخياً في حركته وتحس ببطء التراخي اذا قللت من سرعتك حتى ترجع الى سرعة معتاد الوجود المادي والآفاق مرورك به وأنت منطلق بسرعة الضوء أو بما هو أكثر من سرعته، يكون سبباً في تراجع الماضي بسرعة الضوء مطروحاً منها السرعة العادية للكون الذي تعهده وبما يفوق سرعة الضوء مطروحاً منها تلك السرعة العادية المألوفة لعالم مفاتن الفيزياء التي نعرفها. ويبقى ان نجد فرضية في ظل سرعة الضوء وما هو أسرع لمعرفة الكيفية التي نمارس بها الحياة والكينونة لأننا إذا بقينا في هذه الممارسة بمثل ما كنا أثناء حياتنا قبل اقتحام سرعة الضوء وما هو أسرع فان مضغ لقمة واحدة يستغرق زمناً مقداره ٢٤٠٠ ساعة اذا طرنا بطيارة سرعتها ٥٠٠ ميل

تمثل المسافة بين الأرض والشمس[1] على حين ما إذا كنا نتصرف طبقاً لسرعة الضوء فإنك ستخضع جهاز الهضم لمتطلبات السرعة المذكورة فلا أدري، والحق يقال، هل الهضم يستغرق وقته المعهود وبذلك نكون قد طوينا خلال ذلك الوقت مسافات فلكية بحتة أو فيزيائية أم يلتبس بالسرعة المذكورة فيحصل الهضم في (لا وقت)!! أقد يكون هذا الكلام على شيء من المجاهدة وقد يكون من تخاريف الضياع بين واقع نعيشه وواقع نتخيله مردود الى سرعة الضوء ولست ضليعاً في الرياضيات والرياضيات الفلك لأحكم في مسائلها بيقين أو بما يكون بعيداً كل البعد عن مسالك اليقين أو الترجيح. ولقد أبحت لنفسي أن أبتعد عن الموضوع الأصلي الى شيء فرعي يفتح كوة امام نظر القارئ الذي شبّ وشاب على مسلمات ابتعدت عن الحق والواقع واليقين بل تخلف حتى عن الحاصود الذي يضن خبز اليوم لعياله بواقعية فهو أحرص على الديمومة بعفوية الطائر الحر على حين يطير المثقف المتعلق بالماديات والثوريات والعنتريات طيراناً خيالياً عبر مستقبل أقامه أوهامه وعربدته نزوعاته وتشبّه من قبل (المهدي) الهادي الذي بيده مفتاح الجنة ... على قارعة شارع نصف خالٍ تمر به ناس أنصاف ضياع لا يكاد يرى موطئ قدم ويردد بيتاً لشاعر موعود مثله بالجنة من نص كردي (له سه ريان ده كه يم له سه ريان ده - گه ل و سياسه مه زن له خايشتان ده پاريزي) يترجم الى العربية بمايلي (اضرب رؤوسهم يا كريم [المقصود عبدالكريم قاسم] اضرب رؤوسهم تصوره بذلك الشعب والجيش العظيم من الخائنين). ودار الزمان وحكم على أكثر من عشرين ضابطاً بيارياً في مذابح كركوك سنة ١٩٥٩ بالإعدام.. ثم اعدموا بعد مجيء البعث الى الحكم سنة ١٩٦٣- ثم ان هؤلاء اليساريين المتطرفين لم يجدوا مأوى في العراق كله إلا اقليم كردستان و فصائل الـ (بيشمرگه) من الحزب الديمقراطي الكردي ولعل هذا الكذب هو المقصود بشرعية (اضرب رؤوسهم ....) أسرد هذا تذكيراً بالمذابح التي مشت الرؤوس الفارغة والقلوب المنكرة للمروءة والأنصاف وهي لا تدري (يومئذ) ولا تدري في يومها هذا أنها مشغولة بالمخيلة ومن ضمنها تصفية الأعداء من أطراف النضال الكردي اذا ساعدتها الاقدار على ذلك. ــــــــــــ

لا حاجة بنا الى القول أن اليساري المتطرف في كردستاننا تعتريه الحالة التي تعتري المعضوض من كلب مكلوب اذا عرضت على نظره الذهب أو شك على الموت بل يموت ولكن برؤيته لكردي قومي يختال مثل الطاووس متمسكاً ببندقيته أو رشاشته- أقول هذا وأنا أشدّ المستنكرين للخلاف الداخلي بين فصائل (البيشمرگه) وأيأمن الاعذار يأتون به للتبرير هو زيادة في الاصرار على الضلال والكفران والتفريط في الأمانة القومية التاريخية ... وانى لأخلف بأقدس الأقداس أخر على ضواريد الكردي اليساري المتطرف أضعاف ما يتحسر عليه كردي آخر مهما يكن لأني اعيش بالفكر وستغرق في مشكلات (الاجتماع) ولا مكان عندي لطبخ الماديات والمعارك السياسية اهتماماً شخصياً وراءه مغنم دنيوي فكما أني أتوصل الى الوجه السلبي للعقل والى كونه (البرج) هو الذي خلق المدينة وأني اكتشف من وجوه معاني قصائد نالى ما لا يسهل على غيري وكل ذلك بفضل اداة الغوص في (الوجود) بانائه وحيوانه ونباته وسمائه وديبب النمل في باب غرفتي فيكون من قبيل البديهية ان يتضاعف لوعتي لخسارة الكرد في أنشط أبنائه وتوجههم الى أمر مستحيل التحقيق في حد ذاته ولو قضوا الاعمار والادهار وهدوا الجبال ونشفوا البحار فلا يمكن ابدا

---

(١) باعتبار المسافة بين الارض والشمس ٩٢ مليون ميل مقسوماً على سرعة كل ١٠٠٠٠ ميل في الساعة فتكون النتيجة ٩٢٠٠ ساعة.

تحقيق الشيوعية، بل العدالة الاجتماعية، بل الظروف المحدث، بل الديمقراطية التي يتصورها الناس شيئاً طوع الرغبة فقد كفى استحالة أن كردستان خالية من اي شيء اسمه (برجوازية) فليس لدينا بك كردي ولا تقر كردي ولا مصانع كردية وطرق مواصلات كردية وتكنيك كردي ولا فلسفة حضارية لبضعة قرون فالشيوعية نظام أستوكراتي خشنٌ في السماء ويطلب علماً وفناً وتكنيكاً وفلسفة ومدنية و دماثة واحترام الرأي الآخر وهي تشجب أدل ما تشجب إسالة الدم وتهديم العمران وفبركة الكذب: يروى عن احد الديمقراطيين من قرن بضع قوله: إني قد اختلف معك في الرأي ولكني مستعد لشنك دمي في سبيل أن تستطيع بيان رأيك... وهو قول ينبل لا تقوى عليه الملائكة لأنهم لا يحاربون!! وقد علمنا ان الشيوعية الأوروبية تخلت عن مبدأ الثورة للوصول الى الحكم وآمنت بالـ (تصويت) لا بالقذيفة و القنبلة وان تكن تأخرت بضعة عقود عن أبعد تاريخ شبه مقبول للتخلي عن الثورة. والواقع هو انه اذا عانت الطبقة الثالثة هي غالبية السكان وان الشيوعية تمثل مصالحها فلماذا الركون الى الطريق الوعر حالات الانتخابات مضمونة للأكثرية. لقد سبقتهم في التوصل الى هذه الحقيقة أكثر من عشرين سنة سبقت الشيوعيين وغير الشيوعيين جميعاً بلا استثناء في تجريم ستالين، وكان يعبد على نطاق العالم اليساري وسحل اعجاب الكثيرين من غمار الدنيا بل حتى مثقفيها: وهنا تنبض جروحي اذ اتمثل المثقفين الذين خارج اليسار الشيوعي اعجبوا بستالين فهل كان موقفهم يبقى كما هو فيما لو أعدم صديقاً لهم أو بعضاً منهم..؟ الهم ثقيلٌ جداً يا صديقي! والدرب شاق وطويل يا حبيبي! والوعي في أغلب غمار الدنيا بمستوى طفل في العاشرة من عمره. وهذا الذي تقرأه صورة ملتقى المجاذيب بلا زيادة وشيء من النقصان وبكثير من النقصان في بلد شقي وشقي كبلادنا!!

يا للخيبة وبؤس الطالع! لم يتحقق أي كلام أو هدف لليسار الكردي المتطرف منذ الاربعينات الا في كراسهم السري الصيت الذي تباهى بأنه الكرد لا يُعتبر أمة!! لا أدري لماذا لم يتوسعوا في هذا المفهوم فيقولوا للعرب: انتم لستم أمة لانكم متفرقون في اكثر من عشرين دولة فأرضكم مجزأة وشعبكم متفرقو الترك ايضا مصاب ببعض هذه العلة فهناك أكثر من دولة تركية واحدة ولهم اكثر من وطنين أو ثلاثة أوطان.. والفرس اشتاد خارج ايران لا دولة لهم.. اما البلوچ فهم في حقيقة الواقع نموذج شقيق لكرد ولكن الشيوعي الكردي ما شُبِّهَ بتجربة..

يجب، للحقيقة والواقع[1] بأن أناضل الثوريين على نطاق العالم يتميزون بأنهم ناس غير واقعيين، تبيدون عن طبائع (الاجتماع) وعن طبائع البشر المألوفين: أنهم أذكياء في الكلام، حريصون على كشف عيوب تضريس، لهم جرأة في الرأي والتعرف ولكنهم لا يصلحون للبناء وما أظنهم يطيقون حياة يومية عادية كسائر بشر العاديين. ومع تقديري للفنانين التشكيليين على اختلاف مدارسهم لا وانا غير خبير في هذا الجانب ولكن أذهب الى نتاجاتهم وادرك مواضع الأبداع في لوحاتهم وياسرني تعليقهم من ثنى ذهبت الى ماوراء خطوطهم وألوانهم كأنهم يدورون بي حول عمود: أرى ما خلفه..] فأنهم يمثلون قمم الابداع في التجريد الذي يفتقد

---

1) بعد كلمة (الواقع) تضاف كلمة (القول) فتكون العبارة: يجب للحقيقة والواقع القول بأن المناضلين....

القدرة على انتاج لغة تشبع جائعاً، والذي يشاء من طرز معيشتهم وتصرفهم يتماشى مع ابتعاد ابداعهم من ابداع الطبيعة و كشف حقائق الوجود و استنطاق البشر ان وجودهم ضروري كما يكون ضرورياً أن يوجد في قصر منيف تحفة نادرة فالفنانون كالأوشية المعرفة.. كأقواس القزح في الأفق الذي تحمل الأنامل السرية بالقدرة على الشفاء.. إنهم هم وليسوا غيرهم.. يلبون الأسماك و ينامون على الطوى وقد يقاومون السجون بنزعة التشرد حتى اذا ضجروا تركوا على حيطانها بعضاً من دم قلوبهم في صورة تخطوها كما اتفق فارست عيناه جليل أو هلال تنضح على مشارف السماء.. هم والمتصوفة طينة واحدة من حيث التجرد، أقصد من الطائفتين قصدهم مع ملاحظة ان تسمي الفنانين أكثر عدداً بطبيعة الحال لأنه الصوفي الرائد إمام المتصوفين في زمانه، وهو واحد أو ثلاثة أو عشرة على حين لا حصر لعدد الفنانين الذين تُشار اليهم بالبنان؛ ذلك أن ميدان الفنان واسع من غير حدود فقد يتخذ من النملة الواحدة بؤرة يفيض من حولها المعاني والرؤى على حسب قدرة الفنان. والشاعر ميدانه أضيق من واضع الكتب فهو يتمكنه من الوزن والقافية مضافاً إليهما قريحته التي لا تنضب يستطيع إخراج الدواوين ديواناً بعد ديوان حتى حد القرف. ثم ان محتوى الديوان لا يؤاخذ بالرأي و بالفحوى المضمون فيه فقد يلعن الديمقراطية في قالب شعري عجيب في ذوق السامع جرس الشتيمة، الجواهري يتمنى ثراء الوثبة [بعد وقوعها] فيقول:

تقحّمْ، لُعِنْتَ، أزيز الرصاص و جرّب من الأمر ما يُقسم

كلمة (لُعِنْتَ) في هذا البيت تعني (فديتك) وما هو أقدس، ولا أرى بأساً في ذكر حقيقة عن مواشي حياة الفنان أن المستوى والحال والحاصود وكل الفقراء والمساكين في القرية والمدينة على بعد شديد من توقع هذا الفنان لهم بل إن الحياة لا يقيمون وزناً لوجودهم ولا يلتفتون الى ابداعاتهم ولا يفهمونها ولو بقيت صورة الكيوكوندا الأصلية لحاصود بأطراف العمارية لما اشتراها بفلس بل هو وغيره من امثاله على كره ملحوظ من هذه الزعيرات.. ومما يحضرني في هذا الباب ان تاجراً ثرياً من بغداد، اصله من كركوك، كان اشترى قاموساً في المزاد [وهو أقل] فذهب به الى ابن أخته الدكتور فقال له: يا فلان أتيت لك بناقوس!! وأحب أن ازودك بصورة من إمكانات الواقع المتخيل لتزداد تشرباً من صور الاجتماع البشري: اذا جمعت آحاداً من كل الأصناف والحرف والطبقات وسائر العلوم والفنون والسياسات والديانات من ذوي المشارب المتباينة والعادات المتأصلة فأتيت بالفيلسوف الملحد والمؤمن و العالم من كل فروع العلوم وشيخ الطريقة من كل الطرائق وخطباء الجمعة من المذاهب المختلفة والتاجر و الكتاب والعطار وجامع الزبل للحمام وحاصود المزروعات والمقاول وسائق التاكسي ورئيس وزراء ورئيس جامعة ومن أهل الصحافة والطباعة وضابط الجيش من اعلى إلى أدنى درجة والكبدي و الفراش.. الخ فماذا تتخيل من نتيجة هذا الاجتماع؟ لك أن تحلف بأغلظ الأيمان ان اجتماعاً كهذا لا يدوم ساعة واحدة ولا يلد جملة مفيدة ويخرج في دقيقة كل واحد منهم ألف لعنة على روح جامعه ومنظمه و لا عجب اليوم ان الناس من فئات مختلفة أجانب بعضهم عن بعض و نافرون عالم يألفه. كن واثقاً ان موظفاً رتشياً يضيق ذرعاً حتى الاختناق بمراجعين غير مضطرين الى دفع الرشوة.

في هذه الغرفة لم أذكر حال المرأة فيها لو اجتمعت أصنافها من أصناف مختلفة متباينة ولكن يمكن اختصار حالها وتصورها بالقياس الى الرجل عن سبيل سلوك الجنسين في الحمامات العامة فقد تأكد بما لا شك فيه أن شجار النساء أكثر وقوعاً وأشد ضراوة. وبالنسبة لبلادنا الملحة يمكن الاكتفاء بذكر سببين من هذا المنظور: فالأول هو كلفة الانجاب وصعوبة الرضاعة والسهر بالليل والهم في حال مرض الصغير وتنظيف الوليد ويكون مجال المنافسة في الحمام أوسع لأسباب كثيرة منها غسل الوليد بينما الرجال يرتبطون الفرصة في الحمام بما لا يحصل في البيت فاذا احتج أطفال من بين امرأة ضاق الأمر وتشاجر الأطفال.. السبب الثاني هو غيرة الأنثى على انثى أخرى في دخيلتها لاحتمال أن تصبح ضرة لها فيضيق مجال المحبة على قدر خطورة هذا الاحتمال.. وهناك اسباب هامشية اخرى كرؤية الملبوس الفاخر والحلى الثمين على قامة المرأة الموفورة.. ثم ان ضيق المكان الذي تتنفس فيه المرأة أضيق كثيرا ما هو حال الرجل.. والكلام كله حول المرأة في وطننا وأوطاننا مماثلة من حيث الفقر والتخلف..

كما ترى، ليس التآلف في كل الأحوال امراً سهلاً وكلما كان عدد الناس أقل كان التآلف بينهم أسهل يضاف الى ذلك ان تشابه العمل يكون سبباً قوياً في التقريب بين الآحاد والجماعات وتبقى مسألة الكفاح من أجل المعيشة حيث هي من الخطورة ومبعث الاحتكاك بين فلان العمل الواحد لاسيما عند كساد السوق.. هاهنا لا أملك نفسي، ولا مندوحة عنه إذ أذكر مأساة أسرة في غضون سنة ١٩٨٧ فقد حكى والدي عن أحد أهل المحلة استنفد أطرافه مع اسرته المكونة من ثمانية أشخاص ثم سد الباب على داره وأعلن انه يختار الموت ولا يستجدي وقد مات واحدهم فيما لقوة الفاجعة. والغلاء في اقوى اسبابه كان بسبب ظلم الحكومة العثمانية فقد كان رؤوس الادارة والشرطة والجيش قطاع طرق وجلادين عند الحاجة وقد يشنقون بريئاً عوضاً عن مجرم افتدى نفسه بالرشوة. أنا اعلم أن واحداً اسمه (طه ...) محكوماً بالاعدام فضاد الاتفاق مع القائمقام وجماعته على شنق انسان آخر اسمه (طه) وكان المشنوق في زعمه معيزله بقرية (بيبازوك) وعلق في المشنقة بكوسيخ [مثل هذه الحالات والأحداث تقع حتى في هذه الأيام كعلامة فارقة لشعب متخلف..]

ما عرض السطور المتقدمة بعض محتويات مستشفانا وصور من واقع اجتماعنا البشري ولا يتوقعن أحد ان يؤتى بالترياق من العراق أو واق الواق فالشوار الى الشفاء طويل وعر متعرج وازادت الصعوبة بنشوء أحزاب للدين والدنيا للتأثم بغير قناعتها [بفرض أنها خالصة النية لسعادة الجميع] فقد بدأت الحياة الحزبية في ديارنا المتخلفة بحمائر سياسية من دينية ومن يسارية ومن يمينية ومن لا هنية على الاطلاق كلها تدعي الديمقراطية وتمارسها من فوهة المدفع فهي ما أنت راحة تديم فرح الفكر على يسرها وما وجدت في أوطاننا واقعاً نشأت به حضارة قرون عدة في كلها ديمقراطية بالكلام وارهابية في الفعل فالديمقراطية لا تخضع لغير المدنية والثقافة والفن والثروة والعدالة فهي لا تنشأ في الفراغ ولا حتى في جو محايد لم يغتن به علم وفن وتكنيك وتصرف حضاري. ان أماثمي على

الى وجهتها فى بلدها على سيارات أو قطارات و تسافر الى اوطانها اخرى على متن الطائرات وهى فى الحل والترحال تخاطب بالأجهزة العالمية اماكن فى الوجه الآخر للأرض و تعقد صفقات تجارية كما لو كانت الصفقة تجرى فى بيتها. حكى كردى عراقى انه سافر من أمريكا الى لندن لبعض مصالحه واشترى سيارة رخيصة يقضى بها مصالحه ثم ترك السيارة فى مكانها ولم يصبر على بيعها. بعد أيام من وصوله الى بيته فى امريكا وصلته رسالة من بلدية لندن تقول انه كان عليه ترك السيارة فى مكان لم يخصص لوقوف السيارات فكانت غرامة هذه المخالفة كذا باوند. ولم نجد اى وسيلة سلمية للتعرف على السيارة فبعناها وخصمنا من ثمنها مبلغ الغرامة المفروضة عليك وارسلنا الى الباقى. قال ذلك الكردى ان المبلغ الذى وصله كان اكثر من المبلغ الذى اشترى به السيارة.

انا لا اقول ان ما يسمى بالبلاد المتقدمة، وهى متقدمة حقاً، هى جنان الله فى أرضه ولكنها بكل عيوبها وذنوبها تعتبر حلما من احلام اليقظة للعديد من دول الأسكندنافيا وفنلندا وللعديد بالنسبة لبلدنا فى ديارنا المحمرة المغبرة.

تلك المجموعة من الناس المختلفين فى مراتب الأجتماع المذكورة قبل هنيهة وجدناهم غير متوافقين فى اى شئ ويكاد يستحيل اجراء تصويت بينهم على أى مسألة أو مرفق مرتبط باهتمامهم. هذه المجموعة التى لا توجد لغة مشتركة بينهم هى نفسها فاقدة للغة مشتركة حتى فى الأمم المتحضرة فليس هناك توافق كلام عام الذرة مع رأى المتاجر بالكومبيوترات أو اضراج الأفلام أو واعظ الناس فى اماكن العبادة أو قس على كليمنجارو.. أو.. ولكن يجمعهم فى البلاد المتقدمة جاذبة الأدلاء بالصوت فى الانتخابات العامة و الاحساس بالصواب والخطأ فى تصرف السياسى أو المؤسسات المتعاملة مع الاقتصاد على حين لا رابط بين هذا الخليط فى بلاد كبلادنا على أى وجه من الوجوه. أقول على سبيل المثال ان الانتخابات التى جرت قبل بضع سنين فى الـ (هريتج) كانت قالباً غير ذى موضوع فقد دُعى الناس الى التصويت حصوترا ولكن وزارة الدفاع لم تملك رسماً واحداً على حين كان (بيشركة) الحزبين هم كل الجيش ليس للدفاع عن كردستان بل للسيطرة على الواقع. البرلمان كان خليقاً أن يسمى برلمان أو مبراى أو اى تسمية تحبك مثل (فستنبكتكنفوها) أو (بال دو ثيّر دين[1] اذا قوحب[1]) ثم ظهر خواء مدلول التصويت - البرلمان حين بدأت لغة الواقع الكسيح فى اقتتال (الأخوة - الأعداء) مرة ومرتين وثلاثاً..

حتى لا أضع القارئ أمام أجنبية سياسية أرى من قبيل الواجب بيان رأيى فى الكيفية التى آل اليها التصويت فى الأنتخابات فالذى وقع من افلاس التصويت وموت البرلمان لم يكن شيئاً وقع بالصدفة أو فى الفراغ بل هو حكم واقع متخلف زرىّ لا يملك الا أن يفرض تصرفاً ضليعاً بأمم أمثالنا لكما أن الحاصود لا يليس سموكن أو أن الباجى آيشوك غير قادرة على مصارعة الثيران أو أن أمياً يعجز عن فك الجذر التكعيبى لرقم ٤٥٥٤٧٥٠٤ أو ان طالباً فى الثالث الابتدائى يختار فى الثقوب السوداء كذلك يكون:

١- الغاضب الكردى يدلى بصوته كشئ ساقه الواقع ثم يتركه كما يترك تكرار صلاة الظهر. هذا الغاضب هو نفسه المقتحم لبعض مخازن الحكومة فيدخل اليها مع قذيفة الملايين طلبا لسبق الناس فى الفرهود...

(١) هاتان الجملتان اخترعهما فقهاء الساجد للتدليل على خواء الرأى المقابل فى المناقشة فلا يوجد معنى لأية واحدة منهما.

١- ساعد الحزبين يتمتعون في ظل الحزب الآخر وقد سبق منهم الحكم بتخوين بعضهم البعض.

٢- لا يمكن أن ينجب الحزب المخذول لنتيجة التصويت، والذي يلغي أن الحزب المخذول بصوت واحد جرّب نفسه وسلّم مقاليده بما عرض الفشل أكثر من الكفاية.

٣- طبيعة تكوين وسيرة نضال الأحزاب العمالية للحزبين الكبيرين تجعل دكتاتورية القيادة أمراً مفروغاً منه أو تنزوي في ركن معزول لتحل محلها قيادة جديدة.. كيم إيل سونغ فرض بعد موته تنصيب ابنه في رأس الدولة فكان محققاً لتوقع والده منه فأصبح، أطال الله عمره، رمز مقام رب العالمين وان كان شعبه الصابر لوفي يعيش على الكفاف. فالحزب الكرديالي لبابدعة فقد كفل ضمانة تركية ان تجربة بخيانة الثورة الروسية سنة ١٩١٧ بانت كالعبد الذليل لستالين ولن تنهض منها روسيا بدولة وسيعيد الشيوعيون الهندوسور قريباً ما فعل ستالين اذا استقروا في كراسي الحكم.. عاد والكذب الشرعي الصيني اعادوا حكم جنكيز خان بعد وصولهم الى الحكم بفترة زمنية قصيرة.. لاشك ان ما وقد اصيب برض نفسي [لا استطيع تسميته] فانقلب على ماضي نضاله الانساني ثم وجد الخائن الأكبر للصين في شخص رئيس الجمهورية رفيق الحياة للاعب في النضال السياسي.. فامن ثورة في العالم الا كانت في بداية مركزها مبشرة بالحرية والمساواة وما واحدة منها كانت صادقة في بدايتها حتى ولو كان ذلك بحكم واقع لا يُرَدّ فاذا حكم الواقع بدأت كان مطابقاً لمصلحة ورغبة قمة الحركة..

حين آلت خلافة المسلمين الى عثمان بن عفان قال ابو سفيان وهو من قرابة عثمان: تلقفوها تلقف الكرة فوالله ما اري ناجنة ولا نار... لقد طرده الخليفة ولكنه اجتهد برأيه فكان [عثمان] يتعرف في بيت مال المسلمين كما لو كان من خاصة ماله ولكنه لم يسرق ولم يخن ثم حكم الواقع الماثل آنئذ فتألبت عليه عصاة العراق وقتلوه اثناء تلاوة القرآن، وكانت السيدة عائشة ام المؤمنين غير راضية عنه فكانت تسميه (نعيثلة) من باب الاهانة فلما تم تولية علي بن ابي طالب وكانت تكره علياً فوق كل مراتب الكراهية فرفعت قميص عثمان ونادت في الناس: قتل مظلوماً وحدثت واقعة الجمل بالبصرة وانتهت بفوز علي.. والذي قرأته في بعض الكتب ان طلحة والزبير بايعا عليا ثم تبعا السيدة عائشة ونقضا بيعة علي أملاً في الفوز بالخلافة فقتل طلحة والذي اذكره انهما كليهما من العشرة المبشرة فماذا أبقيا للحاصود بايير والبستالي بيروت من أفضلية تديم استقامتهما؟

فالمجتمع الاسلامي بعد وفاة النبي قضى في خلافة أبي بكر وعمر فترة تقارب الكمال في مقاييس الاسلام ولكن.. ولكن ثلاثة من أربعة من امراء المسلمين هم عمر وعثمان وعلي قتلوا بيد المسلمين.. مجتمع يقضي اغلب ليله ونهاره في مصاحبة النبي ذاكراً ربه ومصلياً على نبيه ومبادراً الى الحج والصوم والزكاة والجهاد.. جيشهم نصف الكافي نصف العالم يهزم أكبر امبراطوريتين في العالم ويرث ملكهما ويترجم كتب الاغريق وما بعد فيفرض على آيات القرآن ان تكيف نفسها مع فلكيات بطليموس وافلاكه التسعة على حين نجد افلاك القرآن سبعة فتأولوا في ذلك واعتبروا العرش والكرسي فلكين.. كل هذا الذي يرى في أوليات الاسلام بقي تراثاً نعاني منه في جمهور المعتنين بالدين ويرتفع النقاش عن جمهور العامة كي

يصعد الى مستوى العلمانيين و أعلام الدين وتركه في هذا الحد بانتظار ما يتمخض عنه مستقبل النقاش في الكيفية التي ترسو عليها المجادلة. وليكن معلوماً ان النقاش والجدال المذكورين ليسا من بضاعة أهل المناهج الثورية فهم مستعصون حتى على أنفسهم في الوصول الى قرار.

يتجادل في بعض الأحوال افتراضاً يعطى المرأة إدارة المجتمع عوضاً عن الرجل وقد قرأنا في بعض ما قرأنا أن نظام سيطرة الأم كانت سائدة في بعض مراحل التطور التاريخي وما كان يُعرف للناس أب وانما ينتسبون الى امهاتهم لا الى الرجال جميعاً ازواج جميع النساء، قرأت ليليان روف ان ناساً في بعض اكناف الاتحاد السوفيتي [بعد القفقاس] محتفظون ببعض بقايا تلك الأنظمة فالمرأة كانت تقص شعرها طوت أجنب إخوانها فهن لا تعرف زوجها لانه كل الرجال أزواج لكل منهن. إنما ما دققنا الفكر في كيفية مجتمع تديره النساء فلا ندري ماذا كان الرجل يفعل اذا أدارت المرأة شؤون الدولة والشرطة والجيش وبنية المرافق وما نصيب المرأة في العمل الشاق من مثل الحصاد والحرث ورعي الغنم والبقر!!! الخ وهو يسمح للرجل بممارسة بعض هذه البلاوي أم يكون من نصيب الطبخ والكنس وحضانة الطفل وما يكون لرأيه في عمارة البيت وإراحة النفس! الخلاصة ان المسألة شائكة من منظور هذه الأيام وان يكن عندنا علم بسيطرة المرأة في غابر الأزمان ولكن لا نعرف به أنا لا أعرف كيفية حلول الرجل محل المرأة دون الاخلال بحبكة الاجتماع والذي يساعد في هذا الموضوع دون جميع المواضيع هو مسألة الحرب بين المجتمعات المحكومة بالأنثى فما عسى يكون شأن الرجل فيها؟ هل يبقى جندياً؟ ام يُعطى رتبة عسكرية؟ وكيف لا ينقض على عرش المرأة اذا ملك قيادة الجيش والمفروض ان يكون كل أو جله من الرجال فليس من المعقول ان تحمل الأنثى سهم طفلها في اغارتها على الجيران! حتى يومنا هذا لا يصلح الحال لحلول المرأة محل الرجل رغم تقدمها مدنيات منحلة في الأوطان المتمدنة: انا أفهم أن يحصل توازن بين أنشطة المرأة والرجل بحيث لا تحب الولادة والرضاعة عائقاً دائماً في خانة ظهور المرأة [واقع الأمر هو أن الولادة والرضاعة من مفاخر المرأة ولكن المقياس الذي لم يزل يوزن به الظهور والفاعلية هو مدى القوة والبطش في مجتمعات العضل المفتول والسن الطاحنة]. تقول مأثورة جاهلية ان اميراً مر بطائفة من النوبة يلعبن في ساقية فقال مرتجلاً:

ان النساء شياطين خلقن لنا
نعوذ بالله من شر الشياطين

فاجابت واحدة بحيد ارتجال الشعر:

ان النساء رياحين خلقن لكم
وكلكم يشتهي شم الرياحين

انا والله هو الشاعرة وقد عبر النبي العربي اثناء رحلة فيزيائية على رواحل وقد أهاب الحادي بها ليشتد سيرها فقال: رفقاً بالقوارير اي بالزجاجات. ومن احسن ما سُئل النبي بشأن المرأة ان قال: حُبّبَ الىّ الطيب والنساء. وهو كلام خليق، لا سيما بالمرأة فلا بديل

من المرأة في دنيا الرجل فهي أقصى لذات الحسّ و أخلاها مغبّة للرجل.

الذي نعرفه من مشاركة المرأة للرجال في ميادين مناسبة لأنوثتها وقابليتها أنها تحتل مكاناً محترماً في كل شعب بلغ مرتبة احترام الذات نتيجة مجاوزة طور الوحشية في عالمنا الباكر. يمكن القول في يقين بكين ان احترام المرأة واحد من أنبل شعائر الاجتماع البشري و أن اهمالها دعة تهتك لكل مجتمع يمارس هذه الحقارة: ان المرأة من حولك هي الأم و الأخت و البنت؛ ومن غريب الحماقات ان الجهلة الاغبياء يمسّون نساءهم بالكلام الهابط حتى اذا ذكر احدهم شيئاً يعيب قريباتهم صاروا ذئاباً ضواري. فيا أيها الحيوانوق أقول لكم: ١- ما الفرق في الاهانة بين أجنبي ينال احتكم بكلام بذيء و بين اهانة تجرعها من أخ أو ابن عم أو اي كان من هؤلاء الحمقاء؟ ٢- ايها الحمقى! ان لسانكم تُطهّ لسانكم - إذ يستهين بحرمة قريبتكم يغري الاجنبي بالطمع في اهانتكم و اهانتها.

٢- استعمال الشتم ضمن دائرة الأسرة يقلب الأنزجة من الخشونة الى التبذل بل إن تمهيد الاهانة عن سبيل الشتم خليق أن يُزلق الشاتم الى ما هو أفظع من الشتم و إن المشتوم قد يتعود على قبول الهوان بالشتم فيقبل ما بعد ذلك من الأمور المخلّة بالشرف. أنا أعلم أن إرضاء العقل للكلام (القالتي) رأي شائع في غالب البلدان المتأخرة و قلّما يحصل شعور واعٍ بالفارق الحاجز بين الحوار المتحضر و الكلام السوقي و ما هو أدون و يكاد يكون حوار خليقٌ بالناس النظيفين من عامة الخلق مفقوداً بالمرة. اعلم هذا و أعمل فهمه و استدلّ منه القرار السحيق الذي ينزّ بالـ (لواص) بين الأشداق. و لاحظت عبر السنين ان القروي اذا نجح في مجتمع من أهل المدينة يسعى جهد استطاعته أن يتفاصح و غالباً ما ينجح في ذلك. حتى انني أذكر أن صبياً من أهل القرى جاء الى مصيف جناروك وسلّم على جماعتنا وقبّل الايادي وجلس في أدب رائع وكان صبيّ من قرابتنا في مثل عمره دهش فرفع عقيرته وقال: انظروا الى ابن ... يريد أن يكون [كلامه تعبيره سوقيا جداً لا تستسيغ ترجمته الى العربية]. صحيح ان الصبي كان على خلق، ولكن فرط أدبه وجمال تصرفه جاوز حد المألوف فلا عجب ان يكون بعض هذا الأدب راجعاً الى الحيطة و الحذر من وقوعه في خطأ بين جماعة من أهل المدينة [أؤكد للقارئ انني لم أرَ في عمري كله صبياً بلغ مبلغه من الأدب و حلاوة التصرف الا ولداً في مثل عمره من أهل الموصل جاء الى أربيل مع والده المحامي ضيفين على ملا افندي - يا سبحان الله ما أشد مسافة الخلف بين آحاد البشر في السيرة و السريرة: التفاوت بين آحاد البهيمة في الشكل و التصرف لا يبلغ عشر معشار التفاوت بين آحاد البشر وكفى مثلاً ان البهيمة لا تقدر على الكذب ولا تفهم أن اضافة حجر الى حجر ترفع عدده الى اثنين..]

هذا الذي عرضته من اختلاف السجايا و الأخلاق في الأسر السالفة ذو أثر مغبّة في مجمل اجتماعيات الأنسان و الكيفية التي يتقولب عليها الناس و ان يكن حصول التقولب و التكيف غير محسوس من جانب الغالبية العظمى من المتقولبين.. شيوع الكذب آفة تنشأ من مغبة الصدق بالدرجة الأولى وغير مهرب من الكذب سوى السكوت الا عند الضرورة فكثير من الصدق جارح لبعض الناس فالكذب في هذه الاحوال يكون أسلم عاقبة لا سيما اذا كان الطرف المضرور بالصدق جهة قوية تقدر على الثأر.. من مأثورات

العهد الملكي، اي ما قبل تموز ١٩٥٨، هذان البيتان :

ناموا ولا تستيقظوا ... ما فاز الا النوّم
يا قوم لا تتكلموا ... ان الكلام محرم

لكن الواقع غير ذلك فانه مجرد اعلان هذا الكلام ونشره في الصحف والمجلات والدواوين دليل على حرية التعبير فالبيتان طعن ولعن للحكم الذي كان قائماً، ويقول بيت آخر من قصيدة أخرى :

المتشار هو الذي شرب الطلا ... فعلام يا هذا الوزير تعربد ؟

صحيح ان الانجليز كان لهم مقام مرموق بحكم المعاهدة المعقودة بين العراق وبينهم بعد حرب بين الانجليز والاتراك وقررت عصبة الأمم وضع العراق تحت الانتداب البريطاني بدعوى عدم استعداد العراق لتنمية أمورها وحدها [كان العراق لا يملك القدرة لأرسال شرطيين بكتاب رسمي الى كركوك] حتى ان بغداد سنة ١٩١٨ وقت مجئ الانجليز لم تكن تملك حراً حتى من الأكلاك، فالواقع هو أن العراق كان يعيش شرذمة من غير قوة كانت فالايرانيون والاتراك، يضاف اليهم السعوديون، كانوا في ترقب فرصة للانقضاض عليه فلم يكن للعراق في التاريخ تلك الجغرافيا التي ساعدت الانجليز على كونها. بقي الشيعة قروناً خاضعين للاتراك بالامكة حتى اذا فتحت الطرق وسكك الحديد وطبعت الجرائد والمقروآت الأخرى وانتشرت المدارس وانطلق الناس يقولون ما يشاؤون في الفترة بين ١٩١٨ و ١٩٢٠ اعلن الشيعة العصيان والثورة وأجبروا الانجليز وكان قائم القوات في حيازة الاولوية على صعيد البلد فالسنة كانوا أقلية عربية بالقياس الى الشيعة العرب فحازوا الحكم وجئ بملك عربي من أشراف مكة عوضاً عن طالب باشا النقيب الذي أبعد عن العراق منعاً لعصيانه. وهكذا جرت الأمور وكان العنصر الكردي بالدرجة الاولى وبقية الأعوان بالدرجة الثانية تدعم السنة العرب من جهة المذهب، وبانتهاء حركة الشيخ محمود واخماده ضاع العراق استقر الحكم للسنة العرب وخزنة الدولة في حاشية كل الأنواع عانية فيها سنغ كرت السيخ في حركة كرصرقي باشا العسكري قتل وفي بعض باشا اغتيل قائد الانتداب بعد بضعة أشهر سنة ١٩٢٦. وفي ١٩٥١ اشتعلت القتال بالكة مفتي فلسطين والعقداء الأربعة ولكنها خمدت. وهكذا ! وحتى لا نجهل أنفسنا في صحة و سلامة تصرفنا السياسي [يا بؤس تصرفنا] أسوق لك هذه الحقيقة : ان جميع الاعدامات السياسية خلال حكم الانجليز للعراق من ١٩١٨ حتى ١٩٥٨ لم يتجاوز عشرين اعداماً، اي بواقع نصف اعدام لكل سنة من حكمهم ومجموعها اربعون سنة، على حين تضخمت القوائم بالمعدمين بعد سنة ١٩٥٨ حتى بلغت أعدادها في الأنفال والتأديب والادارة ما أكثر من مئتي الف قتيل.. اربعة الاف قرية كردية هدمت على رؤوس ساكنيها المضروبة بالغازات السامة ممن لم يموتوا هُدّم تداويهم من قبل الأطباء. أضف الى ما ذكر قتلى حرب العراق بايران خلال عشر سنين غير ضئيل وقد جاوز المليون في جانبين سوى الخليج.. التصفيات وغيرها.. فلا يوجد مقياس لمعرفة الفرق بين حالتي ما قبل ١٩٥٨ وما بعدها. لابد التسليم بالحقيقة المرة الآتية : إن الثورة ضيغما كانت تظل تحصد وتقتل وتحرق وتنشر

الأناشيد حتى تهلك من ذات نفسها أو تهلك الناس أجمعين فلقد بلغنا قول احد القادة أن مليون عراقي أصيل يخيفنا عن بقية العشرين مليوناً فلنعد إلى العزيز الحكيم أن يلهيه عن ذبح الغنم والمعيز والثور والجمل وبقية البرايع فانهم تقم قط بمخالفة الاوامر ولا تمردت على راعٍ يتكئ على عصاه ويرش بها على غنمه كما لنبي موسى . إن الذي يبث الطمأنينة في القلوب أن ذلك القائد وضع نفسه فوق مراتب البشر من حيث المساءلة .. دامت مآثره في البلاد وتضاعفت جهوده في اقتصاد المليون عراقي الى نصف مليون ..

هذه الصفحات الأخيرة كلها من مضامين ، تثقلنا على قدر التمكن من سوق الناس الى ما لا يشتهون تكون مسؤولية المتمكن في اي مساحة التثقيف فلا يرود الإيجاب في بداية النعمة لدى المتمكن . خاصة ضد من دراية بتدبير الكذب والحيلة والمصادرة فانه ، حاشى لله ، ان يكترث بغير الاضاليل والاباطيل والمن وقد قال شاعر فارسي منظوم ما معناه أن الخلق الذي بسبب طبعها الناشز تقلب بالصراع اذا اشتدت وردة . والمناسبة هذه تفرض علي أن أقول : على قدر تفاهة الشخصية وحقارة الخلقية ، وضاعة الخلق يكون انتفاخ الأوداج والتفاخر بالمنصب واذدراء السائلين ثم يتخفض اذا كسر قارورة ما فانه ينبغي أن تتكسر مهما يكن من التراجيع على مواطن جمع مالاً بكده وجرأ على ضيق اليسار المتطرف بالغنى ، فمن مع شخص بين ذاته أن يفتخر بالذي حاز من مال وحرمة ويكون ضيل العاجز الفاقد القدرة من شخص فالذي قدمته زيادة سوء سلوك وعلامة على الحسد وبرهاناً على سقوط الهمة (١) .

إذا أصبحت السمع لمجلس من عامة الناس يجتمعون بالليل فانتظر ان يكون غالب حديثهم في امور لا تهم احداً وصرا الجانب المحمود من سمرهم لانه التحقيق والتهيئ والتوصين من فلان وفلانه غائبين عن المجلس يكون لب احاديثهم الا اذا انشغلوا بما هو أتفه من ذلك كأنه يدور الحديث في نشاط الحمار الابرق والكلب الخلاسي لفلانه وماجن لدى زيارة البالوعة وطفح المياه القذرة ثم الالتجاء الى رحمة الله واوليائه وانبيائه في حفظهم من مزعجات مماثلة وقد تسمع من احد ذكيائهم ان رب العالمين قد تأذى من فلان بما كان من اذاه مجرى مياههم القذرة عقوبة على نسيانه الحوقلة في اعقاب حفلة غير مريحة جرت لواحد من الغائبين عن المجلس ... وتمضي شهور وأعوام على وتيرة واحدة من هذه الترهات حتى يحدث غليان سياسي يتردد فيه (يعش وعيت وسحقاً ...) . وأذكر في المناسبة ان جماعة من اطفال المحلة نظموا مظاهرة في اعقاب وثبة ١٩٤٨ ، رددوا فيها : مات فلان وسحقاً له ، وكان فلان يقال له من أرذل درجات البقالة فلما سئل منظم المظاهرة عن سبب هذه الغضبة الفترية قال : انه يبيع لنا لبناً حامضاً في كل صباح .. والمسكين كان يبيع ما يشتريه من لبن القرى حتى ان اسمه قد لحقه لقب يدل على المسكنة فقد اشتهر بـ (حسين يرشكه - اي : حسين القشة) .. هذه الحادثة وغيرها من خزعبلات مشرعة من رحم الغضب المادي والمعنوي وخواء الحاضر والماضي وما يبجم من مستقبل لن يكون أكثر إشراقاً . أقول هذا عن المستقبل الذي أقيمه على مستقبل أمم يخطون بثبة هندسية فالمجتمع المشلول الذي عشت فيه لا يكون قد تقدم إذا أصبح يافا على بغل لد على الحمير .. يمتطي سيارة ستوردة ببغين لا تعرف

(١) المقصود من السطرين هو ان انساناً فاقد الهمة يجد انساناً آخر يزل الهمة فاغتنى يكون موصوفاً بسوء السلوك فما بالك لا ينطبق هذا الحكم . واذا بقي مسكيناً فاقصى ما هو مطلوب منه انا يسكت عن الآخرين ثم انه لا ينال الغنى والوجيه بالكلام الرخيص على اعتبار انهما موهوبان منذ زمان بعيد .

استخراجه وتكريره شيئاً. واقول من باب تلطيف الخاطر ان صاحب هذه الكتابة وقضى ليالي في العراء وقد طلبت سيارة تقله وطلبة آخرين الى بلدهم في الشمال منذ كرأت يده وجرت من طول المدة التي قضاها وهو فاقد في تحريك السيارة وسط ثلوج شديد البرد قريب من الانجماد فكان خيراً فعله أنه نزع سيارته ودست رجليه اكثر من مرة حيث يفعل ١٧ امراً قائم مقامه ... وما يجدر ذكره في هذه المناسبة أن المرحوم الملا معصوم الهوراني قال في حوار مع مثقفين من اربيل: إننا نقاسي صعوبة في السفر الى بغداد بسبب وجود طريق مباشر الى كركوك. فقال حاكم [من جماعة الدردي] تستطيعون عن طريق اربيل الوصول الى بغداد. فقال المرحوم طويل علينا ونريد من الكلفة العادية فقال الحاكم: ما هذه الى كلفة؟ [استعمل «مكلفة» حضرتكم كردي] فرد عليه المرحوم: وما هذه البطرة؟ [استعمل «بطرة» مقابل «الكلفة»]. كما هذا يجري وما واجهه من أربيل رفع صوته بالاحتجاج على الطريق البرية التي تربط ولا تربط كويسنجق بأربيل! أذيع هذه الجملة مصوراً من حيث الدلالة على عدم الاحساس بلوى الآخرين: وزير كردي صار وكيل وزير الدفاع وصوت السليمانية فأدخل تقريباً عسكرياً في مديرية الحركات (أو مديرية أخرى) ان تفتح طريق رانيه - كويسنجق يشكل خطراً على نفط كركوك. بقيت كويسنجق منعزلة عن رانيه وقلعة دزه حتى سنة ١٩٥٢ اذ أصبحت نائباً وحصل لقاء مع المرحوم نوري باشا وتكلمت الى هذه الحقيقة وقلت: يا فخامة الباشا انه عار على استراتيجيت العراق ان يتصور تبليط اربعين كيلومتر مسافة بين رانيه وكويسنجق، وأكثر من نصفها سهلة طبيعياً، يشكل خطراً على كركوك على حين يبقى حق الزمن انه اذا هاجمت روسيا الشرق الاوسط فان احدى ذراعي الكماشتين تذهب الى خليج الأسكندرونة وتذهب الكماشة الثانية الى خليج البصرة... فأمر حالاً بفتح الطريق...

كنت في المجمع العلمي الكردي وجاءتني رسالة دعوة الى المشاركة في ندوة أو غيرها تعقد في السليمانية وكان شرط الكتابة انه لا يقبل إلا لهجة السليمانية من بين كل اللهجات!!

هذه وكثير غيرها على مختلف الأصعدة وفي قضايا ثقافية ولسانية وللأسف مأساوية تبرز حساسيات مصطنعة وغير مصطنعة [أي بنت الجهل] هنا وهناك على حين نرى جميعاً ان وجودنا في خطر. في حالة كردستان العراق أفضيت من مأساة الأكراد والبقية تأتي. حيث حاول ان يبدل مكان مدينة أو قاطعة جهوداً في تحسين الأوضاع وتنشيط الفن والثقافة والعراء على أوسع مدى ولكن ليس نكاية أو حساً من ناس آخرين لهم حقهم في الوجود بل افقهم ونحن جميعاً نعلم مدى التخلف الذي تعاني منه كردستان (الكبرى) كلها وليس فقط عما يلي وسنكر. هذه الأمثلة تخدم «المثقف» الكردي في شتى عينه ودماغه على عاتقه كردي كلة مأساة وتقلق وتخنق فرنسا وبريطانيا ترتبطان بطرق للسيارات تمتد تحت ضغط دوخ وزير كردي يتحايل على كويسنجق بذريعة نفط كركوك منعاً لربط رانيه بطريق مباشر مع كويسنجق... يا لبؤس قوم من وزيره الذي يخون الأمانة فيخالط ويلفق!! لا أدري ما إذا لم يفتح وتخريب الطريق المباشر بين السليمانية وكركوك فهو خال من جبل كبير سلطان وزهاء كل الزاب الصغير فيكون خطره أشد!! لا فظ ولا يحزنوه ولكن نزغ الشيطان الأمارة وفساد الضمير المعلوم يستبيح كل شيء. أقول هذا وأنا اعتبر السليمانية قلب كردستان النابض

وعصت الشعوب القوى بسوط الفناء والتضحية فأنا كالشيخ رضا الطالباني اقول:

مربوط حصانه بسوله عالي وخاك

"حياتي مرتبطة بالسليمانية وتربتها"

أنا أحبها وأقدسها وأفتخر بها خالصاً لوجهها هي وتكرستاه كلها ولنبض الاعتزاز في دمي بأمجادها و أفراحها وباشوات بابانها وولاتها خالدها والشيخ كاك احمدها وصعاليك أزقتها فصعلكتهم متميزة بروح لفتوتة وزراية الدنيا فقد سمعت احدهم ينادي على الماء البارد في الصيف قائلاً: "حشو بطنك بآنة اكثر عناية من "الحبل"(1) بالكردية" فهو يبرّد حر الظمأ بغصة فلوس ويرسم البسمة على وجهه بكآبة.

هذه السليمانية تعرج كرستاه على قدم واحدة وتنظر كرستاه بعين واحدة وتعي كرستان بحجمة نصف خالية..

اذا بحثت في تفاصيل الحياة اليومية للمجتمع الكردي المتخلف منذ ٥٥٠ سنة والمتميز بفقدانه لكيان سياسي يضم بضعة على بضع ويرتع الطامع فيه ويتمزق من وفي الكرخ نوم الحاجة أو يوم الكفاح وجدت ناسه تتغلين بما لا ينفع فانه باستثناء الأقمشة وبعض الزراعة وغير ما يكفل وكلها حاجات ضرورية، فلن تجد ثلاثة من اثنين اجتمعوا للتفكير في المصير. أسوق لك مثلاً ربما أختلف في تحريك اشتراك أو ملاحظتك يا عزيزي سحقاً من الاذاعات ويصدم عميلك من التلفزيون والصحف موضوع في منزلة الخطورة يشغل بال كل من ايران وتركيا وسوريه والعراق هو كيفية الاتفاق على مياه الأنهر في الدول الاربع للشرق والشرب ولغيرهما مما ينفع أو يضر. ان لهذه المياه في تسعين بالمئة منه مياه كردية وفي مئة بالمئة منه محظور على الكردي ان يكون أولا يكون له رأي سواء لا أحلف بالأيمان أن جهتين كرديتين متنافستين في الكفاح القومي تفضل كل واحدة منهما أن يكون للجهة الأخرى صوت في الموضوع ولم يكن لتقرأ نصيب ولا تغضب بل ولا تهتم بمصير المياه الكردية ما دامت كلها خاضعة لرغبة الأجانب فقد كفى الكردي ان يتعلل بالأكلات للعبور...

دا بێگە تالە دەبەرێ عێلاتی جاف و بلباس

گەر بردوویانە لەگەڵ خۆیان بەنووعە بچنە کوێستان

"شتێ علیکم الطرق یا عشائر الجاف و البلباس

حتی اذا بتم فی مرور البادیة امتنع علیکم الذهاب الی المصایف"

حاجی قادر

الجاف والبلباس كانوا ينتقلون بين الجبل (صيفاً) وبين النهر (شتاءً) طلباً لكلأ الغنم والماشية وقد حقق كلام حاجي قادر في مجرى الأحداث..! وله أبيات يذكر فيها ان زماناً سيأتي بعصاديق كلامه فيقول بعضهم لبعض: ما اصدق كلام حاجي! كل الذي قال قد تحقق كأنه كرامات! رحمة الله عليك! ماذا أبكيك بعد وفاتك بقرن وسنة؟ ثم ماذا أقول وكيف أقول وفيم اقول؟ كل كردي له جرح في فؤاده أو في أهله أو في كرامته اوفي تشرده وذهاب دمه ودم اهله وابنائه جزافاً الا ناسٍ لهم الانتفاع بجمع

(1) (سك پر بوون) أي (التلاء البطن) يقصد بها حبل الناء.

المال وما في حكمه فاستحق به لعنة الأولين والآخرين، زادت البائسين بؤساً بزيادة الحرة والحرمان.

هذه الساحة المطروقة في الأسطر الآخيرة هي جزء أساسي من دار الملجأ الذي في أرضنا الكبيرة، وبالرغم أحياناً كثيرة اقتراحات لا ضرورية ولا تتسم بالاستحالة بل هي مفيدة وممكنة تساهم عند التطبيق في رفع كلف غير هينة عن كواهل عاملينها وتجنبهم اشغالات مع القريب والغريب وتزيدهم في الراحة الخالية من المداسات والشاحنات: يا ترى ما المانع من جهل الإمام عن كلام بغيض يحرج ينال (س) من الناس ويعود بالفائدة على قائله حتى ولو كان صادقاً فإذا كان ملفقاً كان شاهداً على حماقة وعدوانية ملفقه..؟ وما الحكمة في مثل هذا الكلام الخالي من المصلحة والباعث على كيل مثله لقائله من جانب الطرف المضرور وقد يكون الرد أشد؟ بل يكون أشد في أغلب الأحوال فالبادئ أظلم؟.. وما الفائدة من نقل كلام ينال (ع) عن لسان (ك)؟ أليس الأولى والأجدر ببراءة الإمام أن ينصح (ك) بالكف عن النميمة في كلام لين لا تحدثي فيه؟ ترى ما الحكمة في القاء عاثورة تسد مجرى ماء يسقي الزرع فيذهب هدراً وقد تنقض نوبة السقي والماء موجود فلا تأتي السقية التالية الا بعد أيام وربما مات منهم من الزرع. أطفال المحلة يقضون أوقات العطل كلها في كرة القدم على عرصات غير مبنية تتدحرج الكرة في بيوت محيطة بجوانب العرصة وتشرر حتى يقوم صاحب البيت من القاء الكرة الى الخارج. فإذا تسلل ثقب بيت بالحجارة.. ولم أجد رجاع نافذة واحدة غير محمية بشبك إلا وهو مهشم.. توسلت بموظفين ذوي قدرة فجاءوا بمقادير كبيرة من التراب الى الساحة الملاصقة لبيتي من جانبيه فنقل الوالد هيثم ليحاربا في ميدان آخر على وجه الضرورة!! صاحب فرن (عرس) رشا سؤولاً في الكهرباء فعتم محلة بأكملها لساعات متواصلة كي يمكن للعرس استضافة صخب قد السيل على كروس الطلا... قد في كل ركن من أركان وطننا الحبيب زوايا وتلافيف يكمن فيها الرشوة والخلوة والجلوة والجفوة من أفانين الشيطان... أما فرده داخل العراق بما فيه المنطقة الكردية يجرعون الغصص في نقاط السيطرة غالبة الداخلة ضمن هيمنة الحكومة بين أربيل وكركوك وهي ٨-٩ نقاط سيطرة في كل منها تمارس قرصنة برية مع سواق السيارات وأجمل ما رأيت هو ان سيدة مكلفة بتفتيش السيارات تنبش وتدقق وتفرض أتاوتها صبغة الرغبة من قماش ودراهم وحلي ذهب وكان أجمل ما فيها أنها تنتزع الغنيمة بزاوية دون ان تتفرس في الوجوه... اقول من باب جملة معترضة أن جيوش الإسلام في أوائل الفتوح كانت مرهفة لتقبل أي شيء تتدعيه الحرب في الذي هو (لا حرب) وقد فتحت نهاوند حرباً فلم يبق مخرب ونسيقة النساء سبايا والأطفال معهن ودرت المدينة حتى أن أبا لؤلؤة قد اغتال الخليفة عمر ثأراً لنهاوند فقد كان أبو لؤلؤة من واطئيها، أما رواية شكوى أبي لؤلؤة لدى الخليفة عمر ضد مالك أبي لؤلؤة [ان غلامه ابو لؤلؤة عبد] ورفض الخليفة عمر الشكوى المزعومة من اغتال أبو لؤلؤة ثأراً فهي رواية لا تنهض على اساس فقد كان في امكان ابي لؤلؤة أن يقتل مالكه وأمره أسهل من أمر اغتيال الخليفة.. ولقد سبق فتح نهاوند (فتح الفتوح) في تاريخ الإسلام فاعتبر أجل من معركة المدائن عاصمة الفرس لامبراطوريتهم وفيها طاق كسرى المشهور ولم تزل قائمة جنوبي بغداد الحالية.... تستدعي المناسبة هنا ذكر العنف الذي جرى في معارك (الردة) بعد وفاة النبي وكان ضد العرب وليس الفرس أو قوم آخرين من غير العرب وقد اشتهرت قصة تجرؤ خالد بن الوليد على مالك بن نويرة بتهمة الارتداد في التأخر عن دفع الزكاة وكانت زوجته فاتنة مشهورة حتى

لما سيق للموت بتهمة الكفر التفت الى زوجته قائلاً: انت سبب قتلي فانا دفعت الزكاة ولم ارتد ولكن لخالد مأرباً فيك، وقد تزوجها خالد بعد انقضاء عدتها. لقد أثار عمر الخطاب على الخليفة ابي بكر برجم خالد بتهمة الزنا لكونه محصناً[1] فقال الخليفة: لقد اجتهد رأياً فاخطأ فيه. فقال عمر: اعزله عن قيادة الجيش فغضب ابو بكر قائلاً: إن خالداً سيفٌ استله رسول الله فلا أغمده. فما صار عمر خليفة عزل خالداً عن قيادة جيش المسلمين في حربهم ضد الروم. لقد ذهبت شهرة خالد بأنه قائد لم يُغلب في أية وقعة حربية صحيح من كل وجه. وما يعتبر من معجزات الحروب خدعة خالد بقسم من جيوش المسلمين في حرب الفرس لمساعدة جيش المسلمين المحرج في سورية وفكه قطعه هذه المسافة الشاسعة اسراعاً فوق كل احتمال.

هذه الصورة في تأريخ الأسلام تعكس، إلى حد ما، لمحة من المستشرق بصدد هذه الكتابة وقد ذهب كثير في أولويات فتوح الاسلام يقول: ما هذه أول قارورة كُسرت في الاسلام. والآن لقد رأى هذه الكتابة أن حصل في الاسلام من تفرق وتشرذم وتكفير بعض لبعض وحروب استئصال [جرى الأمويين في الشرق الأسلامي وغيره من بلاد الاسلام - ابو مسلم الخراساني ساعد على تأسيس خلافة العباسيين فما ترحمهم أعدموه ..] لذا أخذ العجب أنّ ما أخذ حتى انه قد افترق الاسلام الى اثنين وسبعين فرقة وقالوا في هذا ان النبي بارك هذه الفرقة التي ستحصل مستقبلاً فقال: اختلاف أمتي رحمة اي أن اثنين وسبعين باباً مفتوح لدخولهم الجنة وعلى هذا الاساس يصبح اتحاد المسلمين في عقيدة واحدة وبالاً وشراً... يا لعبث الفتون في العقول ويا راحة قوم في دم يسيل بيد أخيهم في العقيدة!! أي كلام أجرأ وأحلى وأهنأ للمسلمين ان يدخلوا الجنة من باب راحة بلا خلاف ويدخل من فتحة في حلاة يقيمها لهم عامة راسية؟ وأين الكرامة في الحاح على دخول الكعبين في الوضوء من عدمه؟

كل الخلافات التي ابتعثها أصحاب الدعوى في الذي هو بين قيم والذي هو قشر أو هذيان بقي اضاءاتها مقدساً عزيزاً وان كنا لانعرف وجه الاولوية في الذي نتبعه ونضحي من اجله في الدعوى مع الآخرين وكلهم اسلام وكلهم مخلصون وكلهم جاهلون منابع الخلاف ووجه الاجتهاد الذي اختلف فيه المجتهدون: قلة قليلة في جهابذة الدين يعوم ما يقولون وكثرة كاثرة من أولئك الأعلام مصرون على وجهة نظرهم ولو شاءوا لأتوا بالقرعة على صحة اي من الاثنتين والسبعين فرقة فاذا جاء (زهر الطاولي) بال (دوشش) لدخول الكعبين في الوضوء كانت النهاية. وهكذا في كل خلاف يفرق الناس شيعاً واحزاباً! وما أسهله حلاً مباركاً!

ولكن على ثقة ان خلافات ماقبل الف سنة هي اليوم وتبقى في غد حيّة نابضة قابضة رابضة تقض عثرات البيض بكتائب الملاسنة والمجادلة بالسيف والقنابل والتخوين فهي قديماً وحديثاً طرف من دنيانا المجنونة ومستشفانا المريضة: طالبان وشاه مسعود بدرك فيدحاً حرّكا عصب الأسلام بتنويع الكر والفر في القتل والتهديم والمراضاة الاعداء الأصدقاء للتكريم عليها بدماء فتك المسلمين أظن انها وجدا الحرب دواء لآفة تكاثر السكان خشية أن يقل عدد البيض في وجه الصيحي عن عدد الاحياء يصاب الاسلام بشرخ في كرامته فلا يصح أن تأكل لندن وموسكو وباريس بيضاً في الصباح فتورث وضيئة!!

---

[1] يقصد بالمحصن رجلٌ متزوج، فاذا زنى يقتل رجماً بالحجارة [محصَن].

يا أيها الساروخ في أراضي الغفلة والجنوح والجرعة دعوا عباد الله لمصائرهم وشقاواتهم فانه خير لهم ان يموتوا براحة من ان يُقتلوا كجرمين أو يُقتلوا كبرائم ويروح لحمهم فريسة لتتأكله الضواري. اسمع يا هذا وهذا ان طالبان وشاه محمود مجندان في خدمة الأجنبي وليكن هذا الأجنبي روسيا غير مسلم وشيوعيا غير ديني أو باكستانيا ايرانيا امريكانيا شياطينيا أبالسيا من نار هاوية الجحيم فانني وحق النعمة، أجد كلا من الزعيمين ضليعين ان يكونا مفتونين بالخزعبلات التي ملأت كيانهما المعنوي حتى لم تترك متنفسا لدولار أمريكا وروبل روسيا وقد الباكستاني وتومان ايران فالدانم الذي تراه غارقا في أرتاقه كالريش او كرة القدم يترك مهام الدنيا كلها في سبيل ان يلتقط عينه وجيانه من سوط الجوكي أو ركلة متخنثة من قدم تمرنت على الخرافات ان ثمانية كثيرين من المفتونين بالشطرنج يصيخون سمعهم على بعد الاف الكيلومترات ليسمعوا «تكة» تحريك البيدق او الفرس أو الوزير ويظلون مرتبطين برقعة الشطرنج أناء ليل على حسب ما يقومون بحركة في رقعة المتبارين كي يحصل تطابق دائمي بينهما وبين رقعتهم... فمنذ ملايين مئات وآلاف السنين الى ما قبل التاريخ المدون لم تأت على الانسانية ساعة واحدة لم تأت فيها على زوجها دمارات لعبره ولم تعدها شذوذ زوجها على اختيار غيره عشيقا أو زوجا واحيانا حساب كراة اطفال الزوجين وسمعة عائلة المالكة بل اترك قولا المتصلين بالزوجين وأهل الملايين الخمسة، وكثيرون منهم تطوعوا ساقان نبه فلكية للتزود بنظرة واحدة - عميت عيونهم - فانهم يشكلون منذ الانسانية ثلة واحد منهم يعين محتاجا بخزعبلات ولكن يصرف شيء ثروة في توديع ميتة كانت زوجة ولي عهد بريطانيا! سألت الوجوه!! أنا ارى ان شاه محمود وطالبان مدفوعون بالرغبة المجنونة في تصفية الخصم شأنهما شأن من ذكرناهم من الناس المفتونين بال (كنكلك) و (الريست) و (سوط الجوكي) ولقد وجدوا في السليمانية شطا جميلا كما يحضن أعمدة المباني في الليل كما يحضن العاشق عشيقته فيطفئ بالعهر شهوته المحتدمة... فعل هذا لهو من أشرف من قد رأس المتلاعبين برؤوس الناس في غير داع فكيف اذا كان عند المصالة العلنية بأمرها. قال الشاعر الفارسي:

راست موجب رضاء خداست كس ندیدم کہ گم شد از رہ راست

«الصدق موجب رضا الرحمان فما رأيت احدا ضل عن الطريق المستقيم»

لو قدرت لأبرقت الى روح هذا الشاعر أن ضياله النبيل ضبط على واقع معاكس تماما لما هدته اليه روحه الطاهرة. حضرتي أفلوطين الروح تقول ان فتاة اختارت ثوبا في أحد معارض الثياب فجربته في شتى بطون فتاة من العاملات في المحل فقالت العاملة: هل يضايقك الثوب فقالت لا.. وهل تتحركين فيه بسهولة قالت نعم.. وهل يضيق نفسك فقالت لا.. قالت لها العاملة: إذا أنزعي هذا حتى اجلب لك واحدا أضيق!! أصحاب ذات في أغلب الأغلب من العالم الثالث يفضلون القضايا والمطالب والسلم والكرب على قياس نوع يضايق التقاليب والشهيق والزفير ولربما لطول انشغالهم بما هو غير مألوف في مزاج البشر يجدون ترحيب بالضيف بوجه الطلاقة ولكن غير قاتلة والحمد لله.

المسيحيين مثل الأسلام في خلافاتهم الدينية: تأريخهم ملئ بالدم والنار والبوارد وستهم غالوا أشد

إنكار المعلوم بل رفضوا كروية الأرض و سخروا كولومبس في محاولته الوصول الى الأرض بالذهاب غرباً ليرجع الى بلده من الشرق[1] علماء المسلمين لم يطلبوا إجازة الكنيسة على حين كان البابا له سلطة دينية ودينية و يقاصص الملوك بالحرمان. لقد حصل التأثر بالكهنوت المسيحي أن صاروا يبيعون الجنة مقابل المال. أقول بأسف شديد انني لا أملك وقتاً ولا إمكاناً للإحاطة بأحوال جميع البشر فذلك يطول أمره سنين كثيرة حتى ان الإلمام بأحوال البشر غير المتمدنين من مثل الاسكيمو والهنود الحمر القاطنين في جزائر المحيطات وسكان استراليا الأصليين والبيغميز والهوتنتوت في افريقيا يطلب بحثاً مستفيضاً يضيق عنه وعن جزء منه أقصى ما أستطيع، ولكن يمكن قياس أحوالهم في الجملة على الناس غير المتعلمين في عالمنا الذي يقع بين الأمم المتحضرة وبين اولئك البدائيين مع ملاحظة أن هؤلاء أيضاً بدأوا في دخول عالمنا الثالث مع شوائبهم التي تنتقل بانتقالهم من طور الى طور..].

ان استفراض الأحوال السائدة في العالم من حيث التقدم والتأخر أمر مهم صعوبة المبالغة، يعتبر من قبيل المقدمات الضرورية و يعتبر استيفاء بحث أشبه بالمستحيل اذا تكفل به شخص مثلي محدود الحركة قاصر المصادر الضرورية عديم العون على تذليل عوائق الكتابة وتصليح أخطائها فانا بطاقاتي المحدودة لا أملك امكانه تبييض ما يسمى مؤلفات الكتاب فكل باحث [لا ماندر] من نسخة واحدة فاذا ضاعت ورقة ذهب احياؤها من الفكر مجدداً.. ثم اني سأدخل الثمانين خلال أيام ان لم أكن دخلتها منذ أيام أو أسابيع فقدان الإرادة في موسم عرض العنب للشمس كي يصبح زبيباً رأيتها الآن في ١٩٩٨/١٠/١٤ دقت لي الشاعر العربي الجاهلي اذ قال:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

ولكنني لست متبرماً بالحياة ولا فاتراً الأمر بل انني استعرض حالتي في جوانبها المتناقضة والمتبقية و بدقة تامة فلا أحس بفارق شعرة بين ماضي عمري وحاضره خلا سكنة في رجليّ ولا خطأ في تناولات في المشي صعوداً أو نزولاً. مناحي في الأكل واللبس وأوقات النوم في الفصول المتعاقبة. قلة اعتنائي بالثروة كانت وما زالت على حالها متوقد المناسبة بيتاً لشاعر عربي، ربما من عصر العباسيين، جمع مرغوباته في سبع كافات هنّ:

كنّ وكينّ وكانونٌ وكأس ظلا مع الكباب وكاسٍ ناعمٍ وكساءُ!

ظاهر من مفردات البيت ان الشاعر اهتم بالكينين حتى يتقي له حياة الستة الأخر. أما الكانون فهو يصيب هدفين: الطعام وفصل الشتاء.. وقد اشتهر البيت بـ "كافات الشاعر" كما أتذكر. جاء في القرآن: "الشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون". والتنكيت على الأخوين كثير وكثير من أهله. رواية تقول ان نحوياً صاح في الليل على غلامه: هل سقعت العقاريف؟ فرد الغلام: مولاي ضُبِّلَ. فقال الأخوى: ويحك ما معنى ضبظلم؟ فقال: وما معنى سقعت العقاريف؟ قال: عن هل صاهت الديوك؟ فقال: وأنا أقصد أمراً ما صاهت بعد!! فأنا يا قارئي في وضعي الحالي بوفور العيش

---

(١) لم يتمن لكولومبس ان يكمل رحلته حول الأرض، بعده دار ماجلان تلك الدورة ولكنه قتل اثناء رجوعه من الشرق فأكل كبير ضباط تلك الرحلة.

منذ أكثر من سنة ، إن لم أكن كثير التحيز مبدأ على حال كردستان ليس فقط على سوء ما يجري في الأفاع السياسي الكردي بل لأن طريق الفدوح والنجاح أوضح وأسلم وأروح عشرات المرات من طريق النفق والفضاء. فرص السلامة والرفاه والبناء في بيوت الناس [٤/٨/١٩٩٨] رغبة غبية كما هي في أي بلد آمن مؤمن بالسلام والوئام وبنات الحضارة فانا اخر على ضياع الممكنات وهو أهون مصيبة من ضياع الوجود القومي والفرص لا تتاح في كل يوم والكوارث لا تنقضي في كل مرة بموت نصف سكانه اختياري لصوان مستشفى مجانين لسبب عام هو كون المجتمع (البشري) ككل أشبه بمستشفى من هذا النوع ولسبب خاص هو ما يميز من الموضوعي الوجود الكردي. أما جانب الشؤم في مأساة (المستشفى) فقد كفى فيه ان تكون الدول المتخمة بالعلم والتكنيك والتصنيع والثروة تتصرف تصرف المراهقين في السياسات الداخلية والدولية [أمريكا أم الكبائر في السياسات] فضيحة فيتنام، التدخل في ايران.. معركة خليج الخنازير، عودة ساترا الكبائر في الكربية والجنس - عندي كتاب من ألف وستة صفحة في شؤون رواية عنوانه Hamlets ghost للكاتب أمريكي اسمه نورمان ميلر فيه الشخوص الأساسية تضم من كبار ساسة أمريكا بدءاً من رئيس الجمهورية وعبر الكونغرس والبرلمان الى هوامش الدوائر العليا يثبت فيه كاتبه ان هاملت موجود لم تنكر وإنما قتلت في معترك المنافسة مبكراً [أو ربما لأسباب أخرى أيضاً لم انتبه اليها] فاكتشف الطب ان عقدتها كانت قاتلة ولكن بعد ما فيه عقابير عانت سبب الموت. احد المنافسين عالج الرئيس كندي الذي اغتيل بعد فترة في مدينة Dallas. وداره عينة لتصرف أصحاب الثروة والنفوذ في هاتيك البلاد.

أما جانب الوجود الكردي فقد وجب فيه استعمال الشرط بدل القلم لفرط الاستراحة بالأخطاء والاعتداءات على عامة الخلق واستباحة حرب الابادة للخصم والتفريط في الموارد بالذهاب الى جيوب لا تستحقها. أقول هذا وأنا ادرك ان مستوى العامة ليس بأحسن من مستوى الساسة الكربيين بل هم أدنى من ذلك المستوى ولكنهم رغم كل شيء هم أصحاب حق وليكن من قبيل أن الطفل الذي لا يعي شيئاً له حق في الحياة والعناية والتربية يضاف الى ذلك أن تبرير الكربية وعمل السلاح والدخول في المعارك المتنوعة منبثق من بداهة كون (الشعب) ينبوع الحقوق التي تخدم مصالحه مقابل كونه يؤدي واجبه في القيام بالتزاماته [وان كنت اعلم ان الواقع في العالم الثالث بعامة مقلوب تماماً فارغية - لدى الشعب - مطلوبون بالدرجة الأولى ليقدموا ويخدموا ويربحوا قادة الخاصص وبلوغ الأماني هو بداهة ان الربحية قبل بلوغ الحركة الوطنية !! لان الرشد كانت تشاهد من قبل الأحزاب والحكام بشيء ملحوظ من الاستهانة لكن الكربية المستفزة !! تضطر دعية طرف آخر كالدكتاتورين احرى اعداء الشعب! والوطن! ولا داعي لأطالة أكثر.

انا أصل في الكتابة، بعد صرف النظر عن بعض امور كثيرة وخطيرة جداً عن حيثيات دار المجانين، الى المعضلة التي تحيرني أكثر الذكاء وأوسع الناس علماً واقدرهم على تذليل الصعب في الاستكشاف وهي سؤال بسيط في كلمات قليلة مضمونه: ما هو السبب الحقيقي والعلة الغائية في نشوء دار مجانين تلف مليارات البشر؟؟؟ هل السبب بايولوجي أم سوسيولوجي أم أخلاط واشكال من تعقيدات المجتمع وظواهر الطبيعة غير المفرة في فهم العامة أم عوامل خفية في الطبيعة.. في الكون تفعل فعلها ولا ندري عنها شيئاً حتى الآن؟ هل ان المجتمع يمكن ان

يصاب بعلل في الأعصاب لتأتي أسباب خارقة لا ندركها ولا نفهمها تفعل فعلها بعفوية غير مقصودة ؟ هي لا تزال مستوعبون لقابليات وخاصيات وطبائع الجملة العصبية فأنها معجزة معجزات هذا الكون الملكوس في معقولاتنا لحد وقتنا هذا أي هكذا أتصور أنا والمثال أقول ان جهاز الهضم والدورة الدموية وأجهزة أخرى كثيرة معجزات في حد ذاتها ولكنها ليس (العلامة الفارقة) لبني البشر فالأحياء الإنسانية مزودة بجهاز هضم ودورة دموية وعصبية وحسية وحسية الخ ولكن ليس لواحد منها ما للبشر من جملة عصبية تحوي فيما تحوي (العقل) وهو الذي أكبر المعجزات الطبيعية فانه لئن كان من الجائز أن يوجد في هذا الكون الممتد الى غير نهاية عالم كعالمنا في الأرض ساعد على تكون الحياة، فتطورت خلال مليارات السنين الى كائن عاقل كما حدث في وطننا الأرض فيكون هو وما قد يوجد مثله في عوالم أخرى أيضاً الآيات الكبرى المماثلة للعقل البشري بل ان الخيال الذي لا يكبله القيود والشروط يمنح عليه [كما في واقعنا] ان يخامره احتمال في طوايا الكون ان تنشأ في بعض هذه الطوايا حياة، حيوية [أقصد حالة مميزة لحالة الحياة على الأرض] من غير حاجة الى ماء وهواء وعلى هذا الاحتمال، وهو بعيد، تكثر انماط الحيوية وتتعدد مواطنها ولا ندري كيفية تفاعلها وازدهارها وكم يدوم عمر تلك الأحياء وهي في ظل هذا الافتراض المتاح على مساحة أوسع من مساحة الارض المحورة بأحيائها مرات ومرات، لست ادفع خيالي الى معالجة الاحتمالات المنبثقة من الافتراض المذكور وغاية اهتمامي به هي هذا السؤال: هل من الممكن ان يكون لهذه الأحياء المتخيلة وحياضرها التي تعيش في نوع تأثير في كيفية احوال الحياة عندنا لا سيما وأنها من علاقة بيار المجانين البشرية؟ أنا لا أدري وإنما أتخيل، مجرد خيال، إنها تتربع طبائع تلك الأحياء إلى أبعاد فلكية تتجاوز المسافة الفارقة بينها وبين الأرض بل ان الافتراض المذكور يتيح ان تكون أرضها صالحة بيئات أدهاراً وأدهاراً قبل خلق الأرض والمجموعة الشمسية فليس الموضوع متوقفاً على وجود أو عدم وجود حياة خارج تلك العوالم فحتى لو كانت موجودة بمليارات مليارات السنين تكون تعمل عملها وتبث تأثيراتها عشوائياً من غير هدف مرصود ولا فرق في ذلك سواء كانت الارض وحدها مأهولة بالأحياء أو كانت مئات والوف غيرها منتشرة في الكون تحمل حياة على نوع ما قد تكون أرقى او ادنى من[1] قرأت فيما قرأت مواضيع متصلة باحتمال وعدم احتمال حياة في الكون الاوسع فكان، كل التذكره وجود احتمال مليون كوكب مماثل للأرض مأهولة بالأحياء وذلك حسب معادلات في الرياضيات العليا وغيرها من مصادر المعرفة

اقول هذا وأنا ادرك ان العلم الحديث مطلع على أمور في الكون اللانهائي ولكن لا يذاع لا سرها ولا اسرع الرجزي ولم اعرض بهذا سبب الغموض المتعمد وكأنه جزء من العلوم الخطيرة أو فيه مفتاح المارد المختوم في قمقم، والمناسبة تستدعي القول بأنه اعمال الأبحاث قديمة بقيت آثارها ومعالمها [واحد منها في أمريكا الجنوبية] لم تغلق معابدها أو مراميها، ويشار الى وجود خفايا رمزية في بعض المرايات مصر والهند والصين من أمور سر يلفها بالخفاء وتفترق الهند بيد طولى فيما يسمى السر أو اليوغا والملحون عامة سواء في الهند وغيرها دون اولئك مهارة وبراعة ويعود السبب الى تحري السر والشعوذة في الاسلام كما أعتقد، الكرامات تنسب أغلبها الى الصوفية ثم منها شعوذة يتوصل بها الفقير المعدم على شيء من الدراية بخداع البصر وفهم آخر أصيل لا غش فيه، ويوصف بها هي عند بعض العجز. وأظنني سردت حكاية السيد اوليفر لودج مع العجوبة العرافة في بيته وصحة تنبؤاتها..

---

(1) تضاف الى نهاية السطر بعد حرف (من) هذه الكلمات: (أحياء الارض بما فيها البشر).

والاه ياسم الله تحريرها وفرضاها ما هو العامل الأساسي في انقلاب بيت العاقلين الى دار مجانين؟
أصعب سؤال جابهت به نفسي في حياتي كلها: لماذا يا خلق الله، أيها الأنسان الوحيد بين الاحياء تتم بالفهم و
استشفاف المجهول، يا من ساح بين النجوم وكرّست الريح فكان أسرع من الريح نفاذاً وسرعات وسرعات.. ايها المخلوق
الأوحد في رأي وعيني ونظري فككت طلاسم الجاذبية والنسبية والذرية والبعد الرابع. وما بعده. جئت بعلمك
في أعماق الثقوب السوداء على بعد مليارات ضوئية يا معجز المعجزات وكاشف الظلمات ومفرّق المافات
كأني بك قد صدق فيك المثل القائل الحر على الحر فأنت أسير ذاتك وهادم بيتك وناقض نسجك و
حاصد أنانيتك وراحتك ثمة تنصف نفسك وترحم نفسك فتتساءل يا سويا؟ كيف بنيت من علمك وفهمك
بيتاً للمجانين؟ وهو هذا الكون حتام؟ ومتى صحوة من منام؟ حرت فيك وفي مآلك!! تقول حكاية عن رجل سرّاج
كان يصنع في كل يوم سرجاً يخلب الابصار والأفهام فيعرضون عليه حال الدنيا فيزيل عن السرج بالمرط حتى يجده
رُثّاً فيستأنف في غدٍ صنيعه حتى يوم موته وكان يتقي من نفسه عن طمأنينة لا تحتمل جبراناً وغفراناً. وأنت يا
وكيل السراج جعلت بيتك مدفناً للعادة وقلبت كوثرك صنادلاً في الرياح وأوشكت أن تردّ فجرك القهقرى الى
ليل بهيم سرمدي فما أجدرك وهمّ الشكوى والحزن الزلفى فأنت صاحب الدار وأنت المغدور والغدار وانت النور و
النار فاذا أهرقت بعض لحمك في الظلام كان نور شمعك كما شفاً يوضح الأكلم وها هنا المعضلة التي حيرت الافهام
أأنت نفسك، طبيب يداوي الناس وهو عليل، وإنه بسبب من تفاقم البلاء بين بني البشر وتفاني الذرع
من انطلاق عفاريت الدمار الشامل يتجشم واحد مثلي زعم قصوره في القدرة على صدّ بندقة، يتجشم معالجة الدراما
البشرية من زاوية استشفاف منابع البلوى الكارثة لعلي وعسى أن يتم العثور على رأس الخيط المفضي الى
مكامن الشر النصف لحضارة العلاق السابح بين الأرض والنجوم، على انني يقيني بخطاء عوامل كثيرة سالبة
تغذي الشر المذكور ولكني متيقن من أن جبلّة البشر وتكوينه العصبي وصفاته الحامدة بينه وبين البهيمية
معين النخوة والنقمة والنور والظلام والجمال والقبح الاجتماعي على السيد مريوش وكاكه هاوار
وآقاي اسفنديار وبابا يربك ومستر سميث ومسيو لا أدري ماذا وياماتو.. الخ الخ. فاذا استقام لنا
الحكم بصحة ما قدمنا في الفاعلية الاولى لهؤلاء المخاليق بصدد الشين والزين لما يجري في صومتهم فقد
عثرنا على المفتاح الأول والأهم لكل الأعجوبات الحيرة والعصية على افهام العامة وذلك هو (العقل)
الذي ميّز مريوش وربعه عن كل الاحياء والجمادات التي تدركها احاسيسنا سواء ما كان منها على وجه
البسيطة أو كامن في الحجرة وسواء كان ظاهراً للعيان أو متخفياً في ألغاز الكون يستشفه الذكاء البشري:
ذلك المظنون في عالم الديدان الى ما قبل عقود من السنين ان الله سبحانه وتعالى يعلم وحده ما في الارحام. واذا
بك اليوم تتفرج على توأم الجنين في بطن أمه من خلال التلفزيون وتميّز أنثاه من ضنثاه بيقين كامل لو كنت
تتفرج على كيس نقود الملياردير أو الحالي.. كان المظنون ان القمر جرم سماوي حُبب نوراً وإذا به جرم كريه
المنظر لا هواء فيه ولا ماء وقد ساح على أديم مسيو كونزاليس ورفاقه قاذوراته على كتلته المنفرة
حتى ان ضوء القمر الليلي رغم كون الشمس بازغة بسبب فقدان الغازات التي تنور بضياء الشمس.
من القمر فجر وعصر ولا أدري ماذا حتى انك لا تحس بوجود الشمس وراء الافق حتى تظهر فجأة بلا مقدمات

ونهار القمر نصف شهر وليله نصف شهر. لا ربيع ولا صيف ولا جمال ولا كمال فالقمر واحد من التوابع لأحد توابع الشمس وهو الأرض فجاله في المصطلح الكردي (دوور كوز) أي (القائل على البعد). ولكن القفز على سطح القمر يرتفع اضعاف ما يرتفع على الأرض لأنه جاذبية القمر ضعيفة ولو ملكت الأبطال لرخلت في سباقة للقفز مع اطول الرجال قفزاً شريطة ان اقفز على سطح القمر!!

القمر أصبح كنيفا للنازلين عليه ولكن حثالات الانسان يرحون الطبل ويفعلون الافاعيل يطردون بزع الجاموس والعفاريت عند خوف القمر ويفعلونه أضعافه عند كسوف الشمس!!

هناك حضيض لتفاهة العقل انا اخذر اليه الانسان نزل في الحيز الفاصل بين الانسان وبين البهائم، فالواقع المشهود للأفاعيل الغالبية من حيث البلاهة السمجة والتصرف الأرعن والملفظ المعلوب وتصديق الخرافة يقطع الذيل من أن يكونوا عوناً على خطوة واحدة نحو التقدم فأنهم بحكم ذلك يخطون الى وراء غير شاعرين ولا مهتمين بالذي يفعلون وأين يتوجهون فالدنيا من حولهم هي دنيا الله لا فرق بين شرقها وغربها وشمالها وجنوبها الا اذا كان الشيطان قد نصب نخاخه في الجهة التي اختارها... في استيعاب الجهات الثمان المتعارف عليها لا مانع عند الأكثرية أن تقول: الشمال الجنوبي والغرب الشرقي فكذبوا جهات تحريا الملائكة.. ان الذين يعيشون في نهاية القرن العشرين بعقل من عاشوا قبل ألفي سنة وثلاثة آلاف هم في صدد تقديم الحضارة الى أمم و الساعة على تذليل الصعاب في محاولة العلماء لاستكناه حقائق الوجود لهم نصيب كنصيب الآلات و بعض البهائم في حمل الثقل ونقل ما يجب نقله وقد لا يكون لهم نصيب على الاطلاق الا في صورة معكوسة و نسبية اذ يعزون كثيراً من المخترعات الى عمل الشيطان حتى يوم يألفونها ويتعودونها يفوائدها و مرارتها.

أنا إذ أعرض صوراً كثيرة من بلاهة عامة البطاء أقصد به تعويد عامة القراء على تقبل فكرة دار الجاذبية: ربما الكون قد ظلمت البطاء ذوي الادمغة الفارغة من نور العصر في كثرة ما أذكر من سيادين تخلفهم حين أقيم مقارنة بين جاهل يدق الطبل في الخوف وبين حزبي ثوري علمانيّ يزل إنجازاً واحداً عن ظهر يغلبه فيما هو قائم به من العنف والشدة والتخوين والتهديم حتى ان هذين منهم لا ترضى بغير (الاستئصال) سواء الذين هم حتبرونهم عقارب وحيات وذئاباً وحشرات سامة أم لأية فكرة تنفق عنها أدمغة العباقرة. وأعيد هنا قولا كتبته و رددته آخرون قبلي، لجماعة من اكراد اوروبا اكتشفوا (كنزاً!!) سياسياً فلسفياً اجتماعياً أفق بخلق البهوازية في كردستان تم يهدموزها كما تصرف نظرية ماركس في المراحل التاريخية.. هذا الكلام المعسول الذي سيل له لعاب المغفلين الى حاء كوثر كان ضيقاً بناس آخرين قطعوا مراحل جاوزوا فيها آمال ماركس فأنهم سموه الكلمة يحركون لسانهم وقلمهم في المعرفة ويتشفون حقائق مطورة تحت أستار واستار من المعميات الأحاجي فاعسى يكون شأن الكردي الذي يعترف بأنه لا يملك بيتاً قائماً يهدمه وهو خاوي الوفاض بين ذه في البيوك وداهية في الأسمال مقدار من النقد لبناء عشرة بيوت في قرية من القرى يهدموزها تنفيذاً للأوامر ساوي الذي نزل عليهم في تثبيت (نبوة) ماركس بقطع المراحل... أدليت هذا الهراء الباعث على السخرية و لال على غباء أدمغتهم كان قابلاً للتحقيق رغم ما فيه من حمق و وهم لأنه أقل ما في تحقيق نيتهم هو وجود مال ونقد ريالة وعن وسائل هذه البلاغ فالبهوازية لا تبنى بالصفقات والاعتمادات و التوسل بأضحية القديسين و

كبير اللغات للشياطين والعفاريت نذر رحلة اجتماعية ذات زلال وبرك بينها وبين مغاليس الكردفن يومهم الراهن مسافات أطول من رحلات التريار البهـ. هؤلاء الدراويش المفتونون بأوهامهم وبلاهم الاكليريس المسيحي الذين كانوا يقتلون العالم الفلكي في قوله بحركة الأرض لكن القاعدة اعتالوا على جريمتهم بطرقهم الدينية المرتابة بالغيب فأصبحوا سيارکون هم العلماء من فلكيين ومن أصحاب شئون المعرفة ومن يكن (بعد ضرب البصرة) كما يقول المثل السائر.

على أي حال لا حيلة لأحد في الاعتراف بأن (عقل) البشر هو العامل الأول لكل منجزي منذ عشرات ألوف السنين الى يومنا هذا وإلى ما سيقبل غير ذي نهاية فيما هو (اجتماع بشري) والدليل على ذلك يبطل بلا كلام ان نجد عالم الطبيعة من جماد وحيوان يكرر نفسه بلا تغيير محسوس من جهة (الادراك الواعي) فان أذكى القرود لا يتفوق إلى (٤٨٧ = ٨) فالذكاء الغريزي غير ولود ويقود الأحياء فقط الى حفظ الذات ودوام النسل. في نظر البرهمي لا فرق بين كتلة حجر وطيارة نفاثة الا في الدفعال الذي يعتريه عند رؤية الطيارة لأول مرة فقد كان الانسان أشد اندهاشاً من القرد برؤية الطيارة لأول مرة في سرحل كركوك أو بازيان. والواقع هو أن اتساع الخلاف بين البشر والبرهمية في نظرها الى (الوجود) بدأ يحدث منذ عشرات الوف قليلة من السنين وهما الآن يلتقيان في التصرف عند سنوح المعاشة فالكلب يكاد يكون صورة من صاحبه تجاه المعارف والأعيار وفي حالات الخطورة وقد يمتنع عن الأكل حتى يأذن صاحبه ويبادر الى مداراة الصغير الذي لا يفقه مواطن السلامة والهلكة. ولو رحت تتأمل تطور الأحياء وجدت ان الفرق بين الاحياء المجردة والقرود المتطورة اوسع كثيراً من الفرق بين القرد والانسان. صرت أميل الى اقناع نفسي بتصديق أن توقع انقلاب قرد الى شئ بين القرد والانسان. اقرأ ان بعض القرود تلفظ بضعة حروف بلا فهم فما عساها تكون بعد عشرة الاف سنة وماذا يحدث اذا جاوز البشر قدراته العلمية الحاضرة في تريع وتبطئ تطور الاحياء؟ رجال الدين أوشكوا أن يجنوا في بطؤ البشر الى استنفاذ البشر وهذا أول القطر فماذا ترى في احتمالاته بعد ألف سنة؟ يا ضيعة المعنى في إصلاك أيدٍ جاهلة ضالة همها تجهيل البشر وتروعه من المسيح الدجال، بصناعة الناس والناس في غالبيته ذو مرونة في تصديق المشعوذين فانهم يجهلون الحقائق المكذبة لأساطير الدجل فيكون تسليمهم بصحة الخرافة صورة من الاتكال على أسلم العواقب خشية ان يكون الصدق في الذي يقوله المشعوذ بحجة من منة وحية وحية.. الخرافة لا تموت بسهولة نقد وجهنا المثقف الثوري يبني الحواجز ويسد مسالك الخيال فكيف بالدروشي عبد الله والصوفي عوض الله وقد فتح له الخيال ابواب الجنة بلا هدم ولا تعب في اقامة جنة أغرب أشيك وأجمل فيها الكور والقصور وملائكة من نور ولا ثمن لكل ذلك الا ان يكون المؤمن مصدقاً للخرافة.. ولي تصديقه لنفسه بأغرب من تصديق المناضل الثوري لأضحوكته التي تفتقد حتى فذاً واحداً يلعب به فيما يسمى بالكرية (سوشالجية) -- فالصوفي اقرب الى أمله المستند الى العيب من الثوري المتكلف لبناء صرح الحضارة ليهدم وهو مفلس..

العقل في اجازة، كما يقول المثل المصري، ولكن لا مندوحة من الاعتراف بكونه آلة الفهم والحكم والتمييز وان

يكن في مأمن واحدة من أرض الله سادراً في غيّه ومستريحاً الى البشائر الوهمية في توقعاته حتى اذا خابت التوقعات اشتد تمسكه بعقيدته وسباحته بتأنّب الكوة والبرمائيين والاقطاع على أهداف السفيلة في تصفية الواقع القذر.. ويستعد للجولة القادمة الخائبة: فانا ما خابت، والعياذ بالله، استأصلت اصحاب الأوطار المرادفة والانهزامية المأجورة! بعدما تعتصر آخر قطرة من عصارات الرخاء الماضي لا تجد شيئاً يلتهب به الـ"بعث" الخارقات القومية التي تكفي للتسلية بعض الوقت حتى تجد فرصة ملائمة للانفجار كفقاعة صابون تموت في اعضان الشيطان..

اعود فأقول إن العقل هو العامل الأول والأخير.. والعاشر في صيرورة التقدم والتأخر والشر والارهاب والسلم والحرب. خلاصة الكلام ان الاجتماع البشري في صيرورته التي نجدها تتطور وتستند على عمود واحد له ركائز ساعدة ومعادية ولو سكتت هذه الركائز فالعقل (يبقى) أصيل كالاسد من الأولوية.. وأقول من باب التوضيح ان التناسل مستند الى عمود واحد هو اتصال الجنسين فبغيره لا يولد مولود وان تراكمت الأطعمة والأشربة وكل مباهج الدنيا والقيامة على صورتها الكنة لا تفيد في هذا الميدان.. هذا السمع مثلاً وهو نافذة من نوافذ الحس بالدنيا وآلة من آلات العقل كالشم والطعم وغالبية فهو أيضاً لا يسد فراغ شيء اذا أصيب بالصمم ولكن لا يعطل العقل فهو قادر على الفهم بالاشارات وكثيراً ما يضطر عديم السمع والنطق وهو في طلب الصيد فيكون نظره هو المحل الأول من الحواس. والذوق شيء هامشي يفتقده الانسان اذا تعطل ولكن لا ضرورة فيه فقد يولد مولود لا يتذوق أو يصاب شخص بفقد الذائقة فلا يتأثر كثيراً لأن مجال اقتناص الذوق هو الاحساس بالطعوم وقد وجدنا أغبياء قديرين عندما ذهبت ذائقتهم ولكن حواسهم لم تتأثر وشعورهم بقي كما هو..

والعقل جهات تكاد لا تحصى ما بين سالبة وموجبة فأول ما يقال هنا ان البشر لم يولد من مليون سنة بعقل كامل وإنما اعتراه التطور البايولوجي السري في الكائنات الحية منذ وجدت حياة وانه ليوجد هذا الجهل آثاراً غير كاذبة في جسمه من مثل الزائدة الدودية وعظم العصعص وغدد تعطلت عن العمل من مئات الوف السنين حتى ان بعض العلماء يعتقد ارتداد جزئي إلى الوراء حيث كانت الجة الملايين للبشر تلد أعداداً هائلة من المواليد فحلين بعد شذوذاً عن الأصل بل هو نوع من الارتداد الى الأصل. ولا أعلم السبب في أيدي البشرية بستة أصابع فهل هذا سيل الى الزيادة أم ارتداد الى ماضي البدين ولا أملك كتباً أرجع إليها للقطع في الموضوع برأي معين ولكنه يقيناً محلول عند العلماء المختصين..

ولابد من كلمة تلقي ضوءاً كاشفاً على حتمية تماثل الأعضاء في أجناد أنواع الأحياء فالنحل مثلاً لكي تملك أجهزة هضم مماثلة ونفثة فروها تكاد تكون من ريشة فنان يرسم بألوان.. خلايا النحل وما يختزن من عسل وكيفية تنزيه العمل بين اصنافها ومهمة إفناء عمالها كلها وغيرة غير قابلة للتبدل وغير مقنعة في نظام البشر فليس مألوفاً ولا مقنعاً ان يكون مصير (بروليتاريا) النحل القتل في مقام عمله ولا أظن أحداً يدرك كيف استقام لحياة النحل من مليون سنة أن يكون دوامها مرتبطاً بمجزرة العمال!! هذه الطبيعة الحمقاء من ولنا تمارس في ريش الطاووس فناً معجزاً يعيي به أعقل عقلاء الفنانين وغيره من الجمال والكمال مقدار يزيد في مرة على حاجة الذكر الى جذب الأنثى للانجاب.. فيا عجبي من روعة صنعة تنبعث من غير فهم ومن دون

إرادة أو رغبة فالطبيعة التي لا تعي ذاتها تلك معجزة في نقشة الطاووس في غياب مطلق للإرادة في أن يؤدي كامل فالمعجزة المذكورة وهبوب الريح وتزول المطر وانشار الأوبئة وفناء الشاة كلها سواء من حيث انعدام الإرادة ملموسة أو غرض مقصود من تلك الظواهر وغيرها بين ملايين أمثالها.

أنا إذا أشرت في بعض ما تقدم من كلامي الى احتمال وجود أثر قوي أو ضعيف للعوالم البعيدة من ملايين سنة ضوئية في حيثيات الدنيا [والأرض عموماً] كنت استمد من معجزات الطبيعة الحمقاء عندنا أشياء شبيهة وهي منبثة في هواء الأرض والشمس والكواكب تعمل في فضاء تام وهي لا تحتاج بنفع ولا بغيرها فتكون هي أسباباً لأمور تقع على غير انتظار وتبدو كأنها أجنبية غير قابلة للتفسير إلا لقلة قليلة جداً من أفذاذ البشر لهم أيضاً غير مفهومين عندنا بقدراتهم الخارقة. ربما يصادفك يا قارئي رؤى وأحلام وأشباح في أوقات متباعدة قد تعتبرها أضغاثاً أو هاماً وتتناساها في مشاغلك بسبب كونها في ظاهر الأمر عديمة الجدوى والأهمية، وذلك الحق في ذلك فما يُطلب من كل الناس الغوص في المعضلات ومحاولة فهم الظواهر غير المألوفة بل لا يوجد إلا نوادر البشر لهم القدرة على عبور هذه المحيطات الحيرة ولكن لا حيلة لك في الاهتمام بحلم رأيته في نومة الفجر كان صادقاً أو سمعت صوتاً غريباً في هدأة الليل دون أن يكون له مصدر معلوم ولكن مداه كامن وحي بوجود أو وقوع أمر ما. فالاحتمالات المذكورة هي موثوق من وجودها وبين مشكوك فيها تتردد وجودها على مجمل حيثيات العقل وتصبح من منظور فاعلية ذات نصيب في (أومية) أحكام العقل. والواقع هو أن ناساً يعيشون في بيئة متماثلة تمام التماثل يتصرفون في موضوع واحد بالذات - ولنقل هو الثأر للكرامة [بأساليب متباعدة بعضها عن بعض فتجد أحدهم يفعل بعقلية الطفل فيرى بقرن ثور ميت في صحن دار الغريم ويذهب الثاني فيقطع ذيل حمار الخصم ويتجنب الثالث متاعب درس خرافا القمح المعروض في ضوء الشمس... وهكذا [وقائع كثيرة في الثأر حدثت أعلم بعضها صوراً لا يسعني بيانها].

وهكذا تجدني يا قارئي أحكم بأومية العقل فيما يفعله البشر سواء كان هزلاً في تصرف أو مخدوعاً في محتال أو مغلوب للإرادة من مشعوذ أو مدفوعاً الى الزين أو الشين بالمال أو غيره من المغريات فالمغريات كلها والأحتيالات كلها والأعتقادات كلها لا تستطيع تحريك البشر الى الهدف المرسوم له أو المفروض عليه إذا وعاها عقله ولا يشترط قناعته بها في كل الأحوال وقد قال العرب « مكره أخاك لا بطل » لكن ذلك لا يمنع من رفض الشخص ما يُطلب منه أو يُغرى به وإن نخو حياته ثمناً. وكم من أبطال الفداء في المواقف البطولية الشريفة آثروا الموت على حب الحياة وقال في مثل هذه الأحوال أن الضمير أبى أن يلين للإرادة بتمنها وهو كلام مقبول بل نبيل ولكن الضمير لا يترك إذا كان صاحبه مجنوناً أو معتوهاً فلا بد للعقل من حسم المواقف سواء كان الى المرونة أو التضحية أو الاستسلام والحياء أو التربص أو الخديعة أو الخيانة أو الهروب الى مأمن أو الانتحار.

لا محيص من الاعتراف بأولوية العقل فيما هو اجتماع بشري فما من عفريت أو ملاك يكمن في تجاويف المخ أو طرف لسان الآدمي فيظفر بالنهاية عنه: وبفرض أن وهماً ركب عقلاً ما فسيلقى العقل الواعي هو المدبر عالم بمنعه مانع من حرية التصرف فلا بديل للعقل الا اذا جُنّ صاحبه فنصب القاضي وكيلاً عنه بتمام عقله أو بما هو مألوف من تعقل الناس. إننا نعلم بالبداهة أن المجتمع يحوي موجبات لا تعد ولا تحصى صالحة وطالحة و

محايدة وأن الأفراد والجماعات عرضة للتأثر بما يقال ويُعمل حتى ان العقائد الخطيرة ما بين دينية وسياسية آيديولوجية تصبح جزءً خطراً وفعالاً من قناعتهم الراسخة ويتدرعون عليها كالجاهلين وتلك آفة من الآفات القاتلة التي لا دواء لها الا بأفلاس العقيدة نفسها وهو أصعب من ضحايا القتال لاسيما في العالم المتخلف الذي ليست فيه خبايا التطور الاجتماعي فتمضي القرون وهو حيث هو في ترعة العاطفة حتى ترد عليه المستحدثات اليه من العالم المتقدم لا بكرهه ولا بالتأثير الحضاري المتولد من وجود صناعة المستحدثات في وطنه فقد امتطى السيارة ولكن يرجع اعناقه الى مشهور مصفر الاكبة بالدخان ويرنو الى الطيارة في السماوات فيسبح بحمد الشيخ الذي هدى أولئك الكفرة الى مطاولة العمارات ليزدادوا كفراً في الحُطَمة ولقد عانى كثيراً وعبر عقود من الزمان حتى تبين أن الكهرباء ليست من عمل الشيطان كما كان يظن وبعد ما أيقنها كانت خانة اعتبارها دون اعتبار الكاز فهو يدخانها ويخامرها ولا أدري ما أيقظ يوم تنشر آلة حلب البهيمة عوضاً عن الأصابع. أذكر انه لما أُسس مشروع اسالة الماء في كويتجق قال أحد علماء المدينة لوالدي: يا سيدي ان الماء لم يعد له طعم بعد هذا المشروع. فقال: صدقت فلقد كان في كل كوب ماء قبل المشروع مقدار مثقال من الوساخة واليوم يا تيك الماء نظيفاً فالطعم يتغير بطبيعة الحال.

تلك أن تذكر فيما يلي: أغلب مخترعات ومصنوعات البلدان المتقدمة تملأ أسواق البلدان المتخلفة ولكنها ليست بالقة للحضارة التي أنجبت تلك المخترعات فالاشياء المستوردة (صنيوف) على البلد المتخلف لكن المصانع التي أخرجت المخترعات ليست صنيوفاً في بلدها المتحدث فالمصانع وآلات الرصد وطرق التجميع وأساليب العلم والفن تكون تحت ذلك قرون أو قرن واحد على الأقل وكلها مدارس لتعويد الناس على التعرف الحضاري وبغير ذلك لا يمكن إقامة مصنع للسيارات مثلاً فأي خلل او نقص في اي جزء من السيارة (أو الطيارة أو ماكينة الكهرباء او الماء) غير كامل الصنع يؤدي الى عطل السيارة وغيرها من جنسها فانت ترى اليوم قاطرات تجري بسرعة ١٥٠ كيلو متراً تحت الارض وليس فيها سائق [منذ يومين شاهدت مترو باريس الجديد بالوصف المذكور]. العامل لا يمر على المصنوعات الفنية منذ أول يوم لا يفكر في مزاج آخر ناقص المواصفات غير انه منذ طفولته التي قضاها في مجتمعات منضبطة يكون في غالب الاحتمال لا يشذ عن قواعد الانضباط في البيت والسوق والمدرسة فأكثر العمارة على حين نجد راكب باب مصلحة نقل الركاب في بلدنا يلهو باستعمال سكينه في خرق جلود المراسي.. بل لقد شاع في دنيانا العابثة اتفاق الحارس الليلي مع اللصوص في السطو على البيوت ومنهم من يمارسون المصادرة بملابسهم الرسمية ولا يجرأ رب البيت على تأية اعتراض خشية قتله وقتل افراد عائلته وقد جرى حكم الفلسفة العملية في قتل الناس على أن الموتى لا يتكلمون ولا يثأرون ولا يمتنعون من التنازل عن مقتنياتهم ولان اكثر من دولة في شرقنا الأوسط تعتبر القتل الوسيلة الأكثر صيانة في درء فعل المظلومين وفي إسكات المتفرجين بالعين أقل تعيناً بالأذن. القاجاريون كانوا يشقون رؤساء القبائل الكردية في فم المدفع بدل القذيفة فتتناثر أشلاؤهم في منظر طريف كما نقل عن (ديزني لاند) لوس أنجليس. روى لي قائد عسكري في بعض نواحي الشرق الاوسط أن رتله تعرض لأطلاقات بعيدة ما أثرت عليه فجمع رجال القرى القريبة من الساحة وهم كما وصفوه في توفير المعيشة فقتلت جميعهم في رشقة واحدة

وعددهم ستة وعشرون رجلاً كهلاً غير ساحين !! والغالب في أحوال كهذه أن المستهين بالأرواح ذو عيب نحلي بالرجولة فيتعالى على خسته وفضيحته باستعمال الخشونة مع الموت وتلك حقيقة مرتبطة وفاجعة لكن بائف أسف، شريحة الضلال والجهل والسفه وفقدان الأنسانية وسوفان الكرامة !! والذي أقوله عن أحوال حاضرنا منتقل إلينا من ماضٍ إسلامي عريق فأول خليفة للعباسيين كان له حكمة تقول: أقتل بالشبهة لي حكمة فاطمة في توفير سلامته فاذا كان في قلب المقتول غل وكراهية فقد أبرز شره، واذا كان بريئاً لا يلحق الخليفة شرّه، وجاء خلفه المنصور فقد أمّن ملكه بن أحد أعمامه وابي علم الخراساني وقتل كليهما بلا إمهال... وهكذا تمضي الأيام حبالى بالذي لا يبين: تقول أضحوكة كردية ان رجلاً كان في دعوى أمام قاضي شرع. فلما ضج الرجل أله ولد كيف مرت الدعوى فقال له: يا ولدي الحلف صار من نصيبي.

ومما يجب الانتباه إليه أن ما يسمعه الطفل ويراه من القباحات يصبح جزءاً صامتاً من معقولاته ومحسوساته، ظل يحشر في نفسه أضاديد بعونة القباحات التي تتوالى يوماً بعد يوم وتزيد من تمهيد عقله وضميره للأيمان بهذه الأضاليل. الى كثيراً ما تستهولني هذه الحقيقة الحزينة التي تحد الناشئة بغذاء التعليم والتقويم فلا أكاد أجد بصيص نور يبشر بالتفاؤل لانقشاع الغيوم المكتنفة لرمضلة المفاضل فهو يشرب منذ الطفولة خزعبلات الجاهلين فيجترها ويتجرع في العرموسات وسموعات تحط من قيمة البشر بدءاً تأكل التماطح كالكباش و ربما رشة كالديوك والسعابات كفرض من فروض الصلاة: هذه التمارين المسمرة منذ الطفولة تسلم طفل الأمس و سبي اليوم و شاب الغد جنديّاً ضارباً من قعر جحيم الضلال فيكون صومه وصلاته السياسية طقوساً رعناء يعيق أن تكون أملاً أجدّيّة رحم الوطن والأمة فقد وجدنا النزاعات الداخلية في غالب شعوب العالم الثالث بدأت بالعشرين استرضاءة وتقتيلاً وتجريحاً من معارك هو عدو من شعب آخر فانظر كيف ان ما من جهة سياسية في العالم المتخلف رضيت المشاركة في الحكم هو جهة سياسية شرع فلا بد من (معركة تصفية) يتقبلها المغاضن على أنها طبيعي لكل الجروح. فهنا سببان من أسباب التخالف والاختلاف، أولهما تراث منتقل من الماضي نشر الشك وسوء الظن [ليس من المعقول اتفاق الاسلام الستين وسبعين فرقة نجت من حسن الفهم توفير اليقين وهي الوحدة والوئام]. ولكن كان الماضي الكردي، مثلاً، خالياً من الخلافات السياسية التي ذو بولوجية الزمنية فان سببه هو بداية الحياة والاجتماع الكرديين، وشمل العلم(1) والفن والتكنيك الاقتصاد وحتى ان تاريخنا خال من بناء كرسي علمي صرف الدفء تاريخي متأخر جداً وفي اماكن قليلة جداً هي قرب الحلوم، ثاني السببين هو امتداد متجدد لما كان في الماضي بمعنى أن الكردي الذي ورث التفرق والشتات و اضاعة يجد نفسه اليوم في واقع لم يتغير عما كان في الماضي وزاد من تبعاته ان (السياسة العصرية) تمارس في ردهاته (وكثير من بلدان التخلف) بروح قطاع الطرق ما قبل مئة سنة ولا غرابة في ذلك فأن كل طرف من طراف السياسة المتجهة في واقع الكرد يقيم معادلاته على اساس أن الأطراف الأخرى ماضية في التخمين يوم القصير فأنت ترى ان كل طرف مغرباً يشتري ولاء أحد اعدائه بالمزيد من رواتب يقبضها (البيشمركة) الواحد الآخر

---

1) العلم في المصطلح السائد بيننا يشمل علوم الماضي وعلوم العصر. والواقع هو ان علماء الدين الأكراد لم يتخلفوا في ركب الأمم السالفة الأخرى في اي من فروع التدريس. اذكر القارئ بأنه ما كان يقصد بلفظ (العلم) قديماً هو العلوم النظرية من دين ولغة وما شاكلها. اما العلوم التجريبية فقد كانت تسمى العلوم الوضيعة تفريقاً لها عن العلوم الرفيعة.